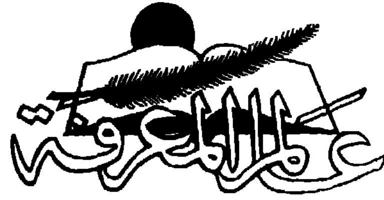


٢٣٥

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

الإنسان الحائر بين العلم والخرافة

الطبعة الثانية

تأليف: د. عبدالمحسن صالح

ربيع الأول ١٤١٩ هـ ـ يوليو/ تموز ١٩٩٨ م

ردمك ٢ ـ ٨ ٠٠ ـ ٠ ـ ٩٩٩٠٦

ISBN 99906 - 0 - 008 - 2

صدرت السلسلة في يناير (١٩٧٨)

بإشراف : أحمد مشاري العدواني (١٩٢٣ ـ ١٩٩٠)

الإنسان الحائر بين العلم والخرافة



المحتـوى

الصفحة

***

تمهـــيد

مثل المجتمعات البشرية في نموها وإدراكها ، كمثل طفل جاء إلى الحياة ليمر بمراحل عديدة ، فيتطور فيها نموه ، وتزيد تجاربه ، وتتسع مداركه ، وتصقل معارفه . . . صحيح أن الإنسان ـ كفرد ـ يولد وينمو ويتعلم ويتزوج ويهرم ثم يموت ، لكن المجتمعات لا تندثر ولا تموت ، فهي دائما تجدد نفسها عن طريق التناسل والتكاثر ، ومن هذا التجدد تأتي أجيال من وراء أجيال ، وبذلك ينتشر النوع ، ويشتد عوده في الزمان والمكان .

وإذا كانت مراحل عمر الفرد منا تقاس بالسنوات أو بعشرات السنوات ، فإن المراحل التي تمر بها الدول والمجتمعات تقاس بمئات أو ربما بآلاف السنين . وفي كل مرحلة من هذه المراحل يكتسب أفرادها مفاهيم جديدة ، وخبرات عديدة . . . الخ ، حتى تقع بين أيدينا ـ في النهاية ـ على هيئة تراث بشري تمتد جذوره في أعماق الزمن .

على أن الدارس لنشأة المجتمعات البشرية ، وأنماط سلوكها ، وضروب أفكارها ، سوف يضع يديه على حصيلة هائلة من الأفكار الغريبة ، والتقاليد المثيرة ، ومعظمها ـ بلاشك ـ قد نبع من تفاعل الإنسان مع البيئة الطبيعية التي يعيش فيها . . . فلقد رأى الإنسان القديم مثلا من ظواهر الطبيعة أمورا حيرته أشد حيرة ، فأثارت مخاوفه ، وشحذت خياله ، ومن ثم فقد بدأ في استنباط تفسيرات تتلاءم وإدراكه البدائي أو البسيط ، ومن هذه التفسيرات الخاطئة للظواهر الكائنة ، نبتت الخرافات ، وترعرعت الخزعبلات ، وانتشرت الأساطير في كل المجتمعات!

إذ مما لاشك فيه أن الإنسان القديم ـ وحتى إلى عهد حديث نسبيا ـ قد اصطدم بظواهر طبيعية وبيولوجية وفلكية كالتي نراها في عصرنا

الحاضر ، فرأى رياحا تزمجر ، وبرقا يلمع ، ورعدا يجلجل ، وصواعق تشعل النيران في الأشجار والغابات فتحرق وتدمر ، وسحبا تنطلق وتمطر ، ومياها تندفع كالطوفان فتكتسح وتُغرق . . . ثم إذ بالأرض - بين الحين والحين - ترتجف تحت قدميه في زلازل تهزه هزا فتشق الأرض ، وتدمر الجبال . . . وإذ ببركان يثور هنا وهناك ، فيلقي من جوفه حمما وسعيرا تتصاعد أدخنته إلى عنان السماء . . . كل هذه الأمور وغيرها ، لاريب في أنها أفزعته وأخافته ، وطبيعي أنه لا يستطيع أن يدرك مغزاها ومعناها كما ندرك نحن ذلك في أيامنا الحاضرة ، ومن هنا تجسدت في خياله قوى أسطورية أكبر منه وأعتى ، فأرجع ما رآه إلى آلهة وأشباه آلهة تمسك بمقاليد الأمور ، وتتحكم في الأمطار والبرق والرعد والزلازل والبراكين والرياح . . . الخ ، ومن ثم فقد اخترع لكل ظاهرة من هذه الظواهر إلها ، فكان إله البرق ، وإله الرعد ، وإله النيل ، وإله الخصب . . . الخ . . . الخ .

وعندما كان الإنسان البدائي يهجع إلى كهفه لينام ، تأتيه الرؤى والأحلام ، ولا شك في أنه قد تحير لهذه الظاهرة أعظم حيرة ، فأرجع ما يراه أثناء نومه إلى روحه التي تترك جسمه ، وتجول هائمة على حريتها ، وقد يرى - ضمن ما يراه في منامه - أمواتا وكأنما هم قد عادوا إلى الحياة ، وقد يتراءى له من بينهم إنسان ربما يكون النائم قد أزهق روحه ، فيعود إليه في حلمه ليعاتبه أو يطارده ، أو يهجم عليه ليقتله ، وعندئذ قد يقوم النائم فزعا لما رأى ، وقد يقص ذلك على أترابه ، ويبدأ الخيال في نسج أساطير تشرح تلك الظاهرة الغريبة ، فيعتقد أن هذه الأرواح لا تترك دنياها ، بل تجيء بين الحين والحين لتزور الأحياء وهم نيام . . . إلى آخر هذه التفسيرات التي تتناسب بقدر ما تطور العقل وأدرك!

ومن حصيلة هذه الظواهر المتباينة ، سيطرت على الإنسان القديم أوهام شتى ، لكن هذه الأوهام لم تختف حقا في عصرنا الحاضر . . . ذلك أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يتخيل . . . إنه مخلوق بطبعه خيالي . . . صحيح أنه لا يستطيع أن يهضم كثيرا هذه التفسيرات الساذجة

التي جاءته من أسلافه القدامى ، ولا أن يرتاح كثيرا لأساطيرهم الغريبة ، إلا أنه اصطدم أيضا ببعض ظواهر طبيعية وبيولوجية وفلكية وصناعية (أي من صنع يديه هو) حديثة ، ولجهله بطبيعتها بدأ يفسرها تفسيرات هي أقرب للأساطير القديمة منها إلى التفسيرات العلمية الحديثة .

أي أن لكلِ عصر خرافاته . . . ولكل بيئة أساطيرها ، لكننا لن نتعرض في هذا الكتاب للفكر القديم في تفسيره للظواهر التي لم يستطع لها تعليلا ، فما أكثر ما كتب في هذا الموضوع ، لكن مكتبتنا العربية تخلو حتى الآن ـ وعلى قدر علمنا ـ من كتاب علمي جاد يتناول تفسيرات لما وقر في عقول هذا الزمان من خرافات حديثة اتخذت ميدان العلم لها ستارا لتصول فيه وتجول ، رغم أن العلم بريء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب!

والخرافات الحديثة هي ـ بلا شك ـ نتيجة للأنشطة المختلفة التي يعيش فيها الإنسان الحالي . وقد يكون لهذه الخرافات جذور قديمة ، لكنها اتخذت نغمة أخرى لتساير عصرنا هذا ، ومما زاد الطين بلة أن الغالبية العظمى من أجهزة التثقيف والإعلام عندنا ، وفي كثير من دول الشرق والغرب أيضا ، ما زالت تروج للعديد من الخزعبلات أو المزاعم الضارة . . . فبدلا من أن تكون أداة توجيه وترشيد وتحكيم بين الغث والسمين ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ ، بدلا من ذلك نراها تنشر بين الناس مزيدا من أمور الدجل والشعوذة والظواهر الشاذة ، وتحاول ربطها بعلومنا الحديثة .

فالذي يتحدث عن الخزعبلات والخرافات ، ويرجعها إلى ما يسميه بالمعجزات ، لا يدرك شيئا من نواميس الكون والحياة . فالمعجزة ـ في نظره ـ شيء خارق أو خارج على المألوف . والمعجزة أيضا ـ كما وقر في عقول من لا يفقهون ـ أمر لا يخضع لقانون ، ولا يسري بناموس ، ولا يتبع سنن الله في خلقه ، ومن هنا تبدو لهم المعجزة كشيء خارق ومعطل للنظم المتقنة البديعة التي يراها رجل العلم في كل أمر من أمور هذا الوجود العظيم ، بداية من نظم الذرات الدقيقة ، إلى إتقان خلق السماوات

العظيمة ، وما بينهما من أرض وكواكب ومخلوقات لا نستطيع أن نحصيها عدا ، ومن أجل هذا لا يرتاح رجل العلم كثيرا لأمور الكرامات والمعجزات التي ينادي بها عامة الناس .

صحيح أن العلم تجابهه بعض التحديات ، وصحيح أن هناك ظواهر لم يعرف كل أسرارها بعد ، وصحيح أننا لم نصل إلى نهاية المعرفة ، وأن ما لا ندرك سره اليوم قد ندركه غدا ، فكل شيء يتطور ويصقل ، والتطور يحتاج إلى زمن ، وفي كل يوم نرى إنجازات علمية جديدة ، ونضيف إلى معارفنا ما لم تعرفه كل الأجيال السابقة ،لكن ذلك لا يعني أن ما نعجز عن إدراكه الآن ، نعيده إلى المعجزة ، بل يعني أن الوقت لم يحن بعد لإدراكه ،لقصور نسبي في مفاهيمنا الحالية .

إن الراسخين في العلم يدركون تماما أن كل شيء في الأرض وفي السماء يسير على هدي شرائع لا استثناءات فيها ولا فوضى ، ولو حدث الاستثناء ، لفسد كل ما في الأرض والسماء . لكننا ـ والحق يقال ـ لا نلحظ إلا كل ما هو بديع ومنظم ومتقن وجميل . ولو جاءت المعجزات التي يتحدث بها الناس في هذا الزمان لتستثني من القوانين الطبيعية بشرا أو خلقا أو أديانا أو شعوبا أو أجراما ، لكان معنى ذلك أنها ليست بقوانين صامدة ، ولا شرائع جادة ، وهي ـ قطعا ـ ليست كذلك . إذ ليس أدل على صحة ما نرمي هنا إليه مما جاءت به هذه الآية الكريمة ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ . . . الفتح ـ آية ٢٣ .

وهذا هو القول الفصل الذي يجد هوى عظيما في عقول من يتعاملون مع سنن هذا الكون الصامد العظيم . . . فكل شيء فيه يسير إلى قدر معلوم ، وعلى حسب سنن لا تلاعب فيها ولا تبديل!

إذن فالمعجزة هي كل ما عجز العقل البدائي أو العادي عن تعليله ، فإذا درست الظاهرة التي يظنها الناس معجزة أو خارقة ، فإنه يمكن ـ في أغلب الأحيان ـ تفسيرها على أساس من دراسة وبحث وعلم . وعندما تفسر ،

ويدرك سرها ، تنتفي في الحال معجزاتها ، ولهذا يقولون : إذا بزغ نور العقل ، ولى زمن المعجزات!

لكن مما لا شك فيه أن مثالا واحدا نقدمه هنا في البداية سيوضح لنا معنى المعجزة في عرف بعض الناس ، ثم رفض هذه المعجزة ذاتها عند غيرهم ممن يعلمون .

تذكر لنا كتب التاريخ أو السيَر أن الإمبراطور قسطنطين الأكبر قد اعتنق المسيحية بعد أن كان يعاديها عداء شديدا ، ويعلن عليها حربا ضارية ، وسر هذا التحول الغريب يرجع إلى «معجزة» رآها رؤية العين في السماء عام ٣١٢م ، إذ انطلق إليه من يخبره أن الله قد شاء أن يظهر له المعجزة ، ولما خرج لينظر إلى حيث أشاروا إليه ، رأى الصليب معلقا في السماء ، وهو بالفعل قد رآه في طبقات الجو العليا ، ليس هذا فحسب ، بل إن الصليب كان يتحرك ويتراقص ويضيء أمام عينيه وعيون كل من رأوه ، وعندئذ لم يجد بدا من اعتناق المسيحية ، وصار من أخلص أنصارها ، واتخذ الصليب له شعارا ، إذ كيف ينكر هذه المعجزة العظيمة وقد رآها رؤية العين؟!

لكن المراجع العلمية توضح لنا حقيقة هذا الأمر الغريب ، وتنفي أنه معجزة على الإطلاق ، بل هو - تأكيدا - ظاهرة طبيعية لم يستطع العقل البدائي أن يفسرها التفسير الصحيح ، ومن هنا أسبغ عليها صفة القداسة ، ونظر إليها على أنها واحدة من الخوارق أو المعجزات!

فحقيقة هذا الصليب المضيء المنطلق في السماء أنه ظاهرة جوية تنتج من انعكاس ضوء الشمس على «ندف» الثلوج المتساقطة من السحاب تحت ظروف جوية خاصة ، وبحيث يؤدي هذا الانعكاس إلى تكوين شريطين ضوئيين متعامدين أمام الشمس ، فيبدوان على هيئة صليب ، وأنت تستطيع أن تشاهد هذه «المعجزة» أو الظاهرة في أي وقت تشاء ، فلو أنك نظرت إلى مصدر ضوئي بعيد من خلال حاجز من السلك الرفيع المنسوج في إطار إحدى النوافذ (وهو من النوع المانع للحشرات الصغيرة

كالبعوض) ، فسوف ترى هذا «الصليب» متعامدا على مساحة من السلك ، ذلك أن السلوك المنسوجة والمتداخلة مع بعضها البعض طولا وعرضا ، سوف تعكس الضوء الواصل بنفس الصورة التي تعكسه بها بلورات الثلج المتساقطة ، لكن الصليب الضوئي في نافذتنا يبقى ساكنا ، في حين أنه لا يثبت على حال في طبقات الجو ، نظرا لحركة «الندف» الثلجية بالرياح تارة ، وبجاذبية الأرض تارة أخرى .

والواقع أن هناك مئات من الظواهر الطبيعية ، والبيولوجية والفيزيائية . . . الخ ، التي ما زالت تتجلى للإنسان العادي في وقتنا الحاضر ، وهو ـ لقصور في فهمه لهذه الظواهر ـ لا يجد أمامه من تفسير مريح ومثير وجذاب إلا أن يرجعها إلى مخلوقات من كواكب أخرى جاءت إلى الأرض في «أطباق طائرة» . ولقد حقق العلماء المختصون معظم هذه الظواهر ، واستطاعوا تعليلها على أساس من علم ، لا على أساس من خزعبلات وتصورات رديئة تسيطر أحيانا على العقل البشري ، فيجنح إلى الخيال ، ويهجر الحقيقة والواقع . . . صحيح أن هناك كتبا كثيرة في هذا الموضوع ، وصحيح أن حكايات «الأطباق» ما زالت مادة دسمة في الصحافة العالمية والعربية ، وصحيح أن هناك ندوات ومؤتمرات وجمعيات (غير علمية في أغلب الأحيان) تتبنى رصد هذه «الأطباق» ، والتحدث مع زوار الفضاء ـ على حد ما يزعمون ـ ثم نشر هذا على الناس . . . كل هذا صحيح ظاهرا ، لكن الباطن أو الجوهر غير ذلك على الإطلاق ، ويرجع الجري وراء الظاهر إلى قصور في الإدراك ، أو جهل بالأسباب ، أو السعي نحو سراب خادع ، بغية الإثارة ، أو تحقيق مكاسب مادية وأدبية على حساب الحقيقة المفترى عليها ، ولو رجع هؤلاء إلى العلماء المتخصصين في مثل هذه الظواهر ، لأدركوا كم كانوا بها جاهلين ؛ فمثل ما يدعون كمثل «معجزة» الصليب في الفكر الأسطوري ، ثم تصحيح هذه الخرافة من خلال الفكر العلمي الذي يقوم على أساس متين .

وطبيعي أننا سنفرد بابا مستقلا لنوضح كيف نشأت هذه الخرافة الحديثة ـ خرافة الأطباق الطائرة ـ وكيف حققها العلماء ، فظهر زيفها ، لكن الأمر الأخطر من ذلك هو ما يختص بصحة الناس ومرضهم ، وحياتهم وموتهم ، إذ نرى أجهزة الإعلام ـ من صحافة وإذاعة وتليفزيون ـ تنشر على الناس معجزات طبية ما أنزل الله بها من سلطان ، فهناك مثلا العلاج الروحي ، والجراحات الروحية ، والقوى الخفية التي تنطلق من هؤلاء المعالجين لتسري في أجسام المرضى ، وتمنحهم الشفاء من كل العاهات والأمراض ، وفي دقائق معدودات!

ويذهب التضليل إلى منتهاه عندما يؤكد ناشرو هذه المعلومات أن تلك القوى الخفية أمكن تصويرها بأجهزة العلم الحديثة ، وأنها ظهرت على أصابع المعالجين الروحيين كهالات مضيئة ، وهي نفس الهالات التي كانت تظهر على رؤوس القديسين وذوي الكرامات ، أو هي نفس الهالة النورانية التي تحيط بالجسد ، وتؤكد وجود الروح ، وغير ذلك من خزعبلات كثيرة يحاولون ربطها في إطار واحد ، لتبدو أمام الناس وكأنما هي حقائق لا ريب فيها ، ومن هنا قد يهجرون سبيل العقل ، ويلقون بأنفسهم في أحضان الخرافة ، ويلتمسون الشفاء عند الدجالين والمشعوذين . . . أي كأنما أجهزة الإعلام والتثقيف هنا تضلل الناس ولا ترشدهم ، وتوجههم وجهة تضرهم ولا تنفعهم!

لهذا أفردنا الجزء الأكبر من هذا الكتاب ، لنوضح فيه بشيء من الإسهاب ، السر الكامن وراء المعالجين الروحيين ، والهالات المضيئة ، والقوى الخفية ، والتصوير الروحي الذي أدى إلى اكتشاف هذه «المعجزات» التي يتحدث عنها الناس ، ويتعرض لها كتاب لا يدرون شيئا عن حقيقتها أو مغزاها ، ومن ثم فقد وقعوا في أخطاء كبيرة ، ثم أوقعوا الناس معهم في خرافات وخزعبلات لا يقرها عقل ناضج ، ولا فكر صائب!

ومن الخرافات الحديثة أيضا ـ والتي شدت انتباه الناس حقا ـ تلك المزاعم التي تشير إلى أن للنباتات أحاسيس أرق من أحاسيس البشر، وعواطف أرقى من عواطف الإنسان سيد المخلوقات. فهي تحزن وتبكي وتفرح وتكره وتحب وتستاء، وكأنما هي قد جاءت بعقل مدرك كعقول البشر . . . والواقع أن هناك كتبا كثيرة (غير علمية بطبيعة الحال) قد تناولت هذا الموضوع المثير، وكتبت فيه ما كتب مالك في الخمر، ثم يجيء بعض الكتاب المسلمين لينقلوا هذه الخرافات، وليستشهدوا بها على أمر حدث للنخيل عند وفاة الرسول عليه السلام. وهذا أمر مما لا يصح أن يتردى فيه هؤلاء الكتاب، ولو تحروا الدقة في دينهم ودنياهم، لما كتبوا ما كتبوا، وكان لابد من تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة، ونعود إلى الهيئات العلمية التي حققت هذه الخرافات وأظهرت زيفها، لعل كتابنا لا يعودون إلى مثلها!

وهناك أيضا لغط كثير حول بعض أفراد امتلكوا طاقات أسطورية، وبها يحركون الجماد، ويثنون الملاعق والسكاكين بمجرد تركيز عيونهم عليها، وأمور أخرى كثيرة ومثيرة سوف نتعرض لها بقدر ما يسمح به المجال في هذا الكتاب.

وكلمة أخيرة نود أن نركز عليها في نهاية هذه المقدمة، إذ من الملاحظ دائما في كل ما كتب الكتاب، وتحدث المحدثون، وعلق المعلقون، من الملاحظ أنهم يحشرون العلم حشرا في هذه الخرافات، ويؤكدون أن العلم قد حققها، وعجز عن تفسيرها، واضطر مرغما إلى الاعتراف بها وتبنيها. وكل هذه ادعاءات باطلة، وسوف يتبين لنا في ثنايا هذا الكتاب أن العلم منهج عقلي تجريبي واضح، لأنه يستقي قوته وصموده من خلال النظم الطبيعية والبيولوجية والكونية التي يحاول دائما أن يعرف الأسرار الكامنة فيها، ومن خلال هذه المعرفة ندرك أن الكون والحياة قد جاءا بنظم لا يأتيها الباطل ولا يمكن أن تتخللها فوضى، إنما الفوضى قد تنبع من العقول التي تقفز إلى الاستنتاجات قفزا، دون تقصي الأسباب التي تؤدي إلى مسبباتها.

لن نطيل هنا ، ولنلج إلى تقصي حقيقة ما يقال عن عالمين : عالم العلوم الحديثة ، وعالم الخرافات الحديثة ، وكيف يدحض هذا ذاك بالحجة القوية ، والبينة الحسنة .

والله الموفق . . . وهو القائل ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ .

دكتور عبد المحسن صالح



الفصل الأول

العلاج الروحي بين الخدعـة والحقيقة

«شاهد الفرنسيون على شاشة التليفزيون أصابع رجل فيليبيني وهي تخترق بطن مواطن فرنسي يدعى هنري ليون توباكيس ، وتخرج من كليتيه رمالا ، وذهل المشاهدون عندما لم يشاهدوا أي أثر لجروح العملية ، ولقد حمل المريض صور العملية بنفسه ، وطاف بها على دور الصحف والتليفزيون ، وروى قصته ، فقال إنه من أهالي مرسيليا ، وإنه كان يعمل إليكترونيا(!!) على السفن الإسكندنافية ، ثم أقام في اليابان حيث شعر بآلام في الكليتين ، ولم يستطع الأطباء اليابانيون شفاءه ، فذهب إلى الفيليبين ، وقصد عيادة أحد الذين يعالجون بالمعجزات (هكذا !!) على مسافة ١٥ كيلو مترا من مانيلا ، وهنا ـ كما يقول ـ رأيت فتاة ممددة على سرير العمليات ، ومد الطبيب يديه إلى بطنها فانشقت بمجرد لمس أصابعه لها ، وأخرج منها ضفدعة حية ، ورأيت بعيني الضفدعة وهي تتصارع داخل الكيس الذي وضعت فيه توطئة لحرقها ، وفكرت في الهرب ، فأنا لا أصدق ما تراه عيناي ، وتمددت بدوري بعد أن خلعت قميصي ، وأحسست بأصابع الطبيب تتسرب تحت الجلد ، وتجول بين كليتي ، وشعرت بسائل يتدفق على بطني من الخارج ، وكان هو الدم الذي سال مني ، ولكنني لم أشعر بأي ألم»!

«وبعد ثلاث دقائق أقفل الجراح الجرح ، ومسحه بقطعة من القطن ، ووضع عليه عصابة ، وقال لي الطبيب : اذهب الآن واسترح واشكر الله .

وجلست أشاهد بقية العمليات عن قرب ، وبعد أيام رفعت العصابة ، فلم أر أي أثر للجرح ، وشعرت براحة بعد أن انتزعت الرمال من كليتي» .

انتهت هذه المعلومات المثيرة التي نقلناها بدورنا ـ وبالحرف الواحد ـ من إحدى المجلات الأسبوعية العربية واسعة الانتشار ، والتي استمرت عدة أسابيع وهي تنشر على الرأي العام من هذه الخوارق والمعجزات الشيء الكثير . وتؤكد هذه المقالات الغريبة أن كل هذه الأمور تقوم على أساس من علم ، وأن العلماء والأطباء لا يستطيعون تعليلها ، وأنهم لا يجدون حرجا من إرسال مرضاهم الميئوس من شفائهم للعلاج على أيدي أصحاب الخوارق والمعجزات ، ثم يضيف ناقل تلك المقالات المترجمة عن كتاب رديء مليء بالخزعبلات والأساطير ويقول : «والقصص المدعمة بالأدلة كثيرة ، ويرويها لك ألوف الأمريكيين والأوروبيين والآسيويين الذين يفدون من كل مكان للعلاج الشافي دون وضع أي أداة ميكانيكية مما يستعمل في الجراحة ، والشفاء مضمون بعد دقائق قليلة» ـ على حد زعم المؤلف أو المترجم . . . هكذا وببساطة شديدة!

أي كأنما هذه المزاعم التي تنشرها واحدة من أجهزة التثقيف والإعلام بين ملايين الناس تدعونا إلى طمس العقول ، وإغلاق المستشفيات ، وعدم الثقة في الأطباء والجراحين ، ونبذ العلم ، وإغلاق أبواب البحوث التي لا فائدة فيها ، ولا مغنم من ورائها ، لأن معجزات الفيليبيين وخوارقها ، ومعطلي قوانين الكون والحياة من أطبائها وجراحيها تضمن لك العلاج ـ من كل الأمراض المستعصية ـ في دقائق معدودات .

هل يمرض الناس بالضفادع حقا؟

إن امتهان عقول القراء إلى الدرجة التي تدعوهم إلى تصديق أن أصحاب المعجزات والخوارق ، بمقدورهم أن يستخرجوا الضفادع من بطون المرضى ، فيتم شفاؤهم ، أو يشقون بطونهم بأصابعهم ، لتسيل دماؤهم على

جلودهم ، ثم يستأصلون ما يريدون من أورام والتهابات وحصى ورمال وأحجار . . . الخ . . . الخ ، ثم يقوم هؤلاء المرضى دون أن يكون هناك أي أثر لجرح . . . كل هذا وغيره يدعونا إلى التساؤل : هل إذا خدعنا الحاوي أو الساحر بسرعة حركته ، وخفة يده ، ودقة تمويهه ، فأظهر لنا أنه يستطيع أن يخرج الكتاكيت من فمه أو أذنه أو كوعه ، فهل يعني ذلك أن الكتاكيت كانت تسكن زوره أو معدته أو ذراعه؟

ولنعد إلى التساؤل مرة أخرى : في أي مجال من مجالات الطب يمرض الناس بالضفادع؟ . . . وكيف تعيش الضفادع ـ التي يخرجونها حية ـ في أجسامهم؟ . . . وما هي أعراض تلك «الأمراض الضفدعية» التي تنشأ في أجسام الناس؟ . . . وهل يمكن استخراج سحال وثعابين وعصافير وفئران ، فيتم الشفاء من أمراض ما أنزل الله بها من سلطان؟ . . . ثم لماذا طاف الشاب بصور عمليته الجراحية وعرضها على دور الصحف والتليفزيون ولم يعرضها مثلا على هيئة طبية معترف بها لتقول فيها رأيها؟ . . . ثم أي صور تلك التي يحملها لعملية ليس لها أي أثر لجروح في جسمه؟ . . . وهل كانت هناك عمليات ودماء ورمال وضفادع حقا؟ . . . أم أن هذه الأنباء ـ التي تنشرها أجهزة الإعلام على الناس ـ تضليل وخداع وشعوذة تناسب فكر هذا الزمان؟

مثل تلك المزاعم الرخيصة ، والأفكار الساذجة ، والنكسات الفكرية التي تدعو الناس إلى العودة إلى الوراء ـ إلى عصور السحر والشعوذة والدجل والخوارق والمعجزات ـ مرفوضة في الأوساط العلمية رفضا باتا ، وهي لم ترفضها حبا في الرفض ، ولا هي كذلك تتعالى عليها ، بل لقد ثبت ـ من خلال تحريات طبية وعلمية دقيقة ـ أنها خزعبلات قد تضر ولا تنفع!

ولقد كان من الممكن أن نقرأ هذه المقالات ، ونعتبرها شيئا من التسلية وضياع الوقت ، لكن الذي دفعنا إلى التعرض لهذه القضية

المسمومة وغيرها ، أنها تحاول ـ وبكل الوسائل ـ أن تلصق بالعلم ما ليس فيه ، أو تقول إن هذه الخوارق والمعجزات قائمة على أسس علمية ، وأن الأطباء يعترفون بها ، ويهللون لها ، ويتعجبون من طب وعلم سحرة الفيليبيين ، بل ويذهبون إليهم ليتداووا عندهم ، أو يرسلون مرضاهم ـ الذين حاروا في علاجهم ـ للتداوي عند هؤلاء الناس الذين يحققون كل يوم معجزات تذهل العلم والعلماء ، والطب والأطباء!

خذ مثلا هذه الفقرة التي نشرها ناقل هذه المقالات ، فتراه يقول بالحرف الواحد «نحن نعيش عصر العلم . . . هذا ما يقنعنا به العلماء كل يوم ، ولكن هل ماتت الخوارق وانتهى أمرها؟ . . . العصر نفسه يقول : نعم ! . ولكن العجيب «أن العلم بدأ يقول : لا . . . لم تمت الخوارق ، فمكانها محفوظ ، وصدري مفتوح لها»!

أو قد تقرأ في صدر هذه السلسلة من المقالات بعض عناوين مثيرة تقول : «إجراء العمليات الجراحية دون مشرط ودون تخدير . . . حقيقة علمية»!! . . أو «العالم كله يتحدث عن الخوارق الطبية»! . . . أو «لأول مرة تفسير علمي للخوارق»! . . . أو «الخوارق . . . الظاهرة التي حيرت أطباء العالم»! . . . أو «التليفزيون أيضا يعالج بالخوارق» . . . أو «دكتور في الطب يترك العلم إلى الخوارق»! . . . أو «لأول مرة تنشئ جامعات ألمانيا كرسيا للخوارق»! . . . الخ . . . الخ .

ثم يذهب التضليل إلى غايته عندما يزعم المؤلفون والناقلون أن هيئة الصحة العالمية تتبنى هذه الخزعبلات ، وتعترف بها ، ولهذا يجيء بالحرف الواحد أيضا «أذاع تليفزيون هامبورج حلقة جديدة من معجزات طب الخوارق في أفريقيا ، وقد دعا كل ذلك منظمة الصحة العالمية إلى الاهتمام بهذه الظواهر ، واقترح مسيو هـ . ماهلر ، المدير العام لهذه المنظمة العالمية إنشاء اتحاد لأصحاب الخوارق الذين يعالجون دون مشرط ، لينتفع بقية العالم بمعجزاتهم الشافية»!!

ولقد دعانا هذا الخبر المزعج إلى كتابة خطاب للدكتور هـ . ماهلر رئيس المنظمة المذكورة للاستفسار منه عن حقيقة ما نشر على لسانه ، وهل تتجه المنظمة إلى اعتبار الخوارق ضمن المقومات التي تقوم عليها وسائل علاج الناس؟

ولقد تلقيت ردا أوضحت فيه المنظمة أن البعض يسيء الفهم فيما تقترحه المنظمة من برامج ، فشعارها ـ أي المنظمة ـ بالنسبة للشعوب النامية أن «تكيف ولا تتبنى» Adept, don't adapt . بمعنى أن لكل بيئة عاداتها ، أو أن ما ينفع مع مجتمع ، قد لا ينفع مع مجتمع آخر ، كما أنه لا يمكن للمنظمة أن تنقل هذه المجتمعات المتخلفة نقلة سريعة لتعيش في تكنولوجيا القرن العشرين ، لأنها ببساطة قد لا تستوعب هذه القفزة أو الطفرة الهائلة ، ومع ذلك ، فالمنظمة لا تترك مثل هذه الشعوب أو المجتمعات لقدرها ، بل تحاول أن تدرس وسائلها العلاجية البدائية ، ثم تأخذ منها ما تراه صالحا لتلك البيئات ، وتحور فيه وتغير وتطور وتدرب ، بحيث تصبح وسائل العلاج أكثر أمانا ، ولم تذكر المنظمة ـ في ردها المطول ـ ما يشير من قريب أو بعيد إلى طب الخوارق والمعجزات ، أو العلاج بالروحانيات ، وغير ذلك مما يلصق بها نتيجة لسوء فهم أو قصد ـ لسنا ندري!

إن الدعوة التي تقدمها أجهزة التثقيف والإعلام إلى الناس إنما هي دعوة غير مباشرة إلى قتل النفس البشرية ، من خلال اللجوء إلى التداوي بخزعبلات وقرت في عقول الناس من قديم الزمن ، ثم تأتي هذه الأجهزة الخطيرة لتنشرها وتؤكد حقيقتها ، وتقحم العلم عليها ، وكان الأولى بها أن تحاربها بعد أن تبين للناس ما يكمن فيها من خداع وخرافات .

طبيب جراح يبحث عن المعجزة

وقبل أن نتعرض لما نعنيه بالقتل غير المباشر ، وذلك باللجوء إلى ما يطلقون عليه وسائل العلاج الروحي من جميع الأمراض ، أو اللجوء إلى

إجراء ما يسمونه بالعمليات الجراحية الروحية ـ قبل أن نتعرض لذلك ، نرى أنه من الأوفق أن نقدم دكتور ويليام نولين الذي أمضى سنتين كاملتين وهو ينتقل بين الولايات الأميركية المختلفة ، ثم يذهب بنفسه إلى الفيليبين بحثا عن المعجزة التي يتحدث عنها الناس في كل مكان .

ودكتور نولين حاصل على درجة الدكتوراه ، وهو من الجراحين المشهورين والممتازين ، وقد أجرى أكثر من ستة آلاف عملية جراحية ، وهذا يعني أن لديه خبرة واسعة ، وهو بهذه الخبرة يستطيع أن يتعرف على مواطن الصدق والخداع فيما يطلق عليه الناس اسم الجراحات الروحية ، كما أنه مشغول في عمله من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، لكنه ـ مع ذلك ـ هجر عيادته ، وراح يجول بحثا عن الحقيقة .

ترى . . . هل عثر على معجزة واحدة؟

هذا ما سوف نتعرض له هنا باختصار ، ومن خلال ما قدمه لنا دكتور نولين في كتابه «الشفاء ـ طبيب يبحث عن معجزة» ، وهو ـ من خلال هذا الكتاب ـ يضع لنا جميعا النقط فوق الحروف ، ويوضح لنا كيف يقع الناس بالآلاف ضحايا لخزعبلات يجري تمثيلها بخداع متقن ، وقد يدفعون الثمن غاليا ، فيموتون على أيدي دجالين وصلوا إلى القمة في التمثيل والخداع .

في الولايات المتحدة مثلا تنتشر جمعيات روحية كثيرة ، وإليها يلجأ ذوو العاهات العضوية ، والاضطرابات النفسية ، والتقاليد الخرافية ، وفيها أيضا نسبة لا بأس بها من ذوي الأمراض العقلية ، ولهذه الجمعيات نشرات ودوريات ومجلات وكتب تنشر فيها كل ما هو غريب ومثير ، وهي بطبيعة الحال تتحدث كثيرا عن المعجزات الروحية ، وتطنب فيها ، وتدعو الناس إلى طلب العلاج الروحي ، لأنه يحقق مالا يستطيع الطب تحقيقه ، وطبيعي أن هناك أمراضا مستعصية لم يستطع الطب أن يصل فيها إلى نتيجة ، أو بعبارة أوضح : عجز عن مداواتها ، مما أصاب أصحابها بخيبة أمل ، ومع ذلك لم يفقدوا الأمل ، فلجأوا إلى معجزة قد تحقق لهم ما عجز

الطب عن تحقيقه ، والأمل يكمن في العلاج الروحي ، فهو الملاذ الأخير الذي به يلوذون ، وإليه يلجأون !

وللعلاج الروحي - بطبيعة الحال - وسطاء مشهورون ، ومن أشهر هؤلاء يبرز في القمة رجل وامرأة يعيشان في الولايات المتحدة ، أما الجراحات الروحية فموطنها الفيليبين ، وبها تشتهر ، ولهذا ترتبط الدعايات السياحية في الدول المختلفة (خاصة في أوروبا وأمريكا) بجراحي الفيليبين الروحانيين ، بل ويتضمن البرنامج السياحي - الذي تقدمه أي شركة سياحية - زيارة لعيادات الجراحة الروحية هناك ، والنتيجة أن الفيليبين تتقبل سنويا عشرات الألوف من السائحين ، ومعظمهم يذهب إلى العلاج ، وعندما يعودون ، يملأون دنياهم دعايات بمعجزات العمليات الجراحية التي خلصتهم من آلامهم وكل أمراضهم .

قبل أن يخوض دكتور نولين في هذه التجربة الصعبة - تجربة البحث عن معجزة تشفي الأمراض المستعصية - بحث في ملفات الهيئات الصحية ، عله يجد أثرا لحقيقة هذه الدعايات الواسعة ، إلا أنه لم يجد شيئا ذا بال .

وبدأ يجري اتصالات واسعة ليعرف أشهر من يعالجون بالمعجزات الروحية في الولايات المتحدة ، فلم يجد من هم أكثر شهرة ونجاحا ومعجزات من الآنسة كاترين كولمان ورجل يدعى نوربوتشن Norbu Chon ، وقرر أن يذهب إليهما ليدرس الأمر على الطبيعة ، وليرى بعينيه كيف تتحقق المعجزات في التو واللحظة .

كاترين كولمان . . . مانحة العلاج الروحي للآلاف!

وذهب نولين إلى حيث تعقد كاترين جلستها الروحية التي يحضرها المئات في يوم الأحد من كل أسبوع ، ولهذه الوسيطة مساعدون ومساعدات يندسون وسط هذه الجموع الغفيرة يساعدونهم ويرحبون بهم ،

ويحصلون منهم على بعض المعلومات المفيدة ، وهناك جوقات موسيقية وغنائية مخصصة للإنشاد الديني الذي يهيئ «الجو الروحي» ، ويشع في النفوس نوعا من الراحة والطمأنينة والاستعداد لتقبل الإيحاءات التي ستلقيها عليهم الوسيطة الروحية فيما بعد .

وفي الساعة الواحدة ظهرا تظهر كاترين على خشبة المسرح وهي ترتدي ثوبا أبيض فضفاضا يوحي للناس بأن «ملاكا» يخطر أمامهم ويتهادى ، وهي ـ كما يصفها دكتور نولين ـ ليست جميلة ، لكنها جذابة ، وذات شخصية قوية ومريحة للنظر ، وعندما صمتت فرق الإنشاد الديني تعلقت بها أعين الناس ، فلا تكاد تسمع منهم همسا !

ويصف نولين ما يجري في هذه الجلسات ، فيقول : «إنه من المتعذر علي أن أحاول التعبير بالكلمات عن شخصية هذه المرأة ، إذ لا بد أن تكون أنت هناك لتراها وهي تنتقل وتخطو بسرعة وبراعة على المسرح ، ثم لتتأمل في تعبيرات وجهها ، ولتشهد حركات يديها وذراعيها وهي تسيطر على الجموع المحتشدة ، ولتستمع إلى الانفعالات الصادرة في صوتها وهي تبتهل وتبكي وتصلي ، ولتلحظ الجذل والنشوة اللذين يضيئان قسماتها ، وفوق كل هذا لترى ابتسامتها . . . لا بد أن تكون أنت هناك لتدرك تماما كيف تستولي على مشاعر الناس ، وتأسر اهتمامهم . . . إن كاترين كولمان هي أولا وأخيرا ممثلة بارعة» !

وهي ـ بلا شك أيضا ـ تعرف كيف تجذب مشاعر الناس بكلامها العذب وهي تتحدث عن الرب والروح القدس والمعجزات ، ثم وهي تؤكد أنها لا تشفي أحدا ، وأنها ليست شيئا مذكورا ، وأنها لا تدعي امتلاك قدرات خاصة ، لكن الشفاء راجع إلى الروح القدس ، وأنها ليست إلا وسيلة أو أداة لحلول تلك الروح فيها .

وفجأة تتوقف عن كلامها الذي يأخذ بشغاف القلوب المنتظرة للرجاء ، والطامعة في الشفاء ، ثم تسبل جفنيها على عينيها ، وتمر لحظة صمت درامية ، وكأنما على رؤوس الناس الطير . . . لا همسة . . . لا كلمة !

وفي وسط هذا السكون المخيم على الجميع ، ينطلق صوتها قائلا بنبرة ثقة وتأكيد وعقيدة : «إن الروح القدس قد بدأت في شفاء أحدكم الآن . . . إنها تشفي امرأة . . . امرأة هناك في وسط الساحة ـ امرأة مصابة بداء السرطان . . . سرطان في رئتيها . . . والآن . . . والآن لقد شفيت من سرطانها . . . إنك تعرفين من أنت الآن ولا شك في أنك تشعرين بالروح القدس يتولى أمرك . . . انهضي وتقدمي لتعلني على الملأ أنك قد شفيت» !

وعندما لم تتقدم واحدة في التو واللحظة ، اتجهت كاترين كولمان بسرعة وأشارت إلى إحدى الشرفات المنتشرة حول الساحة ، وقالت في ثقة : «وهناك أيضا يتم شفاء آخر . . . أوه . . . نحمد الله . . . هناك شفاء آخر لالتهاب كيسي في الكتف . . . لقد كان صاحبه يشكو من هذا الالتهاب منذ فترة طويلة ، والآن تلاشى هذا المرض! . . . إنه يستطيع أن يلوح بذراعه . . . قف ولوح بذراعك . . . لقد شفيت تماما» . قالتها بنبرة جنونية مستعرة .

وعندئذ قفز رجل من بين الصفوف ، وراح يلوح بذراعه ، وتطلعت إليه الأبصار ، وكانت هذه هي الشرارة التي أشعلت نار الشفاء من كل الأمراض بين الحاضرين .

وتبدأ كاترين في السيطرة على الجموع المحتشدة بطريق الإيحاء ، فتوجه إلى الرجل الذي قام بتحريك ذراعه تحذيرا تقول فيه : «لا تحضر لكي تعلن عن شفائك إذا لم تكن تحس حقا بهذا الشفاء . . . أما إذا كنت متأكدا من حلوله ، فلتأت إلي ، ولتقدم الحمد للروح القدس» !

ويتقدم الرجل ليعلن أنه شفي ، وأن شيئا قد مس ذراعه وكتفه ، ولابد أنه الروح القدس !

توزيع الشفاء على الناس !

وتقف كاترين كولمان بعد ذلك لتوزيع الشفاء على الناس بثقة واعتداد . . . فتشير إلى هذه الجهة وتقول : «هناك امرأة عندها مرض في الشعب الهوائية . . . لقد ذهب هذا المرض الآن» !

«هناك رجل مصاب بحالة قلبية . . . رجل في ذلك الركن هناك . . . لقد شفي من حالته» !

«يوجد صبي عنده سكر . . . لقد ذهب السكر من جسمه» !

«توجد شابة مصابة بطفح جلدي في الجانب الأيسر من الصالة . . . سيختفي هذا الطفح بعد ثلاثة أيام» !

«ثمة شخص هنا بين الحاضرين يشكو من سرطان في النصف الأسفل من جسمه ، ولقد كان من المقرر إجراء عملية جراحية لاستئصاله ، ولا داعي لهذه العملية الآن ، فلقد ذهب الورم ، وليحمد الروح القدس على ذلك» !

وتستمر كاترين تذكر عشرات الحالات ، وتعلن شفاءها ، وفي الوقت ذاته تقف إحدى مساعدات كاترين بين هذه الجموع لتراقب استجابة الناس لما تقوله الوسيطة ، فتقترب منهم ، وتهمس في آذانهم ، فيقومون ، وإلى خشبة المسرح - حيث تقف كاترين - يتوجهون ، ليعلنوا عن شفائهم من أمراضهم ، وهنا تنتشر عدوى الشفاء ، ويستبد الحماس بكل الحاضرين ، وكأنما هناك قوة هائلة توجههم وتقنعهم وتشدهم إلى كاترين شدا ، وبعد دقائق قليلة تستطيع أن ترى صفوفا بين طرقات المسرح ، وهي تقف أو تتقدم لتعلن شفاءها ، ولتقدم «للروح القدس» شكرها وامتنانها !

لقد سبق أن ذكرنا أن كاترين كانت قد أعلنت وجود حالة لسرطان الرئة عند إحدى السيدات ، وها هي السيدة قد نهضت من بين الصفوف وتقدمت ، وبمعاونة إحدى مساعدات كاترين وصلت إلى

خشبة المسرح ، وبصوت جهوري حنون سألت الوسيطة السيدة : وأنت ماذا عندك؟ !

قالت المرأة : سرطان في الرئة .

فصرخت كاترين : يا إلهي الرحيم . . . إننا نحمدك (قالتها وهي تتطلع إلى السماء) ، ثم طلبت من السيدة أن تأخذ شهيقا عميقا ، ففعلت السيدة ، وعندئذ سألتها إن كانت هذه الشهقة الكبيرة قد أوجعتها ، فنفت السيدة الشعور بأي آلام(*) . وهنا توجهت كاترين إلى الحاضرين وقالت : هل ترونها الآن . . . إن لديها سرطانا في الرئة ، والآن تستطيع أن تتنفس دون ألم . . . إن هذا تأكيد بأن «الروح القدس» تعمل معنا الآن ، وفي هذه اللحظة انهارت المرأة ، وقبل أن تنبطح أرضا ، أمسك بها أحد مساعدي كاترين ، فعلقت هي على ذلك بقولها : «إن ذلك من أثر مس الروح القدس لها»!! (والواقع أنها وقعت من الإعياء) .

وتبلغ التمثيلية منتهاها عندما تشير كاترين كولمان إلى وجود واحدة تحيط ساقها بسنادة تساعدها على الارتكاز ، وتطلب منها أن تنزع هذه السنادة ، فليس بها حاجة إليها الآن ، لأن الشفاء قد حل بها لا محالة ، وعندما تمر لحظات ، ولا أحد يستجيب لندائها ، يظهر التململ على الحاضرين والارتباك في وجه كاترين ، ويمر ما يقرب من دقيقة ، يحسبها الحاضرون ساعة أو يوما ، وفجأة تنطلق فتاة وهي تلوح في الهواء بالسنادة التي نزعتها من ساقها المشلولة ، وكأنما هي الأخرى قد أصابتها «عدوى» الشفاء ، وأرادت أن تعلن عن برئها من شللها أمام الحاضرين ، رغم أنها كانت في حالة يرثى لها ، فما زالت ساقها مشلولة وضامرة ، وعجزها ملتويا بدرجة واضحة ، ومع ذلك فقد تهلل وجه كاترين بشرا وطربا ، وبدأت تسأل الفتاة : ما عمرك؟

(*) الواقع أن هناك خدعة ـ كما يقول د . نولين ـ إذ من الممكن لمرضى سرطان الرئة أن يأخذوا أنفاسا عميقة دون الإحساس بألم ، لكن كاترين أوحت للمرأة ، وللحاضرين من خلال ذلك أن المرأة قد شفيت من سرطانها!

الفتاة : عشرون عاما .

كاترين : ومنذ كم سنة وأنت تضعين هذه السنادة حول ساقك؟

الفتاة : منذ ١٣ عاما . . . بعد أن أصبت بشلل الأطفال وأنا في السابعة .

كاترين : والآن قد تخلصت منه .

الفتاة : نعم . . . فأنا أعتقد اعتقادا راسخا في الله . . . ولقد صليت له ، والآن يشفيني!

وعندئذ استحسنت الجموع هذه المعجزة ، وبكت الفتاة من شدة التأثر واستمرت هذه التمثيلية أكثر من ثلاث ساعات ، وشاهد الناس فيها ما لم يشهدوه من قبل ، ورأوا بأعينهم «معجزات» ما كانوا ليصدقوها لو لم يحضروا إلى هذا المناخ المفعم بالانفعالات والعواطف والابتهالات والاعترافات المنطلقة من أفواه المرضى أنفسهم بإحساسهم بشفاء لا ريب فيه!

لكن . . . هل حل الشفاء بالناس حقا؟

هذا ما يبحث عنه نولين ، وذلك من خلال الاتصال شخصيا بالحالات التي ادعت الشفاء .

أحاسيس كاذبة!

يقول د . نولين : لو أنك حضرت «المناخ» الذي تجري فيه هذه الجلسات الروحية ، فقد لا تستطيع أن تقاوم ما تمليه عليك العاطفة من مشاركة وجدانية فيما يحدث حولك ، وقد تتخلى ـ وقتذاك ـ عن تفكيرك العقلي والعلمي ، وكأنك في عالم آخر!

لقد أخبرني صديقي «جورج دجرتي» - والكلام للدكتور نولين - الذي صحبني إلى هذه الجلسة الغريبة(*) أنه رغم عدم إيمانه بما يجري حوله، وعدم إحساسه بوجود قوة خفية تمس شغاف قلبه، إلا أنه قد وجد دافعا خفيا يدفعه لأن يشارك في هذا المهرجان، وأن يتوجه إلى الآنسة كولمان بمجرد أن أعلنت أن هناك من شفي من أزمته القلبية الآن . . . «ولو لم يتقدم غيري، لكنت قد تقدمت، رغم أن ذلك شيء مضحك لي ولك»!

والغريب أن دكتور نولين يعترف بدوره بأنه قد شعر بالإحساس ذاته عندما ذكرت كاترين أنه يوجد في الصالة من يشكو من التهاب كيسي، وأنه يشفى الآن، «ولقد وجدت عندي دافعا خفيا يدفعني لأن أصدقها، خاصة أن عندي حالة من الالتهاب في كوعي نتيجة لسقطتي على الأرض أثناء أحد التمرينات في كرة التنس، وكانت كلما كررت هي هذه العبارة، أجد نفسي أحرك ذراعي لأعرف إن كان الألم قد ذهب أو لم يذهب» !

فإذا كانت هذه هي حالة اثنين قد جاءا ليدرسا الظاهرة، وليس في نيتهما طلب علاج، أو الدعاء من أجل شفاء، فما بالك بمن جاء معتقدا وساعيا وواثقا في الآنسة كاترين وعلاجها الروحي؟

ومن طبيعة الناس أنها تبالغ في مثل هذه الأمور، وتؤكد صحتها، بل تذهب في وصف معجزات الوسطاء الروحانيين أكثر مما يطمع فيه هؤلاء الوسطاء، ومن أجل هذا أحاطهم الناس بهالة كبيرة من الوقار والثقة والإعزاز، ووصفوهم بما ليس فيهم !

لكن الكلمة الأخيرة في كل ما يشاع ويقال عن هذه المعجزات لا تظهر على حقيقتها إلا إذا درست وعرفت نتائجها، ومن أجل هذا جمع د . نولين ٨٢ اسما وعنوانا للمرضى الذين أعلنوا شفاءهم من أمراضهم أمام كاترين،

(*) وهو من غير المصدقين لهذه الخزعبلات، ولكنه ذهب أولا : على سبيل حب الاستطلاع، وثانيا : لأنه كان قد أصيب مرتين بأزمة قلبية تركتا بصماتهما على قلبه، وهو يود أن يعرف أثر هذه الجلسة على حالته، وثالثا : ليساعد دكتور نولين في الحصول على عناوين بعض الحالات التي تدعي الشفاء .

وأرسل نولين لهؤلاء خطابات يدعوهم لمقابلته في عيادته أو الذهاب إلى دورهم ، واستقبل منهم بالفعل ٢٣ حالة ، وأجرى معهم حوارا ، وعرف أمراضهم ، وتاريخها ، وأثر العلاج الروحي فيها . . . إلى آخر هذه التفاصيل التي توضح للطبيب إن كانت الحالة في تحسن أو تأخر أو ما شابه ذلك .

ولقد اعتبر نولين نفسه حالة ، كما اعتبر جورج صديقه حالة أخرى ، فبعد زيارتهما لكاترين ، أراد نولين أن يعرف أثر هذا العلاج في ضغط دمه (مصاب بارتفاع ليس كبيرا في ضغطه) ، فلم يطرأ عليه أي تغير ، بل العكس هو الصحيح ، إذ وجده ارتفع قليلا عن معدله ، كما أن رسم القلب الكهربائي الذي أجراه على صديقه لم يوضح أي تحسن ، بل ما زالت الحالة على ما هي عليه!

وقد يقول قائل : إن نولين وجورج ما داما لم يعتقدا في جدوى هذا العلاج ، فإنهما لن يستفيدا به على الإطلاق . . . ذلك أن الاعتقاد من الأمور المشجعة على الشفاء .

وهذا ـ في الواقع ـ استنتاج لا غبار عليه ، ولابد ـ والحال كذلك ـ من الرجوع إلى الحالات التي أعلنت إحساسها بالشفاء ، علنا نحصل منها على الخبر اليقين ، وطبيعي أننا لن نتعرض لكل هذه الحالات المدروسة ، لأن المجال لا يسمح بذلك ، بل يكفي ذكر حالات قليلة قدمها لنا نولين بعد دراسة مستفيضة .

حالات أربع أعلنت الشفاء!

كانت الحالة الأولى لفتاة أصيبت بمرض عضال يقف الطب أمامه عاجزا ، ولا يعرف له سببا أو علاجا حتى الآن ، والمرض يسبب تيبسا أو تصلبا مضاعفا في الخلايا العصبية ، مما ينتج عنه ضمور في بعض العضلات ، كما أنه مرض دوري ، بمعنى أنه قد يجيء ويروح ، وهو

أيضا يعتمد على نفسية الإنسان ومعنوياته ، فيزيد بأس المرض أو يضمحل تبعا لذلك .

ولقد جاءت الفتاة - وتدعى مارلين روجرز - إلى جلسة كاترين على كرسي متحرك ، وعندما أعلنت الوسيطة حالتها ، أحست كأنما هناك شعور حارق في سلسلتها الظهرية ، ووجدت نفسها تترك المقعد ، وتسير إلى المسرح حيث كانت تقف كاترين ، وجاء أحدهم وراءها بمقعدها ، ووضعه على المسرح ، وعندما لاحظت الوسيطة المريضة أمامها ، سألتها إن كان ذلك مقعدها ، فردت بالإيجاب ، واستبشرت كاترين خيرا ، وسألت الفتاة إن كانت قد تركت مقعدها وأتت إلى المسرح ساعية على ساقيها اللتين لم تستخدمهما في المشي منذ مدة طويلة ، فردت الفتاة بالإيجاب ، وعندئذ صاحت كاترين : أوه . . . لنشكر جميعا الروح القدس . . . وبدأت تشير إلى الفتاة لتروح وتجيء أمام الجموع المحتشدة على المسرح ، ففعلت الفتاة ، ولكن بصعوبة بالغة ، إذ كانت تترنح وتتمايل وتكاد تقع من الإعياء ، فأمرتها الوسيطة بالتوقف ، وراحت تشرح للحاضرين هذه الحالة النادرة التي استطاعت روح القدس أن تشفيها ، فقالت «إن فتاتنا مارلين لا تستطيع أن تمشي كما ينبغي ، لأنها لم تستخدم عضلات ساقيها لفترة طويلة ، وسوف تأخذ بعض الوقت لتتعود على المشي عليهما ، ولتعود إلى حالتها الطبيعية . . . لكن أليس ذلك رائعا . . . أليس الله مبدعا؟ ! . . .

ووجدت كاترين استحسانا كثيرا ، وتصديقا بمعجزاتها التي لا تجارى !

لكن حالة الفتاة لم تتحسن حتى بعد مرور شهور عدة ، وإن كانت تشعر بأن الله معها ، وأن الشفاء قادم لا محالة ، ومع ذلك فإن حركتها الكسيحة دليل على حالتها التي وصلت إليها .

وتجيء الحالة الثانية لشاب يعد رسالة للحصول على درجة الماجستير في التربية ، ورغم ذلك نراه يتوجه إلى كاترين كولمان ليطلب شفاء روحيا من صداع نصفي مزمن ، وهذا المرض من الأمراض التي لم يهتد الطب

فيها إلى سبب واضح ، ويقال إنه راجع إلى انقباض الأوعية الدموية في المخ ثم انبساطها فجأة ، لكن ما الذي يسبب ذلك ، فلا أحد يعرف يقينا سر ذلك ، وكل ما هو معروف أن التوتر العصبي أو النفسي قد يكون له دخل في هذا المرض الغامض . . . المهم أن الشاب قد أعلن شفاءه من صداعه أمام الجموع المحتشدة ، ولا غبار على اعترافه ، لأن الصداع النصفي قد يروح ويجيء على حسب حالة المريض النفسية ، وليس ببعيد أن يرتاح نفسيا إلى تلك المعالجة ، أو يعتقد في جدوى ذلك النوع من العلاج ، وهذا وحده كفيل بانحسار صداعه ، لكن العبرة بالخواتيم ، إذ إنه لم يمر إلا أسبوع واحد ، حتى عاودته الحالة ، ثم استمرت على نفس النمط الذي كانت عليه قبل أن يطلب هذا العلاج الروحي .

وحالة ثالثة تتمثل في شابة مصابة بالمرض الجلدي المعروف «حب الشباب» ، ولقد تركت الدمامل الصغيرة في وجهها آثارا منفرة ، وعندما أعيتها الحيل ، وطال العلاج ، لجأت إلى كاترين كولمان التي أشارت بدورها إلى الناحية التي تجلس فيها الفتاة ، وقالت : هناك . . . في الركن السادس توجد حالة مصابة بمرض جلدي . . . سوف يذهب هذا المرض بعد أيام ثلاثة . . . وعندئذ نظرت الفتاة حولها لترى إن كان أحد غيرها سوف يعلن عن نفسه ، وعندما لم تجد أحدا ، شعرت بأنها لابد أن تكون هي المقصودة ، وأن الشفاء قادم لا محالة .

وبالفعل تحسنت حالتها بعد أيام ثلاثة ، لكن ذلك لم يكن بسبب معجزات كاترين كولمان ولا بركاتها ، بل يرجع إلى أن الفتاة كانت لديها رغبة شديدة في الشفاء من هذا الوباء الذي حل بوجهها ، كما يرجع إلى استجابتها القوية واعتقادها الراسخ في الوسيطة الروحية ، وهذا ما يعرفه الأطباء النفسانيون تمام المعرفة على أنه نوع من الإيحاء الذي يستخدمونه مع بعض المرضى ، فمنهم من يستجيب له ومنهم من لا يستجيب . . . كل هذا يتوقف على درجة المرض ، وعلى حالة المريض النفسية .

على أنه تبرز هنا نقطتان مهمتان . . . أولاهما أن كاترين كولمان كانت ذكية عندما لم تعلن أن هذا المرض الجلدي سوف يزول ، أو أن الروح القدس سوف تشفيه الآن ، بل أرجأت ذلك إلى عدة أيام ، ولم تطلب من الفتاة أن تحضر إلى المسرح لتعلن عن شفائها كما يحدث مثلا في الحالات الأخرى الكثيرة التي لا يمكن أن يلحظها الناس (كالتهابات المفاصل والسرطان والقلوب المريضة والشلل النفسي وفقد السمع الطارئ عن حالات نفسية . . . الخ) ، والتي تعلن الوسيطة الروحية عن ضرورة حضورها إلى المسرح لتعلن عن شفائها أمام الجميع ، وطبيعي أن أحدا لا يستطيع أن يكتشف إن كان الورم السرطاني قد زال أم بقي على حاله ، أو أن المفصل الملتهب قد زال عنه التهابه ، أو أن آثار الأزمات القلبية قد ذهبت إلى غير رجعة . . . كل هذا وغيره لا يمكن رؤيته كما نرى مثلا آثار الدمامل المنتشرة على الوجه الذي يقف صاحبه أمام الناس غير محجوب وجهه عن عيونهم المتطلعة إلى رؤية المعجزات ، وهذا ما لا تريد الوسيطة الروحية أن يحدث ، لعلمها أن المعجزة ـ على حد ظنها ـ لا يمكن أن تحدث في مثل هذه الحالات المكشوفة . . . هذه واحدة !

والنقطة الثانية أن بعض الأمراض الجلدية قد تكون عضوية (أي أن هناك ميكروبا أو فيروسا أو ضعفا في الأوعية الدموية المنتشرة تحت الجلد تكون السبب في ظهورها) ، وبعضها الآخر قد يكون وظيفيا أو نفسيا أو عصبيا ، أو قد يجتمع السبب العضوي مع النفسي ، والإيحاء أو الاعتقاد قد يخفف بعض الأمراض الجلدية النفسية ، أو قد يشفيها ، فإذا حدث الشفاء ، أو انخفضت حدة المرض ، فإن ذلك لا يدخل ضمن معجزات كاترين الروحية ـ إن كانت لها معجزات على أي حال ، بل هو ضمن ما يعترف به الطب النفسي كوسيلة من وسائل العلاج .

وحالة رابعة لسيدة تبلغ من العمر ٣٦ عاما ، ولها سبعة أطفال ، وجاءت لتطلب معجزات كاترين كولمان لعلاجها من حالة دوالي في ساقيها (ظهور عروق دموية نافرة) . . . بعد أن شاهدت «معجزاتها» الشافية على إحدى

شاشات التليفزيون ، وعندما أشارت الوسيطة إلى الناحية التي تجلس فيها صاحبة الدوالي ، وقالت عبارتها المألوفة عن أن الروح القدس تقوم بعلاجها ، لم تطلب من السيدة أن تتوجه إلى المسرح لتعلن شفاءها ، بل قامت السيدة ـ بدافع من إحدى صديقاتها ـ وتوجهت إلى كاترين لتشكر الرب والروح القدس .

وطبيعي أن السيدة لم تكشف عن ساقيها أمام الجموع الشاخصة بدافع الحياء ، ولا هي كذلك تعرف إن كانت قد شفيت أم لم تشف ، لأنها كانت تلبس جوربا طويلا من ذلك النوع الذي يلتصق على الجسد من الخصر حتى القدمين ، ومع ذلك فقد كانت لديها عقيدة راسخة فيما تقوله كاترين .

ولقد كانت تلك السيدة من الحالات التي اختارها دكتور نولين ليجري عليها تحرياته الطبية ، فاكتشف أن السيدة كانت قد أجرت ـ منذ سنوات ـ عمليات جراحية لإزالة الدوالي ، وأن آثارها ـ أي العملية ـ لا تزال ظاهرة ، ثم ظهر بعض تلك الدوالي أثناء حملها السابع ، وذهبت إلى كاترين كولمان بعد أن وضعت بشهرين ، لاعتقادها بقدرتها على إزالة دواليها بإحدى معجزاتها الشافية .

لكن المعجزة لم تتحقق ، لأن بعض تلك الدوالي لا يزال موجودا . . . صحيح أنها ليست كبيرة ، وصحيح أنها بدأت تضمر بعد الوضع ، لكن ذلك لم يكن بفضل معجزات كاترين كولمان ، لأن ظهور هذه الدوالي يرتبط عادة بالحمل ، والحمل يؤدي إلى ارتفاع نسبة هرمون «الإستروجين» الأنثوي ، وهذا يؤثر في الأوعية الدموية . . . أضف إلى ذلك أن ضغط الجنين على الحوض يضغط على الأوعية المتجهة إلى الفخذين والساقين ، فيؤدي ذلك إلى ضغط يسبب انتفاخ الأوعية السطحية وبروزها ، لكن كل هذا قد يعود إلى سابق وضعه تدريجيا بعد الولادة ، أو قد تكون الأوعية الدموية قد تمددت وانتفخت بشكل حاد ، وعندئذ قد لا تعود إلى سابق وضعها ، مما قد يترك أثرا مزمنا قد تمحوه عمليات جراحية .

أي أن ما حدث للسيدة أمر طبيعي ، ولا دخل فيه لمعجزات أو كرامات .

وحالات أخرى كثيرة ومتنوعة أكدت أنها قد استفادت من معجزات كاترين كولمان ، وكانت خير بوق دعاية لها ولكراماتها ، مما أدى إلى وقوع الآلاف في براثنها ، والتوجه إليها وهم يعتقدون اعتقادا راسخا في جدوى علاجها ، لكن الحقيقة غير ذلك تماما .

ورغم أن حوالي مائة حالة في الجلسة الواحدة كانت تعلن عن شعورها بأن الروح القدس قد جاءت لتقف بجوارها ، وتحس بأن شيئا يسري في كيانها ، أو تقوم بعلاجها (وهو شعور نفسي أو عقيدي) ، إلا أن هناك آلافا قد خاب أملها في كرامات كاترين كولمان ، فكم من أمهات كن يصحبن أطفالهن المصابين بشلل الأطفال قد تركن الجلسة بعد انتهائها وهن يبكين حظهن ، وحظ أولادهن وبناتهن الذين لا يزالون أسرى شلل لا تنفع معه صلوات ولا دعوات ولا كرامات ، وكم من مرضى مصابين بأمراض عضوية مزمنة قد انصرفوا دون إحساس بأن المعجزة قد تحققت ، وكم من حالات تخلف عقلي ، أو شذوذ في تكوينها البدني ، أو أورام ظاهرة وباطنة . . . وكم . . . وكم . . . وكم من هؤلاء قد انصرف صامتا واجما دون أن يعلن عن استيائه!

والغريب أن معظم الذين لم يحصلوا على الشفاء لا يرجعون ذلك إلى عدم جدوى ذلك العلاج أو إلى إخفاق كاترين كولمان في علاجهم ، بل يعيدونه إلى مشيئة الروح القدس ، أو إلى عدم اعتقادهم هم أنفسهم بها ، أو لأنهم ليسوا أهلا لذلك . . . إلى آخر هذه الظنون الخاطئة .

ثم أوليست كاترين كولمان قد أوعزت منذ البداية أنها لا تشفي أحدا ، بل إن الروح القدس هي التي تشفي من تريد ، وتعرض عمن تريد؟ . . . أو بمعنى آخر يكون العيب فيهم ، وليس العيب في هذا النمط من العلاج .

والواقع أن ذلك الدجل العلاجي قد أظهر عدم جدواه في حالات كثيرة ، وعلى رأسها حالات الأزمات القلبية ، أو الأمراض الكلوية ، أو الأورام السرطانية ، أو غير ذلك من أمراض عضوية . . . فالحالات الكثيرة التي أعلن أصحابها أنهم قد أحسوا بالشفاء منها (والتي فحصها دكتور نولين بعد ذلك) قد أوضحت أن الأمر لا يخرج عن كونه شعوذة لا تجوز إلا على أصحاب النوايا الطيبة ، أو العقول الساذجة .

هل ينحسر السرطان بالعلاج الروحي؟!

لكي نعرف الإجابة الحقة عن هذا السؤال ، دعنا نقدم عدة حالات قليلة ، ولنبدأها بريتشارد والين ـ ذلك الشاب الذي يبلغ من العمر ٢١ عاما ، والمصاب بسرطان في كبده ـ فلقد أراد أن يصعد على المسرح ليعلن شفاءه من دائه ، لكن واحدة من مساعدات كاترين لم تشجعه على ذلك ولقد توفي هذا الشاب ـ رغم ذلك ـ بعد ١٢ يوما من حضوره تلك الجلسة العلاجية الخادعة .

وحالة ليونا فلورز التي أعلنت بدورها أنها شفيت من سرطان الرئة ، ثم زارها دكتور نولين بعد ذلك ، ليكتشف أنها ليست مصابة حقا بهذا الداء ، بل بمرض يعرف باسم مرض «هودجكين» ، وهذا المرض قريب الشبه ببعض أنواع السرطان ، ولكنه ليس خطيرا مثلها ، إذ يمكن لكثير من المرضى المصابين بهذا الداء أن يعيشوا به لفترات تتراوح بين ١٠ ـ ٢٠ عاما ، وأنه يمكن علاجه بالإشعاع أو بعض العقاقير ، ولقد كانت هذه السيدة تتعاطى علاجها من هذا الداء بصفة منتظمة تحت إشراف أحد الأطباء ، وعندما عادت إليه بعد أن حضرت الجلسة الروحية ، وأجرى على رئتيها كشفا بالأشعة ، لم يلحظ أي تحسن رغم أنها أخبرته أن كل شيء في رئتيها يسير على ما يرام ، ومع ذلك لا تزال تصر ـ تحت تأثير الإيحاء ـ أن السبب في شفائها يرجع أساسا إلى مس كولمان ، وليس إلى طب الأطباء .

وحالة ثالثة لرجل يبلغ من العمر ٦٣ عاما ويدعى بيتر وارين . . . هذا الرجل كان قد أصيب بسرطان في إحدى كليتيه ، وانتشر هذا الداء إلى عظامه ، فأصبح غير قادر على الحركة بمفرده ، فكان أن حضر الجلسة الروحية ، وصعد إلى المسرح ليعلن عن شفائه من سرطانه ، وبجواره كرسيه الذي يتحرك عليه ، وقام من على كرسيه ليتحرك أمام الناس ، ويؤكد أنه قد برئ من مرضه ، وهلل الناس لهذه المعجزة ، ومع ذلك ـ وبعد ثلاثة أو أربعة أيام ـ عاوده العجز عن الحركة ، ولما ذهب إلى الطبيب المعالج ، وأجرى عليه كشفا بالأشعة ، أخبرته ابنته أن السرطان لا يزال ينتشر في عظامه ، وعندما حقق دكتور نولين هذه الحالة ، تبين أن السرطان لا يزال يغزو جسمه ، وأن وزنه قد بدأ يهبط بشكل واضح ، وأنه يستعين بالحبوب المنومة والمسكنة لإراحته من آلامه ، وهذا يعني ـ على حد قول ابنته ـ أن والدها عاش في وهم خادع ، وأن كاترين كولمان لم تفعل شيئا ذا بال .

وحالة رابعة لجوزيف فيرجل المصاب بسرطان في البروستاتا ، وهو هنا يحكي لنا شعوره فيقول : لقد سمعت عن معجزات كاترين كولمان أمورا تفوق الخيال ، ومن أجل هذا ذهبت إليها ، وعندما رأيت بعيني كل هؤلاء الناس الذي يعلنون عن شفائهم ، شعرت بأن الأمر قد يشتغل معي ويشفيني ، وعندما أشارت كاترين إلى الجهة التي كنت أجلس فيها وقالت : «هناك . . . في هذه الجهة يوجد شخص مصاب بالسرطان ، وعليه ألا يبالي به ، فالروح القدس قد بدأت في مداواته ، وعليه أن يقف ليعلن عن هذه المعجزة» . . . عندئذ أحسست بأنني ربما أكون المقصود بإشارتها ، وقمت لأعلن شفائي .

وعندما ذهبت إلى طبيبي المعالج ـ والكلام لا يزال على لسان فيرجل ـ بعد عدة أيام ، أخبرني بأن الورم لا يزال هناك ، وعلي أن أداوم على العلاج دون خوف من الموت بهذا الداء ، فهو ليس خطيرا بالدرجة التي أخشاها ، وللآن لا أدرى إن كان شفائي سيتم عن طريق معجزات كاترين كولمان أو عن طريق الطبيب المداوي .

والواقع أن جلسة الوسيطة الروحية لم تفعل شيئا أكثر من رفع معنويات فيرجل ، هذا في الوقت الذي انخفضت فيه معنوياته بكلام طبيبه الذي لم يكن موفقا في شرح الحالة ، وكأنما هو ـ أي الطبيب ـ الذي دفع مريضه دون قصد منه لطلب المعجزة ، ولو كان قد أوضح له أن سرطان البروستاتا من السرطانات التي يمكن التحكم فيها بالعلاج عن طريق حبوب «ستلبسترول» التي تحتوي على هرمون أنثوي يؤدي إلى انكماش الورم ، وتهيئ للمريض حياة طيبة لسنوات طويلة قادمة ، لو قال له ذلك وأقنعه بجدوى العلاج ، وشجعه عليه ، لما وقع الرجل فيما وقع فيه .

وحالة خامسة لسيدة تدعى هيلين سوليفان التي أقعدها ورم سرطان تفشى في معدتها إلى كبدها وفقراتها العنقية ، وعندما أعلنت كاترين كولمان أن ثمة شفاء يتم من السرطان في الناحية التي كانت تجلس فيها ، تركت مقعدها المتحرك وتوجهت إلى المسرح ، وكأنما هي تحس بقوة دافعة خفية تدفعها إلى إعلان شفائها .

وعندما زارها دكتور نولين بعد شهرين من حضورها الجلسة الروحية التي أعلنت فيها شفاءها ، وجدها في حالة يرثى لها ، وأخبرته أن الأطباء قد أجروا لها عملية جراحية لاستئصال السرطان من معدتها ومريئها ، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من ذلك ، لانتشار المرض في أماكن أخرى لا يمكن إجراء عمليات استئصال فيها ، ومن أجل هذا لجأت إلى كاترين كولمان بعد أن شاهدت معجزاتها الشافية في برنامج تليفزيوني (لاحظ أن أجهزة الإعلام تخدع الناس هنا بأوهام باطلة) ، علها تحصل بدورها على المعجزة ، وبدأت الوسيطة في حملها على الإتيان بحركات على المسرح لم تستطع أن تفعلها منذ شهور ، فكانت تروح جيئة وذهابا وهي تحرك رقبتها ، وتثني جسدها ، وكأنما كل آلامها قد اختفت ، ولقد تأكدت المريضة وقتذاك ـ بدافع من إيحاء شديد ـ أن الروح القدس قد فعلت المعجزة ، ولهذا رفعت السنادة التي كانت تسند بها فقرات عنقها ، وأخذت تلوح بها في الهواء ، وسط تهليل المشاهدين ودهشتهم .

«وعندما عدت إلى منزلي ، أحسست بآلام رهيبة في صباح اليوم التالي أعجزتني تماما عن الحركة ، فكان أن استدعينا طبيبا ، فنقلني إلى المستشفى لإجراء كشف بالأشعة ، وأظهرت الأشعة أن إحدى فقرات العنق قد انزلقت ـ ربما بسبب حركتي على المسرح ، أو بسبب انتزاعي للسنادة ، وهاأنذا أصلي لله عله يريحني من آلامي» .

وبعد أشهر أربعة ماتت المريضة بسرطانها .

وحالات أخرى كثيرة من الأورام السرطانية يضيق المجال لسردها ، وكلها قد أعلنت أمام الملأ أنها قد شفيت من دائها ، وحمل الناس هذه الأخبار المثيرة ليتحدثوا بها عن معجزات كاترين كولمان التي لا يمكن إنكارها . . . إذ كيف تنكر وقد رأوا بأنفسهم ما لا يمكن تصديقه ، وسمعوا من المرضى أنهم قد شفوا من أمراضهم؟ .

لكن الحقيقة ـ كما رأينا ـ كانت غير ذلك على الإطلاق .

أو هي كما يضعها لنا دكتور نولين ببساطة «عندما فحصت بعناية كل الحالات التي وقعت تحت يدي ، والتي أعلنت بنفسها عن شفائها ، توصلت إلى استنتاج لا مهرب منه ولا مفر : فكل المرضى الذين جاءوا إلى كاترين كولمان بأمراض عضوية وعادوا إلى منازلهم وهم متأكدون من حدوث المعجزة ، لم يبرأوا حقا من أي مرض من أمراضهم ـ لا بواسطة كاترين كولمان ولا بواسطة الروح القدس»!

إن المشكلة الحقيقية ـ والكلام هنا على لسان دكتور نولين ـ تتركز في الجهل . . . «فمس كولمان لا تستطيع أن تفرق بين الأمراض العضوية والأمراض النفسية . كما أنه يبدو أنها لا تعرف شيئا عن التنويم ، أو الإيحاء ، ولا شيئا عن الجهاز العصبي اللا إرادي» . . . فكلها أو بعضها يلعب دورا في الشفاء من بعض الأمراض الوظيفية أو النفسية ، وهذا ما يعرفه الأطباء النفسانيون تمام المعرفة ، ولا يحتاج الأمر بعد ذلك إلى معجزات أو كرامات أو ما شابه ذلك .

نوربوتشن . . . المعالج ذو الأصابع المعجزة !

ومن المعالجين الروحانيين الذين لهم شهرة طبقت الآفاق يبرز رجل مكسيكي الأصل يدعى تشارلز الكسندر ، لكنه غير اسمه إلى نوربوتشن ليصبح الاسم ذا جاذبية وغموض .

ويقطن تشن في قصر تحيط به حديقة تبلغ مساحتها ثمانية أفدنة ، ويقع القصر في هيوستون بالولايات المتحدة ، ويبلغ دخله اليومي أكثر من ألفي دولار ، ويعالج ـ على حد زعمه ـ أربع حالات في اليوم الواحد ، ويتلخص علاجه في قوة غامضة تخرج من يديه لتحل بالمريض ، وتطرد المرض أيا كان نوعه وشدته (وسنتعرض لطبيعة هذه القوة فيما بعد) .

ولقد كان نوربوتشن مغمورا لعدة سنوات ، ثم جاءت شهرته ، وذاع صيته على يدي رجل الفضاء الكابتن إدجار ميتشل الحاصل على درجة دكتور في العلوم ، والذي كان سادس إنسان مشى على سطح القمر ، لكن ميتشيل هجر العلم ، وزج بنفسه في هذا العالم الأسطوري الغامض ، فهو يعتقد اعتقادا راسخا في تلك الأوهام التي يطلقون عليها العلاج الروحي والجراحة الروحية ونقل الأفكار عن بعد من شخص إلى شخص آخر (التخاطر أو التليباثي) وتحريك الأشياء أو إيقاف الآلات المتحركة بمجرد تركيز النظر عليها ، ويؤمن مثلا بقدرة شاب يدعى يوري جيللر (وسوف نتعرض لقدرات جيللر فيما بعد) على الإتيان بالمعجزات ، والذي قال عنه إن جيللر يستطيع تجسيد الأشياء من لا شيء ، وأنه شاب معجزة» . . إلى آخر هذه الأمور التي حققها العلم ، وأثبت زيفها !

وهو أيضا دكتور إدجار ميتشيل ـ رجل الفضاء السابق ـ الذي نصح دكتور نولين الطبيب والجراح بضرورة الاتصال بنوربوتشن للاطلاع على معجزاته الشافية . . . صحيح أن هناك معالجين روحانيين كثيرين ينتشرون في الولايات المتحدة الأمريكية ، لكن تشن قد بزهم جميعا ، وهو لهذا يستحق التأمل والدراسة !

وذهب نولين إلى تشن في بيته المنعزل ، فوجده رجلا في العقد الخامس من عمره ، ومن طريقة كلامه وحواره أحس نولين بأنه شخص بذيء ومتعجرف وشديد الغرور وسريع الغضب عندما يوجه إليه سؤال لا يعجبه ، فكأنما هو يعرف كل شيء وغيره من العلماء والأطباء والمثقفين لا يعرفون شيئا ، رغم أنه يتكلم اللغة الدارجة أو لغة السوقة ، ولهذا بدأ نولين يعامله بمنتهى الحرص والحذر ، حتى يأمن عدم طرده من البيت !

ولقد وجد دكتور نولين في بيت تشن أحد علماء البيولوجيا ـ وهو دكتور هويل كوب ـ من جامعة تكساس مع إحدى مساعداته ، ولقد جاءا ليدرسا قدرة تشن على العلاج الروحي ، مستخدمين في ذلك عددا من الفئران التي كانت تحقن بخلايا سرطانية ، ثم تتعرض لقدرات تشن الغامضة ، علها توقف نشوب السرطان في الفئران . . . هذا وتقوم «المؤسسة العلمية لدراسات العقل» بتمويل هذا البحث والإشراف عليه ، ولقد أصدرت هذه المؤسسة تقريرا في ٢٦ أبريل عام ١٩٧٤ بأن نتائج التجارب التي أجريت على الفئران ليست مقنعة تماما لإظهار قدرات تشن العلاجية .

ومن المناقشات الحذرة التي دارت بين نولين وتشن يتبين أن هذا المعالج الروحي ، قد اكتسب هذه القدرات الخارقة من التبت التي سافر إليها من عدة سنوات حتى أصبح مهيأ للعلاج من خلال «القوى الكامنة في الطريقة» . . . وهي طريقة معلمه وشيخه «اللاما» (وابن الطريقة عندنا تلميذ لأحد أقطاب الصوفية) .

ولقد قضى تشن ثلاث سنوات في التبت حتى أصبح مهيأ لهذه الرسالة ، وليكون من أهل الطريقة ، ولكي يتهيأ فلابد من أن يقضي حوالي سنة في كهف معزول عن العالم ودون أن يلبس شيئا إلا ما يستر عورته فقط ، هذا بالرغم من أن درجة الحرارة في مرتفعات التبت قد تنخفض شتاء إلى ما يقرب من عشرين درجة مئوية تحت الصفر (طبيعي أن الإنسان العريان لا يمكن أن يعيش عند هذه الدرجة) ، كما أنه لم يكلم أحدا ولم ير

أحدا طوال هذه المدة ، وكان يمتنع عن الطعام لمدة ثلاثة أيام ، فإذا جاءه جاء على هيئة وجبة خفيفة ، أما الماء فقد تكفل به ينبوع صغير في الجهة المقابلة من الكهف ، وبعد مروره بهذا الاختبار القاسي ، يخرج من كهفه ، ويكون مهيأ لتلقي أصول الطريقة .

ومن الاختبارات القاسية والمفزعة التي يجب أن يمر بها تلميذ اللاما اختبار «الرولانج» ، وفيه يأتون بجسد إنسان مضى على موته سبعة أيام (ولا ندري إن كان الجسد قد تحلل وتعفن بعد هذه الأيام السبعة أم لا يزال على حاله !) ، وعلى ابن الطريقة أن يرقد على هذه الجثة العارية ويحتضنها ، ثم يضع شفتيه على شفتيها ، وعندئذ تعود الجثة إلى الحياة ، وتبعث بعد موتها (هكذا !)وتقوم منتصبة لترقص وتقفز وتدور ، وعلى تلميذ اللاما ألا يدعها تفلت من بين ذراعيه ، وعليه أيضا أن يحتفظ دواما بشفتيه على شفتيها ، وبعد فترة قد تقصر أو تطول ، تدفع الجثة الحية لسانها داخل فم من يراقصها ، وعندئذ لابد أن يقضم لسانها ، وبعد برهة تسقط الجثة جثة هامدة على الأرض ، ويحتفظ ابن الطريقة بلسانها ، فهو صك مروره إلى عالم المعجزات وشفاء الأمراض ، ولكن عليه أن يتعلم المزيد من معلمه ، ليصبح مهيأ لذلك !

هذا ملخص القصة التي سمعها دكتور نولين من نوربوتشن ، أو دكتور تشن ـ كما يحلو لبعض من حوله أن ينادوه بهذا اللقب ـ ويذهب ذلك الرجل في خزعبلاته وخيالاته إلى أبعد من ذلك ، ويشير إلى صورة قميئة مطرزة على قماش «الكانافا» تشبه مخلوقا بشعا نصفه آدمي ونصفه حيواني ، ويذكر أنه باستطاعته أن يركز بصره على تلك الصورة المعلقة ، وعندئذ يبرز منها هذا المخلوق ويتحول من صورته الجامدة إلى كائن حقيقي يتحرك أمامهم في الحجرة ، وعندما رأى تشن الدهشة وعدم التصديق على وجه نولين ، قال : إنني متأكد من أنني أستطيع أن أفعل ذلك ، ولكنني لن أفعل ، ولن أطلعك كذلك على الألسنة التي قطعتها من الجثث التي كنت أراقصها .

لقد قدمنا مقتطفات مقتضبة من هذا الهراء الذي لا يستقيم مع أبسط مبادئ العقل أو المنطق، لتحكم عليه بنفسك فكأنما هذا الرجل الشاذ يريد أن يوهم الناس أنه يستطيع أن يعطل الشرائع الطبيعية، ويتحكم في القوانين الكونية، ويأتي بما لم يأت به الأنبياء والرسل!

وهو بهذه الصفات الممقوتة لا يستحق دراسة، ولا يمكن لصاحب كل ذي عقل رزين أن يستمع إليه، أو يأخذ كلامه على محمل الجد، ومع ذلك ترى واحدا مثل رجل فضاء صعد إلى القمر يعتقد فيه وفي معجزاته ويصبح أعظم الأبواق دعاية له ولمنجزاته.

ومع ذلك، فقد صبر عليه دكتور نولين على مضض، فهو يريد أن يصل معه حتى النهاية، فكل همه أن يرى بعينيه كيف يمارس مقدرته الخفية في شفاء الناس من معظم الأمراض، فهو الذي يزعم - على سبيل المثال - أن نتيجة الشفاء في مرضاه أعلى بكثير من النتائج التي يحققها أبرع الأطباء، فهو يدعي أن نتائج الشفاء من أمراض الكلى تصل إلى ٩٥٪ من كل الحالات التي يعالجها، و ٩٠٪ مع مرضى القلب، وفي تيبس المخ أو تصلبه فإن أكثر من ثلث مرضاه يشفون من هذا الداء الذي حار فيه كل الأطباء، وفي حالات السرطان المبكرة فإن نتيجة الشفاء تصل إلى ٨٧٪.

لكن دكتور نولين كان على ثقة في أن تشن كان يعطي هذه الأرقام جزافا، ولقد تأكد من ذلك بعد أن اختلس نظرة سريعة إلى المفكرة التي كان تشن يحتفظ فيها بأسماء مرضاه وبعض عناوينهم، دون أن يكلف نفسه بتوضيح مرض كل مريض، حتى يستطيع أن يقدر نسبة الشفاء من كل مرض.

طريقة العلاج عند تشن

قدمنا ما قدمناه عن شخصية هذا المعالج الروحي ليكون كل شيء واضحا منذ البداية... لكن طريقته في العلاج أغرب من ذلك وأكثر

سخرية . . . فالحجرة التي يقوم فيها بعلاج مرضاه تضيئها بعض شموع خافتة ، وبحيث تبدو أقرب إلى الظلام منها إلى النور ، وفي الحجرة تنطلق روائح نفاذة من البخور ، وعلى جدران الحجرة تتعلق ستائر منقوشة بلون أحمر داكن ، وفي أحد أركانها قطعة من الأثاث تشبه مذبح الكنيسة ، وفوقها تمثال لبوذا ، وفي وسطها توجد منضدة ينام عليها واحد من مرضاه ، وعندما يبدأ العلاج ، يتوجه إلى المذبح ، ويقف أمامه ، ثم يمد ذراعه ، ويبدأ في العواء كالذئب ، ويستمر على هذا الحال حوالي دقيقة ، وبعدها يلتقط جرسين موضوعين أمامه على المذبح ، ويلوح بهما فوق رأسه في حركات تبادلية ، ثم يبدأ في عواء أكثر شدة ، وبعد حوالي خمس دقائق ، يعود إلى المريض الممدد ، ويمد أصبعه أو يده أو كلتا يديه إلى الجزء المريض من جسمه ، ثم يعود إلى المذبح ، ويرنو إليه ببصره بضع ثوان ، ثم يعود إلى المريض ، ويشير إليه بيديه . . . وينتهي كل شيء فجأة ، ويأمر المريض بأن يغادر المنضدة ، فهذا هو علاجه المرتقب ، وينطلق تشن ـ بعد ذلك ـ إلى حجرة مجاورة ليغير رداءه الكهنوتي ذا اللون البني الغامق ، ويخلع قلادة معلقة في رقبته ، ثم يعود وقد ارتدى ملابسه التقليدية .

ويفسر تشن هذا السلوك الغريب بتفسير أغرب ، فهو يزعم أنه يركز كل طاقته الروحية أمام المذبح ، ثم يعود بها ، لتنطلق من خلال أصابع يديه لتضرب المرض في بقعة محددة ، وبهذا يحل الشفاء . . . وعندما استفسر منه دكتور نولين عن طبيعة هذه الطاقة التي تترك جسده في دفقة قوية واحدة ، أجاب تشن بلهجة لاذعة بأن ذلك لا يعنيه ، إنما تعنيه فقط النتائج ، ثم إن هذا الأمر سر من أسرار الطريقة التي تعلم أصولها في التبت . . . وأنت تستطيع أن تشتم من هذه الإجابة كيف يراوغ تشن ويداور ، فعندما يوجه إليه سؤال في الصميم ، فإنه يتهرب من الإجابة بوسائل شتى .

وفي الأيام الأربعة التي قضاها دكتور نولين ضيفا في منزل تشن ، ليدرس ـ عن قرب ـ وسائله في العلاج ، لم يمكنه تشن من ذلك ، واعتذر قائلا : «إنني غير مستعد لعلاج أي إنسان هذا الأسبوع . . . أضف إلى ذلك

أنني أبغض كل من جاء ليراقبني أثناء علاج مرضاي . . . فهل أنت تحب الناس وقد جاءوا ليراقبوك أثناء إجراء العمليات الجراحية»؟

إن المرة الوحيدة التي رأى فيها نولين هذا المشعوذ وهو يقوم بطقوس العلاج الروحي ، كانت على الفئران ، والتي سبق أن ألمحنا إليها . . . وهي لا تختلف عن الطقوس التي يجريها على المرضى . . . أي أنه يلبس رداء كهنوتيا ، ويتوجه إلى المذبح ، ويعوي كالذئب ، ثم يعود إلى المريض ليفرغ فيه طاقته الروحية الشافية من خلال أصابعه ، فتطرد المرض بعد فترة قد تطول أو تقصر .

ومع ذلك ، فقد سمح تشن للدكتور نولين بأن يحمل معه بعض عناوين المرضى الذين تم شفاؤهم على يديه ، وهنا يبدأ دور التحريات الطبية .

طبيب مريض يلجأ إلى تشن لعلاجه !

لقد تحرى دكتور نولين حالات ستة مرضى من الذين زعم تشن أنهم قد شفوا على يديه ، ومن هذه الحالات ـ للأسف ـ حالة طبيب حاصل على الدكتوراه في الطب ، ومع ذلك فقد ذهب إلى تشن يطلب العلاج عنده ، ولقد اتخذ تشن هذه الحالة بالذات ليفاخر بها في حين ، ويسخر من الطب والأطباء في حين آخر ، ويدعي أنه يحقق ما لا يستطيع أن يحققه الأوائل والأواخر !

وطبيعي أن حالة هذا الطبيب المريض ـ ولنسمه مجازا دكتور جون سميث ، البالغ من العمر ٥٢ عاما ـ قد جذبت فضول دكتور نولين ، فكان أن ذهب إليه ليعرف منه حقيقة مرضه ، وماذا أفاد حقا من علاج تشن .

ومشكلة جون سميث تكمن في كليتيه ، فهما من ذلك النوع الذي يداوم على تكوين الحصوات ، إذ كلما أزيلت بعمليات جراحية ، عاودت تكوينها من جديد ، حتى لقد بلغ عدد العمليات التي أجراها في كليته

اليسرى ثلاثا ، وفي كليته اليمنى اثنتين ، وبدأت كليتاه ـ بعد عشر سنوات ـ تخفق في ترشيح البول ، مما أدى إلى ارتفاع نسبة البولينا في دمه ، ومن أجل هذا استعان على بلائه بكلية صناعية ، لكن حالته بدأت تتدهور ، ثم ظهر على وجهه ورقبته وذراعيه مرض جلدي غريب ، وأخذ هذا المرض ينتشر بشكل منفر ، رغم لجوئه إلى أطباء الأمراض الجلدية ، لكن علاجهم لم يضع حدا لمعاناته ، فكان أن وقع فريسة للأوهام والآمال الخادعة .

وذات يوم زاره صديق جراح من ذلك النوع الذي يعتقد في الأرواح والتخاطر والقوى الخفية التي تتحكم في هذا العالم ، وهو ـ في الوقت نفسه ـ قد سمع عن نوربوتشن الشيء الكثير ، وأسر إليه أمرا : لماذا لا يذهب إلى تشن ليرى حالته ، خاصة أنه لن يخسر شيئا؟! . . . (الواقع أنه سيخسر خمسمائة دولار يدفعها لتشن ، زيادة على تكاليف السفر ، وزيادة على سمعته كطبيب يحمل درجة الدكتوراه ، ثم إذ به يكفر بالعلم والطب ، ويؤمن بالخرافات) .

واختمرت الفكرة في ذهنه ، خاصة أنه لا أمل في شفائه ، والغريق يتشبث ولو بقشة ، ولتكن هذه القشة هي تشن نفسه . . . وباختصار ذهب إليه عدة مرات ، وبالفعل أحس بأن مرضه الجلدي قد بدأ ينحسر شيئا فشيئا ، لكنه لم يبرأ منه تماما ، أما عن كليتيه ، فلم يطرأ عليهما أي تحسن ، بل زادت حالتهما سوءا ، رغم أن تشن قد أكد أن دكتور سميث كان من ضمن الحالات التي استجابت لعلاجه ، وعلى دكتور نولين أن يتحقق من ذلك بنفسه ، وعندما تحقق بنفسه ، تبين له كذب دعواه .

لكن . . . ماذا عن المرض الجلدي الذي حار فيه الأطباء؟ . . . ألم تتحسن الحالة حقا بقدرات تشن الخفية؟

إن بعض الأمراض الجلدية ـ كما يقول نولين ، وكما قال قبل ذلك ـ قد تخضع أحيانا للحالات النفسية ، وقد تستجيب للإيحاء أو التنويم ، وأغلب الظن أن حالته كانت من تلك الحالات ، وطبيعي أن تشن لم يصنع

معجزة ، بل هيأ مريضه نفسيا بأن كل شيء سوف يكون على ما يرام ، ومن خلال هذا الأمل الأول والأخير في حياته ، بدأ يعتقد في الشفاء ، فكان أن تحسنت حالة مرضه الجلدي ، وساءت حالة كليتيه . . . هذا بالرغم من أن تشن كان قد أخبر دكتور نولين أنه استطاع أن يعالج كليتي الرجل ، ولم يذكر له شيئا عن مرضه الجلدي .

شفاء سرطان الجلد . . . بواسطة تشن أم بالطب؟

وذهب نولين في بحثه عن الحقيقة إلى رجل يبلغ من العمر ٦٨ عاما ، وكان هذا الرجل قد أجرى عملية جراحية لاستئصال أحد سرطانات الجلد ، إلا أن الجراح كان قد ترك آثارا طفيفة لم يلحظها ، وبالتالي لم يستأصلها ، إلا أن الطبيب المعالج أشار على الرجل أنه لا خوف من ذلك ، ما دامت هذه الآثار يمكن علاجها بالإشعاع ، وبالفعل وافق الرجل على ذلك ، وبدأ في علاج استمر أسبوعين ، وتلقى فيها عشر جلسات من الأشعة السينية على رقبته حيث توجد بقايا جذور المرض ، إلا أن جلده قد التهب من آثار الإشعاع ، وسبب له مضايقات نغصت عليه حياته ، وعندما خاف على نفسه من المضاعفات ، لجأ إلى نوربوتشن الذي عالجه في أربع جلسات استمرت لمدة أسبوعين ، وعند انتهاء هذه الفترة ، بدأت آثار الالتهاب والاحمرار تزول تدريجيا ، ومن أجل هذا يعتبر تشن سيد المعالجين !

وطبيعي أن عواء تشن أو قوته الخفية لم تكن وراء شفاء الرجل من سرطانه ، ثم إن ظنه بأن الشفاء يرجع إلى تشن إنما هو جهل بالأسباب ، فالذي شفاه حقا هي جلسات الأشعة التي كان يداوم عليها ، ولو لم يذهب إلى تشن ، لاختفت هذه الالتهابات تلقائيا ، وهذا ما يعرفه الأطباء حق المعرفة ، إذ إن الشفاء من سرطان الجلد مضمون بنسبة تقرب من مائة في المائة ، ولكن على شرط أن يكون هذا النوع من السرطان ناشئا من خلايا خاصة تعرف باسم الخلايا الحرشفية

والقاعدية ، ولقد اتضح بالفعل أن سرطان هذا الرجل ناشئ من النوع الثاني من الخلايا وهذا مضمون العلاج .

والواقع أن احمرار الجلد وحساسيته للأشعة شيء طبيعي للغاية ، لكن بعض الناس يتأثرون بالإشعاع أكثر من غيرهم ، ويظهر عليهم هذا الأثر واضحا ، مثلهم في ذلك كمثل المستحمين على شواطئ البحار ، فمنهم من يلتهب جلده بفعل الأشعة فوق البنفسجية ، وبحيث يؤدي ذلك إلى احمرار وتسلخات وآلام ، ومنهم من لا تظهر عليه هذه التفاعلات بشكل واضح .

ولقد ذهب الرجل إلى تشن بعد أن انتهى من علاجه بالأشعة وأصبح جلده في قمة احمراره ، لكن الخطأ هنا ـ على حسب قول دكتور نولين ـ هو خطأ الأطباء المعالجين ، إذ كان من المفروض أن يرشدوا مرضاهم إلى مثل هذه الآثار الجانبية ، وأن يطمئنوهم إلى زوالها بالتدريج بعد انقضاء فترة العلاج .

إذن . . . فالطب هنا هو الذي شفى السرطان ، وذهب الفضل إلى تشن ، لكن المعجزة الحقيقية تكمن في خلقنا ، إذ إن أجسامنا قد جاءت لتصلح ما تهدم ، وترمم ما تدمر ، ولقد رممت وأصلحت ما أفسدته الأشعة في الخلايا الحية ، وهي تضحية واجبة ، لتنقذ ما يمكن إنقاذه من تدمير هذا الداء اللعين .

وادعاء بشفاء تليف في الكبد !

ظلت السيدة ـ ولنسمها اسما مستعارا لويز رولينز ـ البالغة من العمر ٥٩ عاما تشرب الخمور بشراهة لمدة خمسة وثلاثين عاما متواصلة ، وكان من نتيجة ذلك أن أصيبت بتليف في الكبد ، وظهرت آثار المرض واضحة على هيئة انتفاخ في بطنها وقدميها ويرقان عام . . . الخ .

وفي عام ١٩٧٢ ذهبت إلى تشن ، حيث قضت يوما كاملا في راحة تامة ، دون أن تتحدث إلى أحد أو يحدثها أحد ، وفي هذه الأثناء كانت تعيش على عصير الليمون «الجريب فروت» . . . والواقع أن جميع المرضى الذين يذهبون إلى تشن يمرون بهذا الروتين قبل بدء العلاج بدفقة الطاقة العلاجية .

وبعد العلاج التقليدي ، أمرها تشن أن تذهب إلى بيتها ، وأن تلزم سريرها لمدة أربعة أيام ، وألا تتعاطى أي قدر من الخمور ، وفي هذه المرة نفذت أوامر تشن بدقة تامة ، فكان أن فقدت بعض السوائل الزائدة التي كان جسمها يحتفظ بها نتيجة لهذا المرض ، وتحسنت حالتها بعض الشيء ، وبعد أسابيع ثلاثة عادت إلى الخمر ، فعاودها المرض ، فكان أن ذهبت إلى تشن مرة أخرى ، وأمرها أن تستريح في السرير لمدة عشرة أيام ، وأن تقلع عن الخمر ، ثم ذهبت إليه خمس مرات أخرى على مدار السنة ، وفي كل مرة اتبعت فيها تعليماته ، كانت صحتها تتحسن ما دامت هجرت الشراب ، فإذا عادت ، عاد المرض ، ولقد علقت على ذلك بقولها «يقينا إن الخطأ ليس خطأ تشن ، لكنه خطئي وحدي» !

لكن . . . هل كانت هذه القوة الخفية الدافقة التي ضرب بها تشن الكبد المتليف للمريضة هي السبب في تحسن حالتها ؟

ليس ذلك تماما . . . فأي طبيب معالج ينصح المرضى من هذا النوع بضرورة الإقلاع عن الشراب ، ولزوم الراحة ، إذ ليس هناك علاج حقيقي لمثل هذه الحالات ، وليست هناك معجزات يمكن أن تتدخل في عمل الكبد لتصلح شأنه ، إنما المعجزة الحقيقية تنبع من داخل الكبد ذاته ، إذ هو يتولى أمره بنفسه ، ويصلح ما أفسده المرء بسوء تصرفه ، ولكي يفعل ، فلابد أن نعينه على بلواه من تلك السموم ، فالإقلاع عنها ، يهيىء له من أمره رشدا .

الشيء الوحيد الذي يختلف فيه الأطباء عن تشن ، أنهم لا يقومون بهذه الطقوس ، أو يعوون عواء الذئب ، ثم ينفثون طاقتهم الخفية في المريض

لينصلح حاله ، ومع ذلك فقد تنفع هذه الخزعبلات في إقناع السذج أو ذوي العقول الضعيفة بالتزام الأوامر الملقاة عليهم ، ولهذا قد تراهم يقتنعون بها أكثر مما يقتنعون بأوامر أطبائهم !

إن السيدة لويز رولينز ما زالت مقتنعة بأن تشن قد حقق لها ما عجز الطب عن تحقيقه ، ولا شك لديها في معجزاته ، وهي لا تعلم أن المعجزة في خلق نفسها وفي خلق ما بداخلها ، لكنها تفسد ما جاء خلقا سويا متوازنا بديعا من لدن حكيم خبير .

أي أننا لو تقصينا الأسباب ، لظهر لنا أن كل شيء يسري بحساب ومقدار ، ولا دخل فيه لمعجزات طب أو مشعوذين ، بل سارت الأمور على أساس متين ، وبقدر مبين .

هل تلاعبت قوى تشن في الأجهزة الإليكترونية؟!

وهذه أم تحكي لدكتور نولين مأساة ابنها التي ألجأتها ـ رغما عنها ـ إلى آخر أمل يمكن أن تتشبث به ، فقد أصيب ابنها البالغ من العمر ١٥ عاما بورم في مخه أدى إلى غيبوبة طويلة ، ولقد ساعده على الحياة أجهزة تنفس صناعي ، ومنشطات لقلبه وما شابه ذلك ، وأخبر الأطباء الأم الثكلى بأنهم لا يملكون لولدها شيئا ، وصدمت الأم صدمة شديدة ، وسمعت عن معجزات تشن الذي أبدى استعداده للحضور إلى المستشفى بالطائرة لعلاجه (طبعا على نفقة عائلة الصبي) .

«وعندما حضر أخبرناه بأن الطب لا يستطيع أن يفعل شيئا ، وأنه ترك الأمر لنا لنفعل ما نشاء نحو ولدنا الذي يموت بالتدريج ، ووافق الأطباء على حضورك هنا ، لعلك تفعل شيئا من أجلنا ومن أجل ابننا» .

وعندئذ علق تشن على ما سمع بقوله «لا تلقوا بالا لما يقول الأطباء ، فهم لا يدركون ما يفعلون ، وسأفعل ما في وسعي ، إلا أنني لا أستطيع أن أعدكم بشيء» .

«وعندئذ دخل تشن إلى حجرة الصبي ، وبدأ يستجمع قواه ليضرب ضربته الشافية ، وفي هذه الأثناء بدأت أجهزة رسام القلب الكهربي ، وأجهزة تسجيل حالات التنفس والنبض وغير ذلك من أجهزة إليكترونية ، بدأت في إصدار إشارات مضطربة لفترة لم تتجاوز دقيقة واحدة ، ولاحظنا على تشن أنه بدأ يضطرب عندما رأى هذه الظاهرة ، وكأنما هو يستغرب ويتعجب لقواه التي ظنها قد تلاعبت بتلك الأجهزة ، وبدأ بالفعل يتطلع إليها وكأنما هو يدرسها ويفحصها ، وينظر إلينا نظرات تنبئ بأن قواه الخفية قد تداخلت في الأجهزة وعطلتها إلى حين ، لكننا من خبراتنا السابقة مع تلك الأجهزة لم نجد شيئا غير عادي ، فطال ما رأيناها تفعل الشيء نفسه عشرات المرات على مدى أسبوعين ، فالاضطراب الذي رآه تشن وأراد أن يعيده إلى قواه الخفية قد تحدثه عاصفة رعدية ، أو كهرباء إستاتيكية» !

وتستطرد السيدة في حديثها مع دكتور نولين قائلة «الواقع أن تشن لما رأى ما رأى ، استبشر خيرا ، وأخبرنا أنه قد ضرب بقواه الخفية ضربة طيبة وشافية ، وهذا ما جدد لدينا الأمل ليوم أو يومين ، لكن الأمور بقيت على ما هي عليه ، بل إنها زادت سوءا في الأيام التالية ، وتوفي ابننا بعد أيام خمسة» !

***

وحالات أخرى كثيرة معظمها من ذلك النوع من الأمراض الذي يروح ويجيء ، فإذا اختفى كان الفضل فيه لتشن ، وإذا عاد ، فلا لوم عليه ، إنما اللوم يقع على المريض ذاته . . . وطبيعي أن هذا المريض قد لا يعرف (أو ربما يعرف) أن أجسام الكائنات الحية قد امتلكت ميكانيكية بيولوجية فذة ، وأنها ـ من خلال هذه الميكانيكية ـ تحاول دائما أن تصلح شأنها . . . فالمعارك التي تخوضها الأجسام ليل نهار مع جيوش الميكروبات ، وما ملكته من أجهزة مناعة أو دفاع عظيمة ، إنما تمثل لنا جزءا من هذه الميكانيكية البديعة ، كما أن الجروح والكسور يتولى الجسم ترميمها دون

تدخل منا في شأنها ، وكل ما نفعله هنا أن نحمي الجرح من مزيد من التلوث ، أو نقوِّم العظام التي حادت عن سبيلها . . . الخ .

ومن الحالات التي ادعى تشن شفاءها نذكر اختلال الدورة الشهرية عند النساء ، والصداع النصفي ، والكدمات والالتهابات . . . وكلها تنضوي تحت لواء الأمراض الوظيفية ـ لا العضوية ، وهذا يعني أنها تتأثر بحالاتنا النفسية أو العاطفية أو المزاجية ، فتروح وتجيء على حسب ما يتعرض له الإنسان في حياته . . . وطبيعي أن معظم الناس ما داموا يعتقدون في جدوى العلاج ، حتى لو كان ذلك على أيدي مخادعين مثل تشن أو كاترين أو غيرهما ، فإن ذلك من الأسباب النفسية المساعدة على الشفاء . . . على الأقل بالإيحاء . والإيحاء والتنويم من الأمور المعترف بها طبيا كوسيلة من وسائل علاج بعض الأمراض الوظيفية ـ لا العضوية .

على أن الخداع قد يذهب بنا إلى نهايته ، عندما يدعي الناس أو يؤكدون وجود عمليات جراحية يطلقون عليها اسم الجراحات الروحية . . . فما هي قصتها هي الأخرى ؟



الفصل الثاني

خدعة اسمها الجراحة الروحية

يتحدث الناس - في الشرق والغرب - بشيء من الإثارة والدهشة والإسهاب عن «فن» حديث نسبيا اسمه الجراحة الروحية ، ويطنبون في معجزاتها الشافية التي تحقق ما لا يستطيع الجراحون التقليديون تحقيقه ، ولهذه المهنة الغريبة ممارسون قليلون في الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي بعض دول أمريكا اللاتينية وأوروبا الغربية ، لكن هؤلاء الجراحين الروحانيين قد تلقوا أصولها في الفيليبين ، فهي الموطن الأصلي الذي نشأت فيه المهنة وترعرعت ، ولهذا نجد فيها المئات ممن يجرون هذه الجراحات ، ومن بين هؤلاء يبرز عدد من مشاهير الجراحين يعدون على أصابع اليد الواحدة ، أو ربما أصابع اليدين .

ولقد اهتمت أجهزة الإعلام في الدول المتقدمة بهذه الظاهرة ، وخصصت لها ساعات في البرامج الإذاعية والتليفزيونية ، وتناولتها الصحافة بشيء من الإثارة ، هذا بالإضافة إلى العديد من الكتب التي ظهرت في هذا المجال ، وعن هذه الكتب ترجم بعض الكتاب العرب أهم ما فيها ، ونشروه في صحفهم ومجلاتهم ، أو قدموه في برامج إذاعية ، مؤكدين معجزات هذا النوع من الجراحة ، ولا أنسى حديث أحد رؤساء تحرير مجلة أسبوعية مصرية واسعة الانتشار ، وهو يؤكد لي أنه شاهد أحد الجراحين الروحانيين وهو يجري عملياته بدقة وبراعة ، وكان الشفاء مضمونا في كل الحالات ، وتحت كل الظروف ، وأن الأمر ليس فيه خدعة ، ولا ينطوي على دجل !

والواقع أن هؤلاء الجراحين لا يستخدمون في جراحاتهم أدوات الجراحة التقليدية ، بل تتم الجراحة بمجرد إشارة من أصابعهم ، ففي الأصابع تكمن قوة خفية ـ على حد زعمهم ـ وهذه القوة ليست نابعة منهم ، بل مصدرها قديس أو ملاك أو روح طيبة ترشدهم إلى مواطن المرض ، وتحدد لهم نوع العملية ، وتنساب قوتها من بين أصابعهم ، حيث تشق البطون ، وتستأصل الأورام ، وتستخرج الحصوات ، وتشفي العيون ، وتزيل القرح ، ثم تعيد كل شيء إلي أصوله ، فيقوم المريض سليما معافى بفضل هذه الطاقات الخفية التي حلت فيهم من مصادر سماوية !

ومن أجل هذا يتميز الجراح الروحي بالطيبة ، وتظهر عليه علامات الزهد والتقوى ، ويبدو أمامك وكأنما هو مبعوث العناية الإلهية ، لكي يخلص الناس من آلامهم ، ويزيل أوجاعهم ، وهو لا يتقاضى أجرا محددا كما يفعل الطبيب أو الجراح ، بل يترك ذلك لكرم المريض وجوده ، مدعيا أن ما يحصل عليه من مساعدات إنما يقيم به أود كنيسته الروحية ، ويساعد به من يقومون على خدمتها . . . وجدير بالذكر هنا أن هؤلاء الجراحين قد اشتقوا لأنفسهم مذهبا عقائديا جديدا ليتناسب مع «مؤهلاتهم» الروحية ، فأقام المشهورون منهم مباني صغيرة تشبه المعبد أو الكنيسة ، وأسموها الكنيسة الروحية ، وما يجود به المرضى من مال ، إنما يذهب إلى تلك الكنيسة ، ومن هذه الحيلة يحصل الجراح الروحي على أموال لا يحلم بها أعظم مشاهير الجراحين في العالم .

ولبعض الجراحين الروحيين فلسفة خاصة ، إذ يدعون أن فلسفتهم مشتقة من الإنجيل ، فلقد جاء السيد المسيح إلى الأرض ، ليشفي الناس بقوته الروحية ، ويهديهم سواء السبيل ، ثم صعد إلى السماء ، لكنه سيعود ثانية إلى الأرض ، «وقبل أن يعود أعطانا شيئا من روحه الشافية ، ليمهد لنزوله ، ونكون نحن برهانا حيا على هذا النزول ، فنشفي الناس من خلاله ، ولقد اختارنا نحن لذلك لأننا فقراء ، وهو سينزل إلى أرض

الفقراء» . . . إلى آخر هذه الأمور التي يتخذونها منفذا سهلا إلى قلوب الناس وعقولهم ، وهم ـ بلا شك ـ يضللون باسم الدين !

والآن قد يطرأ على الأذهان سؤال مهم : ما هي إذن طبيعة هذه الجراحات الروحية؟

إن الفضل في الإجابة عن هذا السؤال يرجع إلى «تحريات» دكتور ويليام نولين لكشف الحقيقة ، خاصة أنه جراح مارس هذا الفن سنوات طويلة ، ويعرف سر المهنة ، وما يشوبها من حيل وخداع ، أو قد تكون حقيقة يعجز الطب عن تعليلها ـ كما جاء على لسان كل من كتبوا في هذا المجال . . . دعنا ـ إذن ـ نرى .

ديفيد ـ أول جراح روحي في القائمة

من بين عشرة جراحين روحيين في الفيليبين يبرز اسم ديفيد أو «داود» الذي مارس المهنة أكثر من ١٧ عاما ، وورث أصولها عن والده عندما بلغ من العمر ٢٤ عاما ، ويزعم داود أن قوته تأتيه من الله رأسا ، ومع ذلك فله أيضا حام يحميه ويرعاه ، وأن هذا الحامي أو القديس هو الذي يرشد يديه ويوجههما كلما أجرى عملية جراحية ، ويزعم داود كذلك أنه يقوم أحيانا بعمله وهو في غشية أو غيبوبة ، ورغم ذلك تدله يداه على الجزء المريض ، مدعيا أن أصابعه تحس بالفرق الطفيف في درجة الحرارة بين الجزء المصاب ، وبين باقي أعضاء الجسم ، ومن هنا يعرف موضع الداء ، ويستأصل المرض من جذوره !

ويقوم داود في الأيام العادية بإجراء عدد من العمليات الجراحية الروحية يتراوح ما بين ١٧و ١٨ عملية يوميا ، لكن العدد قد يقفز في أيام الآحاد إلى ٥٠ أو ربما ١٠٠ عملية ، ويدعي داود أن قواه الخفية تزدهر إلى حدود فائقة ، فيتم عملياته في أوقات قياسية ، وأحيانا قد تخبو قليلا ،

ولهذا يخشى اليوم الذي قد يتخلى فيه عنه حاميه أو وليه ومرشده ، فلا يستطيع ممارسة هذه المهنة أبدا !

وفي مسرح الجراحات الروحية التي تتم في ركن من معبده على منضدة عادية ، يبدأ عمله بالصلاة والدعاء والابتهال ، وكأنما هو بهذا يستلهم الله - أو الراعي الذي يرعاه - في الوقوف إلى جانبه ، ومنحه القدرة على شفاء الناس ، وفي هذا السلوك طمأنينة لنفسية المريض ، وتوطيد العلاقة بينه وبين جراحه ، ونوع من الإيحاء بحتمية الشفاء التي يباركها الله بالدعاء !

وعندما وصل دكتور نولين ليتحرى أمر داود بناء على موعد سابق ، اعتذر عن عدم إجراء عملياته في معبده ، لكنه سوف يجري بعضها في قرية مجاورة بناء على دعوة تلقاها من مريضين هناك ، ولا يستطيعان الحضور إلى عيادته ، وركب الجميع سيارة ، وذهبوا إلى منزل متواضع ، وكان المريض رجلا في العقد السادس من عمره ، ويشكو من تورم في ساقيه ، بداية من الركبتين حتى القدمين ، وعندما فحصه داود ، ادعى أن مرضه راجع إلى جلطات دموية في عروقه ، ولابد - والحال كذلك - من إجراء عملية جراحية روحية ، لكنه أشار إلى دكتور نولين إن كان يود فحص هذه الحالة ، ليعرف رأيه فيها .

وبخبرة الطبيب الجراح ، فحص قلبه وكبده ورئتيه ، فلم يجد علاقة بينها وبين تورم الساقين ، وربما كان داود على حق في تشخيصه ، إذ إن هذه الظاهرة المرضية قد تنشأ أحيانا من عدم مرور الدم خلال الأوعية بكفاءتها المعهودة ، وأن ذلك قد يساعد على تكوين الجلطات ، فيؤدي إلى التهابات وأورام في الجزء المصاب . . . وللطب وسائله الجراحية الكثيرة في التغلب على ذلك ، لكن النتائج قد لا تؤدي إلى نجاح ، ومن هنا كان نولين تواقا إلى مشاهدة ما سيفعله داود في تلك الحالة .

وتبدأ العملية بأن يأمر داود مريضه أن ينبطح على بطنه ، ويعري ساقيه وفخذيه ، وتأتي مساعدته بلفافات صغيرة من القطن ، وزجاجة بها كحول ، ومسح داود فخذي الرجل تحت عجزه بقطعة من القطن مغموسة في الكحول ، وبسرعة مر بإبهام يده اليمنى على فخذه ، وكأنما هو قد شق فيه جرحا طوله حوالي شبر ، وأخذ يعبث بأصابعه في الجلد بقوة وبطريقة بارعة وسريعة ، وبحيث لا تعطي أحدا الفرصة ليرى بدقة ما يجري . . . كل ما رآه دكتور نولين هو خدش أحمر قان لا يزيد على الأصبع طولا ، وكأنما هذا الخدش من فعل دبوس مر على الجلد مرورا عابرا .

ومد داود يده إلى مساعدته لتعطيه وعاء يشبه الكوب ، وفي داخله قطعة قطن مبللة بالكحول ، وفيها أشعل داود النار ، ثم وضع الفتحة سريعا على الجلد حيث يوجد الخدش (وهي نفس الطريقة التي نعرفها في بلادنا العربية باسم «كاسات الهواء» التي تستخدم في الأوجاع العضلية أو ما شابه ذلك ، وفكرتها تقوم على تمدد الهواء في الكأس أو الكوب في أثناء الاحتراق ، ثم هروبه إلى الخارج ، وعندما توضع الفتحة بإحكام على الجلد ، ينطفئ اللهب سريعا ، ليبرد ما تبقى من هواء ساخن ، ثم ينكمش ويحدث التخلخل ، فيشد الجلد إلى الداخل شدا ، بحيث نراه مكورا ، ويعتقد العامة عندئذ أن الهواء أو الرطوبة التي تخللت الجسد ، وأدت إلى الوجع ، سوف تخرج تحت وطأة التفريغ الكائن في الكأس أو الكوب) .

غير أن جراحة داود الروحية قد جعلت الدم ينبثق من الخدش الذي أحدثه بخفة يد ومهارة ، وبحيث لا يلاحظ ذلك أحد ، فيعتقد أن الجرح أو الخدش قد نتج عن طاقة روحية خفية خرجت من أصبع السبابة ، ويعترف دكتور نولين بأن داود قد خدعه ، برغم أنه يمتلك مقدرة في هذا المجال لا تتأتى لغيره من المشاهدين ، ولهذا نراه يكتب عن ذلك ويقول : «إنني جراح أجريت أكثر من ستة آلاف عملية جراحية ، وفيها عايشت عمليات في الرئات وحصوات المرارة والمصران الأعور والأرحام وشق البطون والرؤوس والأعناق والأطراف وما شابه ذلك ، وجالت يداي خلال كل

أجزاء الجسم وتجاويفه ، ولهذا أعتقد أنني أعرف الكثير عن فن الجراحة ، ومن هنا كانت قدرتي على تقييم ما يجري أمامي ، وهذا ما لايتأتى للذين لا يعرفون شيئا عن سر المهنة . . . فلو أنك لم تكن قد شاهدت الكثير من العمليات الجراحية ، وعايشت الدم والأنسجة والأعضاء ، لكان من السهل جدا عليهم خداعك» !

ومع ذلك ، فقد خدع نولين أول مرة ، لكنه كان أكثر حرصا في المرة الثانية ، إذ عندما أراد داود أن يكرر عملية سحب الدم من فخذ الرجل ، اقترب نولين أكثر ، حتى أطل برأسه من فوق كتف الرجل (كان الأمريكي طويلا ، والفيليبيني قصيرا ، مما يسر الملاحظة الدقيقة) واتخذ موضعا أحسن ، ونظر إلى يد داود اليسرى ، وهي تمر بقطعة من القطن المغموسة في المطهر على فخذ المريض ، فبدت له اليد خالية من أي آلة جراحية ، ومع ذلك ظهر خدش طفيف لا يكاد يرى ، فتحير نولين حيرة كبرى ، وعندئذ ركز بصره على يد داود اليسرى ، وبينما هذا الأخير يضع قطعة القطن على حافة سرير المريض ، لاحظ نولين قطعة صغيرة من الميكا ذات طرف حاد مدبب وهي تختفي بين أصبعي يد داود اليسرى ، ولا تكاد تظهر ، فأيقن أن الخدش الطفيف قد حدث بها أثناء تطهيره جلد المريض .

لكن فصول الخدعة الذكية لم تنته عند هذا الحد ، إذ يمر داود بسبابة يده اليمنى مرا سريعا في الهواء فوق الجزء المخدوش ، وعلى مسافة بينهما تقدر بحوالي شبر أو يزيد ، وفي هذه الحركة نوع من التمويه ، إذ يوحي للناس بأن أصبعه قد انطلقت منه قوة خفية فقطعت الجلد عن بعد ، ثم يبدأ في ثني وضغط وشد ثنيات الجلد بأصابع يديه ، فيتمزق الخدش ويصبح جرحا تنبثق منه قطرات دقيقة من دم ، أما قطعة الميكا الصغيرة ، فقد تركها بجانب السرير دون أن يلحظها أحد (عدا نولين بطبيعة الحال) ، وفي النهاية يضع الكأس على الجرح ، لينبثق مزيد من الدم ، وعندما يتجلط ، يطلع عليه المشاهدون مشيرا إلى أنه قد خلص المريض من الجلطات التي كانت تسد أوعيته الكامنة في الساق !

وهنا تكمن خدعة أخرى لا يعرفها إلا كل من مارس الطب ، إذ لا يمكن أن تسحب الجلطات التي تكونت في أوعية أساسية في الساق من خلال أوعية ثانوية وسطحية تكمن في الفخذ تحت الجلد مباشرة ، حتى لو سحب كل دماء المريض من خلال هذا الخدش السطحي . وطبيعي أن هذه الخدعة تجوز على كل من لم يمارس مهنة الطب ، ومع ذلك فقد قام المريض ، وكأنما هو قد عوفي من مرضه ، وشد على يد داود شاكرا له جميل صنعه ، وبراعة طبه !

لقد ذكرنا ما ذكرنا بشيء من التفصيل ، حتى تتضح لنا مهارة هؤلاء المعالجين الأدعياء ، وخفة يدهم ، وخداعهم الذي ينطلي على الناس ، فيتحدثون ـ عن جهل ـ بمعجزاتهم التي يعجز الطب عن تحقيقها . . . وطبيعي أن هذا المريض ـ الذي ظن أن بلاءه قد زال ، لاعتقاده الشديد فيما يحكى عن جراحي بلاده من إنجازات هائلة ـ لم يبرأ حقا مما أصابه ، حتى لو قال المستغفلون غير ذلك !

ومما يدل أيضا على ذكاء هؤلاء الناس ، وسرعة بديهتهم ، وقدرتهم على التخلص من المآزق الحرجة التي قد يقعون فيها ، أنه جاءت لداود حالة أخرى إلى المنزل الذي كان يعالج صاحبه من الجلطات في تلك القرية ، وكان المريض ذا بطن منتفخ بشكل واضح ، وشرح داود للدكتور نولين حالته ، وقال إن هذا الرجل كان يجد صعوبة في التبول ، وأنه عالجه قبل ذلك بثلاثة أسابيع ، ثم أمره بالحضور قبل أسبوع ، لكنه لم يحضر ، ربما لفقره ، ومع ذلك سوف يعالجه بسبب اشتداد مرضه !

وعندما بدأ الكشف ، وجالت يدا داود حول بطنه المنتفخ ، أسر إلى الجراح إن كان يريد توقيع الكشف عليه بنفسه ، فلم يمانع ، ولم تمض دقائق ، حتى أدرك نولين أن هذا الرجل مصاب بورم سرطاني في كليته اليمنى ، وأن الورم كان في حجم كرة القدم ، ولما استفسر داود عما يمكن عمله إذا زار نولين في عيادته ، أخبره الجراح أنه سوف يرسله إلى

المستشفى مباشرة لإجراء التحاليل ، وتجهيزه لعملية جراحية تستلزم نقل دم ، حيث إنه مصاب بأنيميا حادة . وعاد نولين ليقول لداود : على أنك لا تهتم بكل هذه الأمور ، فأنت تستطيع من خلال جراحتك الروحية أن تتصرف وتستأصل هذا الورم دون ما حاجة إلى استخدام وسائلنا الجراحية المعقدة ، وأود من كل قلبي أن أراك وأنت تفعل هذه المعجزة .

وكان نولين يقصد بذلك أن يضع داود في مأزق لا مخرج منه ولا مهرب . . . لكن الجراح الروحي استطاع بذكاء أن يهرب من الفخ المنصوب ، فأخبر نولين أنه لن يجري هذه العملية الآن ، لأن لهذا المريض مشكلتين : إحداهما طبيعية والأخرى غير طبيعية ، وسوف يقوم أولا بعلاج المشكلة غير الطبيعية ببعض الأعشاب الطبية ، فيستمر في العلاج لمدة أسبوعين ، ثم يعود إليه ليستأصل الورم من جذوره .

ووقع نولين في الفخ ، وهز رأسه موافقا ، وإلا فما عساه أن يقول أمام هذا التصرف الذكي الذي أنقذ صاحبه من مأزق كبير؟

لكن داود وافق على إجراء عملية جراحية لسيدة جاءت تشكو ألما ببطنها ، فبعد الكشف على بطنها ، ذهب داود إلى قدمها اليمنى ، وأخذ يعصر الأصبع الأكبر ، فلم تتألم السيدة لذلك ، ولما سأله نولين عن السر فيما فعل ، أخبره بأن الضغط على الأصبع يوضح له إن كان المرض طبيعيا أو غير طبيعي ، إذ أحيانا ما تأتي الأمراض من الأرواح الشريرة ، وبلع نولين هذه الخدعة بمرارة ، فمثل هؤلاء الناس لا يزالون يعتقدون في خرافات قديمة ، إما عن جهل وإما عن عمد . . . لا أحد يدري !

وكان حسنا أن داود لم يجد مرض السيدة غير طبيعي ، لأن لديها اضطرابا في معدتها ، ولما سأله نولين عن طبيعته ، أخبره بأنه ألم . . . ألم لازمها منذ فترة طويلة ، ومن أجل هذا سوف يجري لها الجراحة اللازمة ، وبدأت مراسم الجراحة بصلاة ودعاء ، ثم أحضرت مساعدته المطهر ، ومسح به بطن المريضة ، ووضعت ـ أي المساعدة ـ ثلاث قطع صغيرة من

القطن على البطن ، وبدأ داود بيديه العاريتين وكأنما يعجن بطن المريضة ، وبعد ثوان قليلة اختفت قطع القطن الثلاث بعد أن كان يعجنها أيضا في بطن المريضة ، وفجأة ، وبعد لحظات من اختفاء القطن بدأ سائل أحمر داكن ينزف من بين أصابعه ، وعند هذه اللحظة لم تكن تظهر من أصابعه إلا السلاميات أو العقل المجاورة لراحة اليد ، أما أصابع اليد الأخرى فكانت تحيط بها وتخفيها ، ثم تظهرها في وضع وكأنما هي تغوص بالفعل داخل بطن المريضة ، وأن السائل الأحمر ليس إلا دما ينزف من البطن !

وبعد حوالي دقيقة أخرج داود - بيده اليسرى - من بطن المريضة قطعة حمراء ملتوية يبلغ طولها حوالي خمسة سنتيمترات ، بينما كانت يده اليمنى غائصة في البطن ، وأعلن أن ما أخرجه جلطة دموية ، فأمن الحاضرون على كلامه بهز رؤوسهم ، وعاد ليعبث بأصابعه في بطن المريضة ، ووضعت المساعدة عليها مزيدا من قطع القطن ، وسرعان ما اختفت هذه القطع بين يدي داود ، وبعد لحظات أخرج كتلة أطول وأكبر من سابقتها ، وكأنما الدماء تكاد تنزف منها ، وأحاط داود علم الحاضرين أن ما أخرجه ليس إلا نسيجا فاسدا في المعدة ، ووافقه الحاضرون بإيماءة من رؤوسهم . ولم تستغرق هذه العملية سوى ثلاث دقائق ، وبعد أن مسح داود السائل الأحمر بقطعة من القطن ، وفحص نولين بطن المريضة ، فلم يجد فيها أثرا لجرح أو خدش أو أي علامة تدل على فتح البطن ونزف الدم واستئصال هذه الأنسجة !

واختفت بسرعة قطع القطن المبللة بالسائل الأحمر ، كما اختفت الأنسجة الفاسدة ، إذ إن هؤلاء الناس لا يمكنون أحدا من فحصها ، لأمر لا يخفى على لبيب ، فلا الدماء قد انبثقت ، ولا الأنسجة الفاسدة قد استؤصلت ، ولا فتح البطن قد تم ، بل إن ما حدث كان حركات بارعة لا تزيد على حركات الحواة . . . فالأنسجة الفاسدة مثلا لم تكن إلا قطع القطن التي عجنها في السائل الأحمر وأخرجها على الملأ مفتولة ، وكأنها تشبه أنسجة الجسم الداخلية .

وقامت المريضة سليمة ،لتعلن أن علتها قد شفيت ، وأن الآلام قد اختفت !

وترك نولين القرية ، وهو يشد على يدي داود ، ويهنئه على براعته الفائقة ، وكأنما نفسه تحدثه حديثا ذا شجون ، أو كأنما هو يرثي لحال آلاف المخدوعين الذين وقعوا ويقعون في خزعبلات لا تجوز إلا على المغفلين !

ويذهب نولين في اليوم التالي إلى جراحة روحية اسمها جوزفين . . . شابة تبلغ من العمر ٢٤ عاما ، وعندما حضرت من السوق كان في انتظارها ثلاثة مرضى ، ودكتور نولين ، وعلى أحد المرضى أجرت عملية روحية لاستئصال الزائدة الدودية ، وأخرى في المعدة ، وثالثة في الفك ، ولم تستغرق كل عملية إلا دقيقتين أو ثلاثا . . . نفس السائل ، وقطع القطن ، وحركات الأصابع ، وقطع النسيج الأحمر التي هي في الحقيقة قطن ملطخ بالسائل وملفوف بطريقة خاصة ليبدو وكأنما هي جلطات أو أورام أو أنسجة «فاسدة» . . . الخ ، وفوق كل هذا كانت هذه الأنسجة الخادعة تختفي سريعا في وعاء ، ويضرم فيها النار ، حتى لا يكتشف أحد الخدعة .

وعنّ للدكتور نولين أن يتصل بأحد أطباء الفيليبيين من أهل البلاد ، ليجري معه حوارا عن ذلك الذي يراه . . . وقد كان .

حوار لـه مغـــزاه

سأل نولين مديرة الفندق في مدينة باجيو التي يقطن فيها إن كانت تعرف طبيبا يتحدث الإنجليزية ، ولديه رغبة في حوار مفيد عن الجراحات الروحية التي تتم تحت سمع وبصر الهيئات الطبية دون أن تضع حدا لذلك .

وأرشدته إلى دكتور «رول أوتيلو» ، وحدث الاتصال ، وبدأت المناقشة ، وكان أوتيلو يتحدث الإنجليزية بطلاقة ، إذ إنه تلقى تدريبات طويلة في الولايات المتحدة ، ومن هنا كانت المناقشة صريحة ومثمرة ، خاصة بعد أن أسر إليه نولين بالمهمة التي جاء من أجلها .

يذكر دكتور أوتيلو أن الهيئات الطبية في الفيليبين قد حاولت ، المرة تلو الأخرى ، أن تستقصي حقيقة هؤلاء الناس ، وأن تجري معهم حوارا ، لكن من دون فائدة . فإلى الفيليبين ينزح آلاف المرضى سنويا لطلب العلاج عند هؤلاء ، فمنهم من يأتي من الولايات المتحدة وكندا وألمانيا واليابان . . . الخ . . . الخ ، ولقد حاولنا أن نحذر الوافدين من عدم جدوى العلاج ، وأن الأمر ينطوي على خداع ، ولكن لا أحد يسمع النصيحة ، ومن هنا نفضنا أيدينا ، وتركنا الأمور تجري في أعنتها .

ومنذ أن كان أوتيلو رئيسا للجمعية الطبية المحلية بالمنطقة عام ١٩٦٧ ، كان اسم توني أجباوا نارا على علم بين جراحي الفيليبين الروحيين ، وهو رجل ثري بمعنى الكلمة . . . صحيح أنه يدعي أنه لا يقاضي أحدا من مرضاه أي أتعاب ، ولكنه يأخذها على هيئة هبات لكنيسته المزعومة . . . ثم إن أقل هبة كانت في حدود مائة دولار ، وهناك من يدفع ألفا ، أي أن دخله في الشهر الواحد كان يربو على أربعين ألف دولار . . . أضف إلى ذلك أن زوجته تمتلك شركة للسياحة ، وتورد له الزبائن ، ويقال إنه تقدم لشراء جزيرة يبلغ ثمنها سبعة ملايين دولار !!

ولقد أراد أوتيلو أن يدين أجباوا على مهنته غير الأخلاقية وغير المشروعة ، لكنه تخلى عن هذه الفكرة ، حتى لا يتهمه أحد بالغيرة (أو ربما لأن الحكومة تشجع السياحة عن طريق هؤلاء) ، واستبدل بذلك فكرة أخرى : لماذا مثلا لا يتصل بأجباوا ويتقرب منه ، ويعرف حقيقة ما يقوم به ، فربما أدى ذلك إلى الاستعانة بخبرته في علاج الحالات المستعصية؟

«وقبل أجباوا الفكرة ، وحدد لنا موعدا ، وجهزنا مسرح العمليات ، وأحضرنا بعض المرضى ، لنرى كيف يجري عملياته ، لكنه لم يحضر!

وأردنا أن نخرجه ، وذهبنا إليه ذات يوم في كنيسته ، فادعى أنه مريض ، وأن قدراته على العلاج في هذا اليوم ليست على ما يرام . . . وحدد لنا موعدا ثالثا ، وانتظرناه فلم يظهر ، بل تبين لنا فيما بعد أنه هجر المدينة إلى

حين ، واستمرت المطاردة ، بيننا وبينه ، وعندما ضيقنا عليه الحصار نقل نشاطه إلى استراحة جميلة على شاطئ البحر» .

وماذا عن ضحاياه . . . ألم يقاضه أحد بالتسبب في إيذائه؟

إن أحدا لا يستطيع أن يفعل ذلك ، فمعظم زواره من الغرباء الذين جاءوا لبضعة أيام ، كما أن أحدا منهم لا يريد أن يحرج نفسه ، ويظهر أمام الناس بمظهر المخدوع أو المستغل ، وخير له أن يرحل في هدوء !

ويستطرد دكتور أوتيلو في حواره مع دكتور نولين فيقول : كثيرا ما استدعيت إلى هذا الفندق أو غيره لأعالج أو أسعف بعض المرضى الذين جاءوا طلبا للجراحات الروحية ، ثم أدركوا أنهم وقعوا في أيدي مخادعين محتالين ، وكان معظمهم يستحي أن يتحدث إلي فيما وقع فيه ، حتى لا أتهمه بالغفلة أو السذاجة ، على أن هناك حالات قد لقيت حتفها ، وهذا هو الشيء المحزن حقا ، إذ يفصل بينها وبين أوطانها آلاف الأميال ، وطبيعي أن أحدا لا يستطيع أن يقدم هؤلاء القتلة المستترين إلى القضاء ، ما لم يتقدم أحد الضحايا بإدانتهم .

إن توني أجباوا قد مارس هذه المهنة طوال عشرين عاما دون إدانة واحدة ، ولا شك في أنه إنسان على درجة كبيرة من الذكاء والخداع ، فهو لا يسمح لأحد على الإطلاق بأن يفحص عيناته التي يستخدمها في جراحاته المزعومة ، ولا أن يقرب الأنسجة التي يدعي استئصالها من مرضاه ، بدعوى أن هذه الأنسجة شريرة ، ولابد من حرقها في الحال ، ومع ذلك ، فهناك عينة وحيدة قد أمكن الحصول عليها وتحليلها ، فلقد حضر رجل أعمال من كندا ليجري جراحة روحية لاستخراج حصاة من إحدى كليتيه ، إلا أنه شك فيما يقوم به أجباوا على مرضى سبقوه في العلاج ، وعندما تقدم للجراحة ، وزعم أجباوا أنه استخرج له الحصوة ، وأمسكها في يده ليريها إياه ، خطفها الكندي من يده بسرعة قبل أن يتخلص أجباوا منها في وعاء تضطرم فيه النار ، وأحضرها إلى المستشفى الذي يعمل فيه دكتور

أوتيلو ، فسلمها هذا بدوره إلى المعمل الباثولوجي حيث تم فحصها ، فتبين أنها قطع من السكر . . . لا أكثر ولا أقل !!

ولم يستطع رجل الأعمال الكندي أن يشكو خوفا على سمعته من الفضيحة ، وكل ما استطاع عمله أنه لم يدفع الهبة لأجباوا .

لكن دكتور نولين لم يكتف بهذه المعلومات الغريبة والمؤسفة ، بل عول على أن يحصل على المزيد من أخبار الجراحات الروحية ، ومن ثم فقد سعى سعيه لمقابلة توني أجباوا ، والاطلاع بنفسه على معجزاته المزعومة ، إلا أنه لم يستدل على مكانه ، لتهربه من الضرائب ، فعدل عن ذلك خاصة بعد أن تناهى إلى علمه أن الجراح الروحي جو ميركادو هو الوحيد الذي لا يغش ولا يخادع ، هذا بالإضافة إلى طريقته المثلى في إقناع كل متشكك في جدوى هذا النوع من العلاج ، ومن ثم عقد العزم على زيارته .

دكتور نولين يدخل التجربة بنفسه!

بينما نولين يتحدث إلى صديق ، لمعت في ذهنه فكرة جريئة ، فأسر إلى صديقه أنه سيدخل مع ميركادو في تحديات حقيقية ، فيذهب إليه على أنه قد جاء للعلاج وليس للاطلاع ، فيرقب بعين الجراح الحذر المتمرس كيف ستتم هذه العمليات ، وما قد يشوبها من صدق أو خداع .

وفي كنيسة ميركادو لاحظ دكتور نولين بهوا واسعا يصطف فيه حوالي مائتي مقعد ، لكن نصفها كان مشغولا ، وهناك قابلته مساعدة ميركادو (وتدعى ماريا) على أنه مريض جاء يطلب الشفاء ، فأخبرها بأن لديه ضغطا مرتفعا في الدم (وهذا صحيح) ، وأنه يخشى أن يكون قد أثر في كليتيه ، وأشار إلى حيث قد توجد المشكلة التي يعاني منها ، وأخبرته ماريا أن ارتفاع الضغط ليس مشكلة ، لكن الذي يهم هما كليتاه ، وأمرته أن يتخذ له مقعدا حتى يحين دوره .

وفي الساعة العاشرة صباحا بدأت مراسم الجراحة الروحية بصلوات استمرت حوالي عشر دقائق، وتبع ذلك حديث لرجل يدعى جوكين كونانان، وهو رئيس مذهب الكنيسة الروحية في الفيليبين، واستمر حديثه أيضا حوالي عشر دقائق، وبعد أن امتدح قدرات العلاج الروحي التي تتم على أيدي المعالجين الروحيين، وعلى رأسهم جو ميركادو، بدأ في تقديم الدليل على صحة هذا النوع من العلاج من خلال مجلات ومقالات ونشرات كانت في حوزته، ومن بينها مجلة «التايم» واسعة الانتشار، وفيها جميعا تأكيد على امتلاك المعالجين الروحيين لطاقات خارقة، والدليل على ذلك أيضا أن مجلة التايم قد نشرت لجو ميركادو صورا، وفيها تظهر أصابعه وقد انطلقت منها هالات غريبة تشع في اتجاهات شتى، قد ظهرت هذه الهالات بواسطة نوع من التصوير يعرف باسم التصوير الكيرلياني (نسبة إلى مخترعه، وهو الروسي كيرليان)، وعن طبيعة هذه الهالات، ثم ظهورها بذلك النوع من التصوير، سوف نفرد بابا مستقلا نتحدث فيه بشيء من التفصيل، لأهمية ذلك في موضوعنا.

الغريب أيضا أن هناك صورتين لجو ميركادو، في إحداهما تظهر أصابعه قبل بدء العلاج وحولها هالات واضحة من الطاقة الخفية، وفي الأخرى تبدو الهالات ضعيفة وباهتة بعد إجراء العملية، ويعني ذلك أن ميركادو كان يفرغ طاقته الروحية من خلال أصابعه في جسم المريض أثناء إجراء العملية، ثم يعود الشحن الروحي ليظهر قويا بعد قليل في العملية التي تليها... وهكذا كان يشحن ويفرغ مرات عديدة بعدد المرضى الذين يعالجهم، وهذه - كما يزعمون - قدرات خاصة لم يهبها الله إلا لهذا النوع من البشر!

ثم يبدأ كونانان في قراءة فقرات من مقال منشور لرائد الفضاء دكتور إدجار ميتشيل، وفيه يشيد بمعجزات العلاج الروحي، ولقد ذكرنا إدجار ميتشيل هنا مرة أخرى لسبب، فرغم أنه رجل علم، إلا أنه أكبر بوق دعائي لمثل هذه الخرافات، وهذا ما سبق أن أشرنا إليه... ثم يقرأ كونانان في

النهاية تقريرا موقعا من عدة أشخاص - بعضهم مشهور وبعضهم مغمور - وفيه يشهدون بأن العلاج لا ينطوي على أي خدع أو شعوذة !

إننا نسوق هذه الفقرات هنا ليس من قبيل تحصيل الحاصل ، بل لكي نوضح كيف أن هذه الخزعبلات تدور في حلقات محكمات ، ولها أدعياء برعوا في خداع الناس ، ليثروا على حساب أهم شيء يمتلكه الإنسان . . . هذا الشيء هو صحته ومرضه !

وقبل أن يجيء الدور على دكتور نولين لإجراء عملية في كليتيه ، نادى المنادي على رجل من البرازيل جاء إلى الفيليبين لبعض الأعمال ، وفي نيته أيضا أن يطلع على معجزات الجراحات الروحية التي قرأ عنها الكثير ، وأهمها معجزات ميركادو بخاصة ، وتقدم إلى حيث توجد منضدة العمليات ، وأخذ حقنة تخدير «روحية» ، وهي حقنة لا وجود لها إلا في الخيال ، إذ يكفي أن يشير ميركادو إلى مكان الوجع بسبابته عدة مرات ، وفي هذه الأثناء تخرج من سبابته القوة الروحية المزعومة لتقوم بالتخدير ، ثم يقف الرجل أمام ميركادو ليخلصه من ضرس فاسد ويبدأ الجراح الروحي في فتح فم الرجل ، ويعبث فيه بحركات مدروسة في «مدرسة» الخداع والتمويه ، وبعد قليل يخرج من فمه قطعة صغيرة من مادة بيضاء ، وكان واضحا تماما أنها ليست بضرس ، وعندما أراد البرازيلي أن يحصل على «ضرسه» المخلوع من ميركادو ، سارع هذا بقذفه إلى مساعدته ماريا ، حيث ألقته في جردل صغير ، وأضرمت فيه النار ، وعندما تحسس البرازيلي ضرسه المخلوع ، وجده في مكانه ، واحتج على ذلك بنبرة فيها خيبة أمل وحسرة ، وأعلن أن ضرسه لا يزال موجودا ، لكن ميركادو لم يعبأ بكلامه (كان لا يفهم الإنجليزية كثيرا) وأشار إلى مساعدته لكي تشرح له علته ، فأخبرت الرجل المخدوع أن ضرسه لا غبار عليه ، ولهذا فليس هناك داع لخلعه ، إنما الجراحة قد أجريت على جذور الضرس الملتهبة ، وأنه أمكن إزالة النسيج الفاسد بالجراحة الروحية ، واقتنع معظم الحاضرين بهذه التفسيرات الذكية الجاهزة . . . لكن مما لا شك فيه أن ميركادو لم يفعل

شيئا ، إنما هو ـ في الواقع ـ كان يخبئ بين أصابعه قطعة صغيرة من نسيج لا تمت لفم الرجل أو ضرسه بصلة تذكر ، ثم أظهرها أمام الناس بعد ذلك ليوهمهم أنه قد استأصل بالفعل شيئا ، وأن هذا الشيء هو علة العلل !

وبعد عدد من العمليات يجيء الدور على دكتور نولين ، فيجري على بطنه كشفا بالأشعة الروحية ، وبهذه الأشعة المزعومة يرى ما في الباطن ، ويحدد مكان المرض ، ويعرف طبيعته ، ولا مانع هنا من ذكر الطريقة التي يتخذها ميركادو ، ليتبين لنا ما تنطوي عليه من سذاجة لا تجوز إلا على أصحاب العقول الضعيفة . . . إذ يمسك ميركادو بفوطة في حجم فوط الوجه ، ويضعها بين عينيه وبين بطن نولين ، وينظر من خلالها إليه ، «فتنطبع» على الفوطة صورة واقعية للأعضاء الداخلية ، وهو ـ أي ميركادو ـ الوحيد الذي يستطيع أن يرى ويحدد موضع المرض . . . وبعد أن رأى وحدد ، أخبر نولين بضرورة عملية جراحية ، ووجه ميركادو أصبعه إلى بطن نولين ، وكأنما هو يحقنه بحقنة التخدير الروحية ، وبعدها تبدأ الجراحة المزعومة !

ولما رأى ميركادو أن هذا الأمريكي فارع الطول ، وأن منضدة العمليات القصيرة نسبيا لن تكون مريحة ، أسر إليه أنه سيجري له العملية وهو واقف ، واستبشر نولين بذلك خيرا ، فلا شك أن ذلك سيعطيه فرصة ذهبية لينظر من فوق إلى أصابع ميركادو وهي تعمل في بطنه ، دون أن يفطن هذا للمراقبة .

ويصف د . نولين بعباراته بعض تفاصيل ما رآه ، فيقول : « بعد أن كشف ثيابي عن بطني ، بدأ في العمل ، فأخذ يعجن بطني بأصابعه ، وكنت أراقب من فوق بحذر بالغ كل حركة من حركاته ، واستطعت أن أرى ـ من البداية ـ شيئا أحمر يميل إلى الاصفرار ، لكنه كان يخفيه في طيات راحة يده اليمنى ، وبعد ثوان قليلة ، بدأت «الدماء» تسيل على بطني ، وهي دماء مزعومة ، ثم بدأ ينزع قطعا من القطن الملوث بهذا السائل الأحمر ،

وكانت القطع مطوية أو «مبرومة» لتتخذ أشكالا شتى ، وأمسك بعضها بين أصابعه ثم علقها أمام عيني لكي أراها ، وهنا صاحت ماريا المساعدة «إنها جلطات» ! . . . ثم راح ميركادو يعبث في جلد بطني أكثر وأكثر ، وكأنما هو يستأصل من الداخل نسيجا حقيقيا ، وأخيرا وبعد ثوان قليلة ابتسم وأراني نسيجا متكورا أحمر يميل إلى الاصفرار ، ولم تكن المسافة بين عيني وبين هذا النسيج تزيد على ١٥ سنتيمترا لا غير ، مما هيأ لي الفرصة لألقي عليه نظرة سريعة فاحصة ، وعرفته على الفور بأنه قطعة من الدهون التي غمسها في السائل الأحمر ، فاكتسبت بعض لونه ، وعندما رأت ماريا ذلك ، نظرت إلي بدهشة وسرور وقالت : إنه ورم سرطاني . . . شيء خطير جدا . . . إنك رجل محظوظ للغاية . . . لقد نجحت العملية . . . ولتستبشر خيرا »!

ويستطرد نولين قائلا : لقد حل بي نهم شديد لأخطف من يده هذه القطعة ، لكنه لم يمكنني من ذلك ، إذ كان أسرع في إلقائها في جردل خلفه ، ثم جاء مساعد آخر ، وأضرم فيها النار ، وهذا هو مصير كل نسيج يزعم استئصاله من المرضى . وعاد ميركادو إلى بطني ليمسح الدماء المزعومة بقطعة من القطن ، وعادت الأمور إلى مجاريها ، ودعاني لأن أنظر إلى بطني ، ونظرت . . . لا خدش . . . لا جرح . . . لا ندبة . . . لا شيء إطلاقا ، وعندئذ ابتسم لي ، وابتسمت له ، وحييته قائلا : لكن . . . هل هذا يخلصني من ضغط دمي العالي ؟

«وهنا تدخلت ماريا ، إذ كانت تتحدث الإنجليزية بشيء من الطلاقة ، وأخبرتني أن ما أخرجناه كان أكثر خطورة من الضغط . . . إنه ورم خبيث . . . أنت محظوظ ، ومع ذلك فنحن على استعداد لتقديم الشفاء من ضغط الدم . . . ما عليك إلا أن تجلس هنا ، لنجري عليك عملية تدليك ، فتشفيك مما تعاني . . . وعندما جلست ، بدأ رجل مسن يدلكني ، ثم ساعده ميركادو ، ولقد كان عملهما أقرب إلى الضرب والصفع على كتفي ورقبتي ورأسي منه إلى التدليك ، وهذا ما جذب انتباه الناس فجعلهم يضحكون ويبتسمون ، ثم شاركناهم أيضا

ضحكاتهم وابتساماتهم . . . لقد كان منظرا مثيرا للغاية . . . إنه منظر فكاهي . . . لا علاجي» !

والغريب أن ماريا قد أعطت نولين زجاجة بها زيت ليدلك به جسمه ، بزعم أن هذا كفيل بتخليصه من ضغط دمه . . . وطبيعي أن نولين قد ألقى بالزجاجة على أقرب كومة قمامة ، فلا بالتدليك ولا بالزيت يتم شفاء ضغط الدم . . . إنما الأمور كلها دجل في دجل !

الشيء الوحيد الذي تأكد منه نولين أن ميركادو لم يفتح بطنه ، ولم يستخرج منها شيئا ، ولكنه مخادع كبير . . . هذا الذي يقولون عنه إنه أعظم الجراحين . . . وأنه لا يخدع ولا يضلل أبدا .

والشيء الوحيد أيضا الذي يتميز به ميركادو عن الجراحين الروحيين المزعومين أنه لا يستخدم قطعا من القطن المبروم بأشكال شتى ، والمغموس في سائل ملون (أحمر أو أصفر أو برتقالي) ، ليوهم به الناس على أنه نسيج حي مستأصل ، بل طور المهنة ، واستبدل قطع القطن الملونة بأنسجة حية يحصل عليها من قطط وطيور وما شابه ذلك ، فهذا أتقن في الخداع ، وأعظم في التمويه .

لقد أجرى ميركادو في هذا اليوم المشهود عشرات العمليات الجراحية التي ادعى فيها أنه استأصل أرحاما ومبايض وسرطانات وكُلى وأكبادا وجلطات من القلوب . . . الخ . . . الخ ، كل هذا يحدث . . . وما عليه إلا أن يخدع ، وما على الناس إلا أن تدفع !

جراحة روحية غريبة للعين

والواقع أن الجراحات الروحية كثيرة ومتنوعة ، ونحن لا نستطيع أن نتعرض لها هنا ، فهي تستحق كتابا كاملا ، لكن يكفي أن نقدم هنا جراحة مثيرة على يدي «جراح» آخر يدعى فلورز ، فعندما ذهب إليه دكتور نولين

في كنيسته ، وجدها مكتظة بالناس ، وقبل أن يتخذ له مقعدا فوجئ بالمدعو كونانان رئيس مذهب الكنيسة الروحية في الفيليبين ، وهو يقف «بوثائق» ـ نفس الوثائق التي كانت معه عند ميركادو ـ ليظهر للناس من خلالها أن الجراحة الروحية حقيقة لا ريب فيها . وبعد أن انتهى من «موعظته» المكررة ، كان نولين قد تعرف ـ أثناء وقوفه ـ بصحفي بريطاني جاء من هونج كونج ، ليكتب موضوعا صحفيا مثيرا عن معجزات الجراحات الروحية التي سمع عنها الكثير ، لكن نولين لم يشأ أن يصدمه ، بل صحبه معه ليرى بعينيه .

نعود الآن إلى فلورز لنراه يجري جراحاته بنفس الطرق التقليدية ، وبعد عمليتين في البطن ، تقدم المدعو كونانان وجلس على كرسي ليجري له فلورز جراحة في عينه ، والغريب أن هذا الرجل كان قد تحدث بالأمس إلى نولين ، ولم يلحظ عليه جراحنا أي شيء غير عادي ، وهذا ما يدعو إلى الشك حقا ، فهل يقوم هذا الرجل بدور دعائي للجراحين الروحيين ، ويقتسم معهم بعض الغنيمة؟ . . . لسنا ندري .

وتقدم نولين والصحفي إلى الأمام علهما يأخذان موقعا أفضل للمراقبة ، إلا أن سيدة عجوزا قد منعتهما من ذلك ، «فالجراح» فلورز لا يرحب كثيرا بمن يراقبه ، ولا هو يسمح لأحد بالتصوير . . . ومع ذلك فقد استطاع نولين وصاحبه أن يرقبا ما يجري ، وعندما تركت السيدة العجوز مكانها ، استطاعا أن يتسللا أثناء انشغال الجميع في العمل أو التطلع إلى الجراح وهو يعمل ، ووقفا في مكان قريب من مسرح العملية ، فما عاد يفصلهما عن فلورز ومريضه إلا متر ونصف المتر .

وظهر كونانان بعينه اليسرى مغمضة ، أما العين اليمنى ، فقد أخرجها فلورز من مقلتها ، وأصبحت المسافة بين المقلة وبينها حوالي عشرة سنتيمترات ، وبدأ فلورز يعبث في العين ، وأخيرا أخرج منديلا من جيبه ، وأخذ ينظفها ويدعكها كما نفعل نحن مثلا في نظاراتنا

الزجاجية . . . وجذب هذا المنظر المثير انتباه الصحفي ، فهمس في أذن نولين : إن ذلك لمدهش حقا ! . . . إذ كيف يستطيع أن يخلع العين ويبعدها إلى مثل تلك المسافة ؟!

وجاوبه نولين هامسا : إنه لم يخلعها . . . وعليك أن تراقب جيدا حتى النهاية .

وبعد ثلاث أو أربع دقائق من عملية الصقل و «التلميع» بالمنديل ، وضع يده اليمنى بجوار أنف كونانان ، ثم ثنى كفه بحيث لم نستطع أن نرى ما يجري ، ووضع يده اليسرى الممسكة بالعين حول الكف اليمنى المقوسة ، وبهذه الحركة كان كل شيء قد تم ، وعادت العين إلى مقلتها ، وعندما رفع كلتا يديه ، نظر كونانان إلى الحاضرين بعينيه ، فزادت دهشتهم ، وانفرجت أساريرهم بعد أن رأوا هذه المعجزة الخارقة !

وبين دهشة الناس ، كان نولين والصحفي يرقبان بحذر شديد ، وأشار الأمريكي (أي نولين) إلى الإنجليزي بأن العين التي كان يمسحها ما زالت في راحة يده اليسرى المطوية ، وعليه أن يتابع ما قد يحدث بعد ذلك ، وسار فلورز حول منضدة عملياته ، ودون اكتراث ألقى ما في يده على رف وراء المنضدة ، وبحيث لا يرى هذا الرف أو ما عليه أحد من الحاضرين ، وفي اللحظة التالية ظهرت يده اليسرى مبسوطة بغير سوء ، وتحرك نولين إلى الوراء قليلا ليختلس نظرة يلقيها على الرف سريعا ، وحدث ما توقع ، فالعين هناك على الرف قابعة !!

وبعد هذه العملية الكبيرة التي «أجهدت» فلورز لدقتها ، حق له أن يشعل سيجارة ، ويرتاح قليلا ، وفي هذه اللحظة شاهد كونانان دكتور نولين ، فسعى إليه وتساءل مبتسما : هل رأيت عملية جراحية في العين ؟ . . . قال نولين وهو يتجنب كذبة على شفتيه : إنها رائعة . . . فأمن كونانان على ذلك بقوله : «إن جراحينا الروحيين لهم قدرات خارقة» !

وخرج نولين مع الصحفي البريطاني الذي أسر إليه بقوله : إنني أعترف بأنني لم أكد أصدقك لولا أنك أشرت إلي بمراقبة يده اليسرى ، وعندئذ أيقنت بأن الخدعة كانت ستجوز علي . . . إنهم يستغفلون الناس حقا !

ولم يكتب الصحفي ـ بطبيعة الحال ـ مقاله لجريدته عن المعجزات الخارقة لهؤلاء الناس ، حتى لا يزيد عدد المخدوعين ! . . . وحتى لو كتب الحقيقة ، فإن الجريدة لن تنشر منها شيئا ، فالمطلوب أخبار مثيرة !

يقول دكتور نولين معلقا : «إن الجراحة مهنتي ، ولهذا استطيع أن أراقب العمليات الجراحية بعين ناقدة ، وبموضوعية قد لا تتأتى للناس ، فعندما يرى هؤلاء الدماء والأنسجة ، ويعيشون في هذا الجو المفعم بالرهبة ، ، فإن شكوكهم وقدراتهم العقلية الفاحصة والناقدة قد تتبخر ، وحينئذ يصبحون معتقدين ومصدقين . . . إنني أعرف معرفة يقينية أن العين التي أخرجها فلورز لم تكن عين كونانان ، فليست هناك أي وسيلة معروفة لشد عصب العين كل هذه المسافة ، ثم بأي عملية من عمليات الجحيم أو الشيطان يمكن أن نتناول العين الحساسة هكذا ، ثم نمسحها كما نمسح زجاج السيارة ؟ . . . إن فلورز ببساطة شديدة قد أتى بعين حيوان ـ ربما لكلب ميت أو ما شابه ذلك . . . إن الذين يشاهدون الجراحين الروحيين ـ كل الجراحين ـ سوف يتوصلون إلى حقيقة مؤكدة ، فبينما إحدى اليدين تعمل ، تكون الثانية ستارا على الجسد ، بين الناس وبين العملية المزعومة ، ولم يحدث إطلاقا أن ابتعد جراح روحي بكلتا يديه عن موقع العمل ، إذ لو فعل ، لكشف الناس الخدعة . . . إن كل شيء رأيته وعاينته كان وهما . . . وهما مجردا» !

البداية . . . شعوذة وسحر ودجل!

وفي مانيلا تقابل نولين مع أطباء وجراحين كثيرين في المستشفى العام للعاصمة ، وعرف منهم الكثير عن العلاج والجراحة الروحية . . .

عرف كيف بدأت هذه الخدع منذ أكثر من ثلاثين عاما على يدي رجل فيليبيني يدعى تيرته ، وكان من المشتغلين بالشعوذة والسحر اللذين تجوز خدعهما على البسطاء ، ولقد لجأ إليه الفيليبينيون الذين يقطنون في المناطق النائية مضطرين حيث لا توجد وقتذاك خدمات طبية ، وأوهم الناس وأقنعهم بقدراته الخارقة على كشف العلة ، وشفاء الأمراض ، وكان يرجع ذلك إلى الأرواح الشريرة التي تتسبب في كل داء ، ووثق الناس في علاجه ، خاصة عندما نجح في شفاء بعض الأمراض الناتجة عن الحالات النفسية ، أو الاضطرابات العقلية أو الأمراض غير العضوية (مثل الصداع واضطراب الدورة الشهرية . . .) الخ ، إذ يكفي الإيحاء والاقتناع بجدوى ذلك العلاج في شفاء نسبة كبيرة من هذه الأمراض . . . وهو ما أشرنا إليه قبل ذلك مرارا .

وذهب تيرته إلى أبعد من ذلك ، وادعى قدرته على إجراء العمليات الجراحية دون مبضع أو أدوات جراحية ، ورأى العامة الدماء وقطع القطن الملطخة والأنسجة التي كان يستأصلها . . . الخ . ولم تكن الدماء دماء آدمية ، ولا الأنسجة المستأصلة بشرية . . . بل جاءت كلها من بعض الحيوانات ، أو من قطع القطن المبللة بصبغة حمراء يحصلون عليها من بذور نبات التنبول الذي ينمو هناك ، ولقد شاهد دكتور نولين بعض هذه البذور في كثير من الكنائس الروحية التي زارها ، لكنه لم يكن يعرف السبب في وجودها ، ومما ساعد على الاعتقاد في هذه الجراحات الخرافية أن الناس العاديين أو البدائيين لا يلقون بالا إلى تفاصيل ما يجري أمامهم ، إذ يكفي فقط أن يشهدوا هذه الدماء الكاذبة ، والأنسجة الخادعة ، وقطع القطن الملطخة بدم حيواني أو صبغ نباتي يشبه الدم ، فهذا يكفيهم دليلا على أن هناك بالفعل عملية جراحية تتم بحركات كالتي يستخدمها السحرة والحواة !

وكان لتيرته بعض المساعدين الذين تعلموا على يديه سر المهنة ، فحوروا فيها وأكسبوها طقوسا مبتكرة ، وخدعا جديدة . . . من ذلك مثلا أن

بعضهم عرف أن بيكربونات الصودا إذا خلطت بسائل فيه مادة بيضاء ، فإنها تتلون بلون الدم ، ولهذا كانوا يضعون البيكربونات في قطع القطن ، وبمجرد لمسها بالسائل ، تكتسب لون الدم ، وهذا ما يدرسه التلاميذ في المدارس ، ونعرفه باسم الكشافات الكيميائية .

وانتشرت الطريقة ، لكنها أصبحت محدودة في بلادها ، خاصة في المناطق الريفية أو النائية ، وتوطدت الثقة بين العامة وهؤلاء السحرة ، والناس تتحدث وتطنب عادة في النتائج الإيجابية ، ولكنها تهمل النتائج السلبية التي لم تحقق شفاء ، وهنا يكمن مربط الفرس .

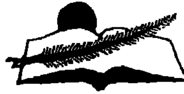
وسمع بعض الأجانب القليلين الذين كانوا يفدون إلى الفيليبين عن هذه الجراحات المضللة ، وكان من السهل خداعهم ، ولهذا نقلوا تلك الأخبار بعد عودتهم إلى بلادهم ، وانتشرت هناك ، ووجدت فيها الصحافة مادة دسمة ، فزادت الطين بلة ، وذهب المراسلون إلى الفيليبين ، فخدعوا بدورهم ، وصوروا وكتبوا الكثير عن هذا الخداع المبين ، وتوافدت الآلاف سنويا على جراحي الفيليبين ، وأصبحت هذه التجارة الفاسدة موردا ودخلا للبلاد ، ومن أجل هذا أغمضت الحكومة عينيها ، وتركت الأمور تجري في أعنتها .

وقبل أن يترك نولين الفيليبين ، تقابل في مانيلا مع طبيب نفساني يدعى دكتور لويس مارتينيز ، ولهذا الرجل الفيليبيني معلومات غزيرة عن طريق الشعوذة التي يستخدمها العشرات من جراحي الفيليبين الروحيين المشهورين ، كما أنه كان يحتفظ بقائمة أسماء وعناوين لبعض الأمريكيين الذين جاءوا إلى الفيليبين طلبا لجراحات روحية مزعومة ، إذ كان هو بدوره مهتما بتقصي أخبار هؤلاء الأمريكيين ، ومعرفة الحقيقة منهم ، فبعضهم أشاد ببراعة هؤلاء المخادعين ، وأصيب البعض بخيبة أمل ، وكان دكتور مارتينيز مهتما بهذا الأمر بغية كتابة تقرير مفصل يرفعه إلى وزارة الصحة في بلاده ، وحصل دكتور نولين منه على بعض عناوين وأسماء الأمريكيين الذين ادعوا الشفاء من أمراضهم العضوية .

وسافر د . نولين عائدا إلى بلاده ، واتصل بمن ادعوا الشفاء ، فمنهم من استجاب لندائه ، ومنهم من رفض مقابلته أو التحدث إليه ، وخير له ولهم ألا يتناقشوا في هذا الموضوع ، فلا جدوى من ذلك ، بعد أن خدعوا وأصيبوا بخيبة أمل كبيرة .

أما الذين استجابوا ، وذهب إليهم ليتحرى حقيقتهم ، فقد أصيب هو الآخر بخيبة أمل ، إذ لم يكتشف شيئا ذا بال ، ولم يجد دليلا واحدا على إجراء أي عملية ، فلا الحصوات قد أزيلت ، ولا الأورام قد استؤصلت ، ولا الشلل العضوي قد اختفى ، ولاخلايا المخ المتصلبة قد برئت مما ألم بها ، ولا العاهات قد شفيت ، ولا شيء إطلاقا إلا وقوع هؤلاء المرضى ضحايا لدعايات مضللة تطلقها مجموعة من البشر لا تستطيع التمييز بين أساسيات العلوم الطبية ، وبين غيرها من طب خرافي يقوم على السحر والشعوذة والخداع الذي لا يزال ساريا في المجتمعات البدائية .

والواقع أن هذا النوع من العلاج قد نراه بطريقة أو بأخرى في كثير من المجتمعات العربية ، وخير لنا أن نفرد بابا مستقلا ، لنتحدث باختصار عن ذلك .



الفصل الثالث

العلاج بالخرافات في بعض الشعوب العربية

من قبيل المصادفة الغريبة أننا ـ في الوقت الذي كنا نعد فيه هذا الكتاب ـ ذهبنا لزيارة مريض ريفي شاب أثناء وجودنا في قريتنا بصعيد مصر ، ولفت نظرنا وجود ضمادة غريبة مربوطة على ذراعه ، فاستفسرنا عما يمكن أن تكون ، فقيل لنا إنها تعويذة كتبها «سيدنا» لطرد الروح الشريرة ، أو لإبطال أثر «العين الحاسدة» التي أصابت الشاب بالمرض والهزال !

هذا الاعتقاد الغريب ليس إلا عينة واحدة من آلاف العينات التي تتكرر دائما في المجتمعات المحدودة الثقافة أو التعليم ، لا في ريف مصر وحدها ، بل في كثير من الدول العربية ، أو حتى بعض الدول التي كان لها نصيب من التقدم والحضارة . فالاعتقادات الخرافية موجودة ، وإن اختلفت أثوابها التي تلبسها بين بيئة وأخرى .

ففي معظم الدول العربية كان الناس ـ ولا يزالون ـ يلجأون إلى الشيخ أو الولي أو العارف بالله (حيا كان أو ميتا) ، أو «سيدنا» ، لاعتقادهم في كراماته ، واعترافا ببركاته التي تنساب من يديه وهو يتمتم بذكر الله والرسول ، وقد يطلق البخور ، فيشيع حوله جوا من الطمأنينة والهدوء ، وفي تلك الأقوال والأفعال ردود فعل لا تنكر على حالة المريض المعنوية ، وهذا لا ينكره الطب النفسي الحديث . . . فالإنسان نفس وبدن ، وكلاهما ـ بلا شك ـ يؤثر في الآخر ، وقد يشفى المريض ويبرأ ، اعتقادا منه في معجزات

شيخه أو وليه أو قديسه . . . الخ ، وأنت تستطيع أن تربط بين هذا المبدأ في العلاج على يدي الشيخ ، وبين ما يقوم به المعالجون الروحيون الذين أشرنا إليهم سابقا ، أو المعالج المشعوذ الذي يقطن الأحراش والغابات في المناطق التي تسكنها الشعوب البدائية . . . اختلفت الوسائل ، لكن النتيجة واحدة . . . فالثقة والاعتقاد القائم بين المريض وطبيبه ، وبين المريض ووليه ـ أيا كانت هويته ـ من الأسباب الدافعة للشفاء من بعض الاضطرابات النفسية التي قد تنعكس على أمراض وظيفية أو غير عضوية ، مثل الصداع وبعض أمراض الشلل المؤقت ، والطفح الجلدي ، والمغص والقرح وضيق التنفس واختلال الدورة الشهرية ، والاكتئاب وبعض حالات ارتفاع ضغط الدم وما شابه ذلك .

ويقوم الطب الخرافي في أحيان كثيرة على تعاويذ وأحجبة ، ووضع يد الشيخ المداوي على موقع الجزء المريض مع تمتمة ودعوات قد تكون غير واضحة ولا مفهومة ، لكن ذلك لا يجدي شيئا في الأمراض العضوية التي لها أسباب محددة يعرفها الطب في أغلب الأحيان ، فميكروب السل مثلا لا تنفع معه الصلوات ولا الدعوات ولا الأحجبة ، ولا هي أيضا تزيل الحصوات ، ولا تستأصل السرطان ، ولا تفيد في تليف الكبد ، ولا تقدم ولا تؤخر في شلل الأطفال . . . الخ . . .الخ ، ومن هنا وجب على كل ذي عقل رزين أن يتبع حديث الرسول الكريم «عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء ، إلا الهرم» . . . أي فيما عدا الشيخوخة ، فليس لها من دواء ، وهذا ما نعرفه حق المعرفة .

الحديث امتداد للقديم

على أننا لو فضضنا تعويذة «سيدنا» ـ شيخ القرية أو الطريقة ، ومفتيها في دينها ودنياها وأمراضها وحظوظها ـ لوجدنا شيئا من حبوب مطحونة وملح ، وطلاسم نقلها من بعض كتب صفراء لا تزال تطبع ويتداولها عامة الناس ، لاعتقادهم في فوائدها التي لا تحصى ولا تعد .

هذه التعاويذ العصرية لا تختلف كثيرا ـ في المضمون والاعتقاد ـ عن التعويذة التي كان يكتبها القدماء منذ آلاف السنين ، فقد يكتب الشيخ «الطبيب» في التعويذة على سبيل المثال «لا إله إلا الله» ، أذنت الحمى وغارت وغارت ، لا إله إلا الله ، وفي علم الله سارت . . . الخ» ، وقد تجد في الحجاب رموزا وأرقاما ومربعات مثل «أ ح أ ك ك ح ع ح م م خ» . . . فهذا على حد زعمهم يميت العفريت أو الروح الشريرة التي دخلت الجسد ، وأصابته بالرجفة . . . رغم أن الرجفة قد تكون بسبب حمى الملاريا ، أو بفيروس الأنفلونزا ، أو بأي ميكروب آخر ، وهذه لن تميتها صلوات الشيخ ودعواته ، وإذا حدث وشفي المريض ، فإن شفاءه لا يرجع إلى بركات الشيخ ومعجزاته ، بل يرجع ذلك أولا إلى النظام البديع الذي أرساه الخالق في الأجسام على هيئة أجهزة دفاعية على درجة هائلة من الكفاءة والتعقيد . . . أي أن المعجزة تكمن حقا في تكوين أجسامنا ، ولا يعرف خبايا هذه الحقيقة إلا الدارسون المتعمقون .

على أننا لو عدنا إلى تعويذة من أيام الفراعنة ، لوجدنا إحداها مثلا تطلب من الآلهة صراحة التدخل لطرد الأرواح الشريرة ، وتبدأ إحداها هكذا «السلام عليك يا حورس(*) . . . يا أيها الموجود في بلد المئات ، يا حاد القرنين ، يا بالغ الهدف ، إني قصدتك لأمدح جمالك ، ألا فلتقض على الشيطان الذي يتملك جسدي» . . . أو بأن تنتحل التعويذة ذات الإله فتقول «اغربوا يا شياطين المرض . . . لن يصيبني الهواء : إني حورس الذي يمضي في طريقه أمام سخمت . . . أنا ابن بستيت الوحيد . . . ولن أموت بسببك» !

إن معظم المعتقدات الغريبة والدارجة التي نشهدها اليوم في بعض طرق العلاج البدائية يرجع تاريخها إلى الأفكار التي راودت عقل الإنسان

(*) حورس ابن إيزيس وأوزوريس في الأساطير القديمة ، وقد عينوه إلها للتداوي والشفاء ، والحارس على الناس من كل داء .

القديم الذي عاش قبلنا بآلاف السنين . . . ولقد اعتقد أن ما يصيب الإنسان من أضرار وأمراض قد يكون نتيجة لعين حاسدة ، أو أرواح خبيثة ، أو مس من الجن ، أو انتقام من الآلهة بسبب ذنوب وأعمال ظالمة ، أو اختلال في طالع النجوم ، أو عدم توافق في أفلاك البروج ، أو من عمل سحري ضار ، أو أي قوى خفية أخرى كانت لها في خياله مفاهيم شتى . . . والغريب أن هذه الاعتقادات القديمة لا تزال تعشش حتى الآن في عقول كثير من الناس . . . ليس فقط في أوطاننا العربية ، ولكننا لمسناها في الشرق والغرب فيما قدمنا من أبواب سابقة .

ولنشأة المرض وطرق العلاج ارتباط خاص بالبيئة ، ولهذه قصص طويلة ومثيرة ، ونحن لا نستطيع أن نتعرض لها هنا لضيق المجال ، لكن يكفي أن نستنبط مدلولاتها أو الحكمة الكامنة فيها من خلال استقراء أصولها ، من الطقوس التي لا تزال تجري حتى الآن في المجتمعات الدارجة والبدائية ، فهي وإن كانت قد أصابها بعض التحوير والتطوير بالنسبة لما سبقها في الأجيال القديمة ، إلا أنها لا تزال لا تعترف إلا بطب الساحر ، وعلاج المشعوذ ، وحكمة العجائز ، إذ لو اطلعت مثلا على الكيفية التي يعالج بها «الطبيب» المشعوذ مرضاه في الأحراش والغابات ، لوجدته يلبس ثيابا غريبة من جلود حيوانات خاصة ، ويضع على وجهه قناعا مخيفا ، ويعلق أحجبة وتعاويذ وقرونا وريش طيور . . . الخ ، ثم تراه يصرخ ويعوي ، ويأتي أمام المريض بحركات هستيرية ، ويتمتم بكلمات غريبة ، وهو يفعل كل هذا لحكمة يقتنع بها هو وقومه منذ زمن طويل ، وحكمته في ذلك أنه يريد أن يخيف العفريت أو الروح التي «تقمصت» جسد المريض ، فإذا خافت من منظره وصراخه وحركاته وكلماته ، انطلقت خارجة من الجسد الذي سكنته ، فيُبَلّ المريض ، وإذا لم تخرج ، فعليه ـ أي المريض ـ أن يلجأ إلى ساحر آخر أكثر مراسا ، وأشد بأسا ، فإذا فشل هذا أيضا ، فعلى المريض أن يتقبل قضاءه وقدره بنفس راضية ، فتلك مشيئة الآلهة ألا يتداوى ، وهذه النغمة ذاتها قد سمعناها من المعالجة الروحية كاترين كولمان ، أو من

بعض الجراحين الروحيين في الفيليبين ، إذ عندما يفشلون في العلاج ، فإن الفشل لا يرجع إليهم ، بل يرجع إلى الروح القدس لأمر لا يعلمه الإنسان ، وعليه أن يراجع نفسه فيما يكون قد اقترف من ذنوب ، فالذنوب أيضا مرتبطة ـ على حد زعمهم ـ بالأمراض !

إلا أننا لو عدنا إلى مجتمعاتنا التي نعيش فيها ، وحللنا بعض تفسيرات الناس لأمراض خاصة تصيبهم ، لوجدت النغمة ذاتها ، فإذا مرض إنسان بداء عضال ، لقيل إن الله ابتلاه بمرض رهيب عقابا له على ما اقترفت يداه من ذنوب في حق الناس ، وإذا مرض إنسان آخر بالمرض نفسه ، وكان له بينهم مكانة مرموقة ، أو أنه إنسان في نظرهم صالح ، فإنهم يعللون مرضه بنغمة أخرى مناقضة ، فيقولون إن الله يبتلي عباده الصالحين ، ليعلم من منهم الصابر ومن منهم القانط !

وطبيعي أن ذلك منطق العامة ، فكل الناس يمرضون ويموتون ، ولكن الله منحنا العقول لنبحث بحثا علميا جادا عن مسببات الأمراض ، إذ إن لكل مرض سببا ، فإذا عرفنا العلة عن طريق التقصي والتجربة ، فإننا نصل في أغلب الأحيان إلى استنباط العلاج المناسب الذي يتمثل في دواء أو جراحة أو مضاد حيوي ، أو علاج نفسي . . . الخ ، وهذا ما نشهده حقا في علومنا الطبية الحديثة .

الجن والعفاريت وحفلات الزار

ومن الغريب حقا أن كثيرا من المتعلمين والمثقفين (ودعك من العوام) ، لا يزالون يعتقدون حتى الآن في أن بعض الأمراض النفسية والعصبية تنشأ أساسا من مس الجن أو العفريت للإنسان ، أو أنه يتقمص جسده ، وهناك كتب شعبية تتحدث عن عوالم الجن ، وتذهب إلى تقسيمها إلى فئات ، ومن هذه الفئات قد نجد أطباء وكيميائيين من

الجن . . . إلى آخر هذه الأوهام التي لا تقوم على أساس ، فلم يشهد أحد مثلا عوالم الجن ، ولا كيف يعيشون ويتصرفون ويتشكلون . . . الخ ، ومع ذلك تجد الخيال خصيبا في نشر تصورات رديئة قد تضر ولا تنفع .

ومن ذلك مثلا أن بعض المتعلمين والمتعلمات ممن حصلوا على مؤهلات جامعية قد جاءوني يوما ، وأسروا إليّ أن المدعو «الشيخ» طلعت يستطيع أن يشفي بعض الأمراض عن طريق نفر من الجن (ولهذا الشيخ صولات وجولات) ، وأن ذلك الجن يأتمر بأمر الشيخ ، ويحضر أدوية من تحضير الجن ، ولقد كانوا في حديثهم هذا جادين كل الجدية ، ولما أظهرت لهم استيائي من مثل هذه الخزعبلات ، قام أحدهم بالفعل وأحضر بعض كبسولات زعم أن الجن قد ألقاها من الهواء لتستقر في راحة شيخهم المزعوم ، ولما استأذنت في فحص إحدى محتويات تلك الكبسولات ، وفتحت واحدة ، وجدت بها مسحوقا ناعما ارتبت أن يكون دقيقا لبعض الحبوب ، وبالكشف عليه بقطرة من محلول اليود ، تحول لونه إلى أزرق غامق ، وبهذا الكشف الكيميائي المعروف ، عرفت أن محتويات الكبسولة ليست إلا مادة نشوية ، وهذه التجربة يعرفها حق المعرفة تلاميذ المدارس الثانوية ، ودعك إذن من طلبة الجامعات . . . أضف إلى ذلك أن تلك الكبسولات كانت من صناعة شركة «سيد» الكيميائية الدوائية بالقاهرة ، والتي تستخدمها في تعبئة المضادات الحيوية ، ولما استقصينا الأمر أكثر ، توصلنا إلى أن هذا الشيخ له قريب يعمل في ذات الشركة ، ومن المحتمل جدا أن يكون صاحبنا قد أحضر له كمية من الكبسولات الفارغة ، ليعبئها الشيخ بمعرفته دقيقا أو ما شابه ذلك .

وارتاب القوم فيما توصلت إليه وشككوا فيه ، وأكدوا أن جن الشيخ طلعت يفعل المعجزات ، وأن كل ما يطلبه منه يجاب ، ولكي لا يداخلنا الشك في معتقداتهم ، حددوا لي مقابلة مع شيخهم ، وتمت المقابلة بحضور ستة منهم ، وبدأنا مناقشة طويلة لكي استدرج شيخهم إلى الفخ ، وطبيعي أنه أخذ يؤكد أن له على الجن سلطانا عظيما بأمر الله ، وأن الله

قد سخرهم لخدمتنا . . . و . . . و . . . ومزاعم باطلة أراد أن يخيفني بها ، وهنا تدخلنا وقلنا : إذا كان ذلك صحيحا ، فإنني أطلب خدمة تنفعني في ديني ودنياي ، ولا أظن أن الجن سيخيب أملي ، ما داموا مسخرين لخدمتنا ، وما دمت أنت (والحديث موجه إلى الشيخ) قادرا على توجيههم ، فإنني أرجو وألح في الرجاء أن ترجو جنك المزعوم في إحضار مادة كيميائية (أسميتها له) ، موضوعة في زجاجة صغيرة على مكتبي في معملي بجامعة الإسكندرية ، لأننا نحتاج إلى هذه المادة الوحيدة في إجراء تجربة علمية في أحد المعامل ، وبهذه التجربة قد نخدم البشرية (وكان هذا الاجتماع بالشيخ قد تم في القاهرة) ، وبدلا من تجشمي السفر لإحضارها ، فما أيسر على جنك أن ييسر على الناس الأمور في العلاج والبحوث . . . فماذا أنت قائل ؟

عندئذ صمت الشيخ ما يقرب من دقيقة ، وراح فيما يشبه الغيبوبة ، وظن الحاضرون أنه على اتصال بجنه لا محالة ، وأنه سيفحمني بمعجزاته الخارقة ، وبعدها قال بنبرة فيها ثقة واعتداد : إن الجن لا تقبل التحدي ، ولهذا ترفض إحضار الزجاجة !

قلت بنبرة ثقة واعتداد أيضا : أنت ذكي ، وما عداك مخدوع غبي !

وما حدث لا يخفى مغزاه على لبيب ، فمثل هؤلاء المشعوذين والدجالين لا سلطان لهم ولا لجنهم إلا في الأوساط التي يمكن خداعها بقليل من الذكاء ، فهم يوحون إليهم من خلال حركات وطقوس ودعوات خاصة بأن الجن يعمل معهم الآن ، ويحضر أشياء لا تكون في الحسبان ، ويقينا أن هذه الأشياء يحتفظ بها «الشيخ» المشعوذ معه ، وهو يستطيع أن يظهرها في الوقت المناسب بطريقة لا تختلف كثيرا عن طرق الحواة ، ويدعي بها علاج مرضاه ، حيث يعجز نفر من أطباء الإنس عن علاجهم ، فإذا أحسوا بأن هناك من يراقبهم بحذر ، أو يضع بعض الشروط المتواضعة لإعادة ما ادعاه ، تنصلوا من ذلك بشتى الحيل ، ولقد رأينا ذلك كثيرا فيما

قدمنا من أبواب مع المعالجين والجراحين الروحانيين ، فكل هؤلاء ـ دون استثناء ـ على درجة من الذكاء ، وإلا لما تكسبوا خبزهم وإدامهم ، وأثروا على حساب السذج والبسطاء ، حتى لو كانوا حاصلين على مؤهلات علمية كبيرة . . . فالشيخ المزعوم الذي تحدثنا عنه استطاع أن يحصل من كل واحد وواحدة من المجموعة ـ التي تثق في معجزاته ـ على مئات الجنيهات ، وبعضها جنيهات ذهبية ، لأن الجن ـ على حد زعمه ـ تهوى الذهب ، ولا تعمل أو تستجيب إلا في وجود هذا المعدن النفيس !

ومع ذلك ، فقد طلبنا من الشيخ أن يقوم بتحضير جنه ، علنا نحظى برؤية قدراته المعجزة ، لكنه لم يستجب حتى لا أكشف خداعه ، وزعم أنه غير مهيأ تلك الليلة لذلك ، لكنه سيريني الدليل الذي يفحمني ، فادعى أنه سيرسل إلي نفرا من جنه في منزلي بالإسكندرية ليحدث بعض التخريب البسيط جزاء لي على تحدياتي ، وطلب عنواني كاملا ، فأعطيته إياه راجيا أن أرى الدليل ، وخاف علي الصحاب من الضرر (لقد كان المشعوذ يرعبهم ويسيطر عليهم بجنه المزعوم) ، لكنني لم أعبأ بذلك ، وزادت تحدياتي ، وآلمت الشيخ ببعض كلماتي ، حتى أدفعه لذلك . . . ومرت الأيام والسنوات ، ولم يحضر جنه المزعوم حتى كتابة هذه السطور !

نعود لنقول : إن مثل هذه الخرافات لا تجوز حقا إلا على أصحاب العقول الضعيفة ، ولقد قدمنا هذه الواقعة كمثل واحد هنا ، وما أكثر ما خضناه في هذا المجال ، دون أن نتوصل إلى إثبات شيء له معنى في مجال هذه المزاعم الباطلة ، والواقع أن الحديث في مثل هذه الأمور قد يتشعب ويطول ، وعلينا أن نغلق الباب هنا ، لكن قد يطرأ على الأذهان تساؤل : إن الجن وقدراته قد وردت في القرآن الكريم ، فلماذا إذن لا نعتقد في تلك القدرات الآن ؟

باختصار شديد نقول : إن جن القرآن غير جن الإنسان ، ونعني بذلك أن الجن الذي يزعمون تحضيره وتسخيره ، وإحضار الشيء من لا شيء ،

كل هذا إنما هو شعوذة حقيقية ترتكب باسم الدين ، والدين منها بريء . . . فهو دين العقل والحكمة والموعظة الحسنة ، لا دين هؤلاء المشعوذين الذين يضحكون به على عباد الله الطيبين !

الزار . . . جن له طقوس !

والحق أن فكرة ارتباط المرض بالأرواح أو الجن ، تتمثل لنا في تلك الطقوس الغريبة التي لا تزال تنتشر في كثير من الدول العربية وتعرف باسم «الزار» . وقد انتقلت هذه الظاهرة ـ على حد تعريف دائرة المعارف الإسلامية ـ على ما يبدو من أواسط أفريقيا إلى الحبشة ، وهي كلمة مستعارة من الأمهرية ، وقد انتقلت في جن الزار من الحبشة ـ بعد ذلك ـ إلى العالم الإسلامي ، ومثل هذه الاعتقادات في الجن الذي يتسلل أحيانا في بعض الأجسام البشرية معروفة في البلاد الإسلامية في آسيا وأفريقيا ، حيث يطلق على الزار أسماء تختلف باختلاف لهجات البلاد ، فالزار مثلا يعرف باسم «بوري» في نيجيريا وطرابلس ، و «أموك» في الملايو ، والزار في مصر والحبشة والحجاز وعمان . . . الخ ، والاسم «زار» في بلاد الحبشة نفسها لا يرجع إلى أصل سامي ، والراجح أن الكلمة مشتقة من اسم الإله الأعظم عند الكوشيين الوثنيين ، ولقد غدا الإله الوثني القديم في الحبشة عفريتا حقودا (هكذا !!) . . . وانتقلت على هذا النحو الشعائر الخاصة بالأرواح الشريرة المزعومة ، هذا ويعتقد المسلمون والمسيحيون في الحبشة أن الزار يعيش بصفة خاصة في الجداول والأنهار ، وهو كائن شرير ـ كما يظنون ، ومن الممكن طرده من الأجسام التي حل بها باستخدام التمائم والشعائر والطقوس الشائعة عند أتباع هذين الدينين . . . الخ .

وطبيعي أننا لن نتعرض هنا للطقوس الكثيرة والمتنوعة التي تستخدم لطرد هذا العفريت المزعوم ، لكن الذي يهمنا في هذا المجال هو ربط بعض الأمراض بخرافة تسلل الأرواح إلى الأبدان . . . خاصة أبدان النساء ، ولهذا

تقام الحفلات ، ويطلق البخور ، وتدق الدفوف ، وتهتز الأجسام ، وتنطلق التمائم ، وينادى على الجن أو العفريت ، ويطلب منه صراحة أن يترك جسم المريضة لقاء هدايا خاصة تذهب ـ بطبيعة الحال ـ إلى جيب الكودية (الوسيطة) وأعوانها !

وقد لا يخرج الجن أو العفريت من أول مرة ـ على حد زعم الكودية ـ ولهذا قد يتكرر هذا «العلاج» الخرافي مرات عديدة ، إلى أن يتم الشفاء ، وتحصل الكودية على نصيب الأسد من تلك الحفلات !

والواقع أن هذه الحفلات الغريبة كانت تقام كثيرا في السنوات الماضية ،لكنها في طريقها الآن إلى الزوال ، خاصة بعد أن حصلت المرأة على حقوقها كفرد عامل وفعال في مجتمعاتنا الحديثة ، إذ إن الدافع لإقامة الزار أساسا كان يرجع إلى عوامل نفسية كالاكتئاب والعصبية وبعض اضطرابات عاطفية وأمراض عقلية ليست خطيرة ، وذلك يرجع إلى كبتها في البيت وعدم المشاركة في الأنشطة الاجتماعية التي قد تنفس عنها بعض معاناتها ، ومن هنا لجأت النساء إلى الادعاء بأمراض قد تكون وهمية ، وقد تكون حقيقية ، علها تحظى بنشاط فيه من الحركات والظواهر الغريبة ما يفرج كربها ، ويفرغ شحناتها المكبوتة ، وهي التي أفرغتها بمشاركتها في الأنشطة الحالية أو العصرية .

لكن ذلك الجن أو الزار يرجع في الواقع إلى اعتقاد خرافي خاطئ ، وقد تُبَلُّ بعض النساء من أمراضها النفسية أو العقلية أو العاطفية ، لاعتقادهن في جدوى الزار ، لكن الزار لا يمكن أن يشفي من الأمراض العضوية التي أشرنا إليها قبل ذلك مرارا .

ولقد كانت هذه الطريقة ذاتها تمارس قديما ولكن بوسيلة أخرى . . . صحيح أنها كانت تعتمد على العامل النفسي ، لكنها لا تخرج في مضمونها عن فكرة الزار . . . فترى مثلا الكهنة القدامى في الحضارات المصرية القديمة والآشورية والبابلية وغيرها ، يقومون ببعض الطقوس

للمرضى ، فتراهم يرددون أمام المريض بعض العزائم قبل مباشرة العلاج ، ومن أمثلة ذلك ما ورد في بردية إيبر Eber : «لقد أتيت من مدينة الشمس ، ومعي شيوخ المعبد المالكون للشفاء ، والواهبون للأبدية . . . أتيت من سايص (صا الحجر ـ البلد المعروفة الآن في مصر) في ركاب الأم المنجبة للآلهة الذين منحوني حماهم . . . أتيت وفي جعبتي وصفات من الإله الأكبر تشفي من كل داء عضال أرادته الآلهة ، وتقي من كل سوء سببته أرواح الموتى» ! . . . وطبيعي أن المريض عندما يسمع ترانيم هذه التعويذة التي يعتقد في فائدتها كل الاعتقاد ، فإنها تسري في نفسه كما تسري آيات القرآن الكريم مثلا في نفس المسلم ، أو كما تسري آيات الإنجيل في نفس المسيحي عندما يرددها المعالجون الروحيون أثناء إجراء جراحاتهم الروحية ، فتساعده نفسيا في التغلب على معاناته من أمراض قد تكون محسوسة .

الطب الشعبي وعلاقته بالتصورات القديمة

وهناك من يستخدمون العسل والبصل حتى الآن في التداوي ، لكن جذور ذلك قديمة ، فلقد نشأت تلك الفكرة أيضا من ارتباط بعض الأمراض بجني أو عفريت أو روح شريرة ، وفي ذلك تقول إحدى البرديات المصرية القديمة مخاطبة الروح التي لبست الجسد فأصابته بالمرض ، تقول : «إني أحضرت لك دواء من العسل ، وهذا ما يأتيك بالشر ، ومن البصل وهذا ما يأتيك بالضر . . . عسل حلو المذاق للأحياء ، ولكنه مر للأموات» !

وجدير بالذكر هنا أيضا أن هناك خرافة بابلية قديمة كانت تعزو مرض العيون أو التهابها إلى عفريت أو جني ، فإذا عدنا مثلا إلى كهنة ما بين النهرين (العراق الآن) لوجدناهم يذكرون أن الرياح التي تهب عليهم موسميا من الجنوب الغربي ، محملة بالأتربة والغبار (رياح خماسينية من الجزيرة العربية) ترجع إلى جني أو شيطان يتقمص تلك الرياح الشريرة التي

تؤذي العيون ، ولقد صوروه على هيئة نسر يحمل رأس كلب ومخالب أسد ، ولكي يسيطروا على ذلك الشيطان ويبعدوا شروره عن دورهم ، كانوا يجيئون بتماثيل منفرة ، ويضعونها أمام منازلهم ، وعندما يراها فإنه يتحاشاها ، ولا يتسلل إلى دورهم ـ على حد ظنهم !

والغريب أن العين إذا التهبت ، كان الطبيب الساحر الكاهن في العراق يصف لها بصلة مشقوقة ، ثم يخلطها بالجعة ، ويشربها صاحب العين الملتهبة ، وأحيانا ما كانت العين تشفى بهذه الوسيلة ، وكانت فلسفتهم في ذلك أن التهاب العيون يرجع إلى تلك الروح الشريرة التي تنفر من رائحة البصل بالجعة ، فتخرج من الدموع التي تنهمر من العين بغزارة . . . والثابت علميا الآن أن الدموع تحتوي على أنزيمات خاصة تفرز بتركيزات ضئيلة (تسمى خميرة ليزوزيم) ، فتؤدي إلى إذابة بعض جدر البكتيريا وتدمرها ، ومن هنا قد تختفي الالتهابات . . . لكن هذا التعليل الحديث لم يكن يدور بخلدهم وقتذاك ، فلقد كان العالم القديم يعيد كل شيء لا يستطيع إدراكه إلى قوى خفية وأرواح وأشباح وجن وغيلان . . . الخ .

ولقد مارست المجتمعات العربية المختلفة الطب في الماضي بطرق غريبة ، ولم تزل هذه الطرق سارية حتى اليوم . . . ففي المغرب العربي مثلا كانوا إذا أصاب الصداع أحدهم ، عمد إلى حمل أو ماعز ، وأوجعه ضربا حتى يقع الحيوان على الأرض طريحا ، وهو يقوم بهذا العمل ظنا منه أن الصداع كائن شرير لبس دماغه ، وأنه من الممكن ترحيله إلى ماعز أو خروف !

وثمة طريقة أخرى يقوم بها بعض المغاربة الموسرين ، إذ يضعون خنزيرا بريا في الحظائر مع خيولهم ، ظنا منهم أن الشيطان أو الروح الشريرة (أو ببساطة الشر) قد تدخل إلى الحظيرة ، ويمكن اقتناصها عن طريق الخنزير!

ولقد دفع الاعتقاد في الأرواح الشريرة الناس ـ خاصة الأطباء الكهنة ـ إلى تجهيز عقاقير كثيرة من مواد تعافها النفس البشرية ، وتعافها أيضا الأرواح الشريرة ـ كما يزعمون ـ وعندما يتناول الإنسان المريض تلك الأدوية الغريبة ، ذات الرائحة الكريهة ، أو الطعم الذي يصيب النفس بالقرف والغثيان ، فإن الروح الشريرة تقرف بدورها ، وتخرج من الجسم المريض مضطرة ، فيبرأ الإنسان من مرضه ، وأغلب الأحيان أن المريض كان يختصر الطريق إلى الدار الآخرة !

من ذلك مثلا أن كهنة بابل كانوا يصفون لالتهاب العين ـ بجوار البصلة المشقوقة والمنقوعة في الجعة ـ وصفة غريبة تقول «عليك أن تنزع أحشاء ضفدعة صفراء ، وتخلط مرارتها بلبن مجبن وتضعها على العين» ! . . . ومن وصفات كهنة قدماء المصريين أن تأتي بمرارة سلحفاة ، وأثناء صحنها بالعسل لصنع مرهم يوضع على الجفن لعلاج سحابة العين ، تتلى تعويذة تقول «هناك ضوضاء في سماء الجنوب منذ غروب الليل ، وزوابع في شمال الشمال . . . وقع كوم من الرؤوس المقطوعة في الماء . . . من يستردها ؟ . . . لقد استرددتها ، وقد أعدتها إلى أمكنتها . . . لقد ربطت فقرات رقابكم ، لتبعدوا أذى الإله أو الميت» !

هذا ويذكر الدميري وصفات كثيرة لعلاج الأمراض ، متخذا من لحوم الحيوان وإفرازاته المختلفة عناصر لتركيب الدواء ، فذكر مثلا أن الاكتحال بمرارة الأسد يحد من النظر ، وإذا أخذت خصيته وملحت ببورق أحمر ومصطكى وجففت وسحقت وخلطت بسويق وشربت ، نفعت في جميع الأوجاع التي في الجوف مثل المغص والقولنج والبواسير ووجع الأرحام . . . الخ ، وقال عن الفيل : من سقي من وسخ أذن الفيل ينام سبعة أيام ، ومراراته يطلى بها البرص ويترك ثلاثة أيام فيذهب ، وعظمه يعلق على رقاب الصبيان فيدفع عنهم الصرع . . . الخ . . . الخ .

على أن هذه الوصفات الغريبة والحديثة نسبيا ليست جديدة تماما ، ويبدو أنها تسير على نفس الفكرة التي سار عليها القدماء ، كما أن

بعضها لا يزال ساريا حتى اليوم ، فلبن الحمير مثلا لا يزال يستعمل للسعال الديكي ، وهي وصفة فرعونية قديمة ، كما أن الفراعنة كانوا يستعملون عقاقير مستحضرة من بعض المواد العضوية التي يفرزها الجسم مثل البول واللعاب والصفراء . . . الخ ، كما كانوا يجهزون مساحيق مستحضرة من الديدان وبعض أنواع الحشرات والثعابين والحيوانات الأليفة ، ولا يزال البعض يعتقد حتى الآن في أن دهن الثعبان أو الأفعى يشفي من أمراض الروماتيزم .

هذا ويذكر الدكتور التجاني الماحي (من السودان) في كتابه «تاريخ الطب عند العرب» ـ «أن بعض هذه الوصفات ما زالت تستخدم حتى الآن في السودان كطريق للعلاج ، وهي تستعمل أيضا في مصر وبعض بلاد المغرب العربي بطريقة فجة قد تمرض ولا تشفي ، فاعتقاد الناس مثلا بأن شيخ الطريقة إنسان «مبارك وميمون» بكل ما فيه ، عندئذ قد لا يجدون غضاضة في أن يتباروا في تناول الماء أو الطعام من إناء بصق فيه شيخهم ، وذلك بحجة أن هذا قد يزيل الأوجاع إذا سرى «ريق سيدهم» في دمائهم ، وأحيانا ما يبصق الشيخ في فم أحد الأتباع الجدد ليكون مباركا !» . . . إلى آخر هذه الأوهام التي ليس لها أساس .

والواقع أن موضوع الطب الشعبي وما فيه من خرافات كثيرة موضوع متفرع وطويل ، وهو لا يخلو أيضا من طرافة وإثارة ، لكن يكفينا ما قدمنا من مقتطفات قليلة ، ليتبين لنا أن هناك توافقا في الأفكار بين بعض القديم من الخرافات وبعض الحديث منها . . . فلا يزال بعض المعالجين الروحيين شرقا وغربا يعتقدون في أن المرض قد يكون طبيعيا أو غير طبيعي ، وغير الطبيعي يعني في عرفهم مرضا بالأرواح الشريرة ، أو أن الأنسجة المزالة بالجراحات الروحية المزعومة أنسجة شريرة ، ولهذا يحرقونها خوفا من لعناتها (الواقع أن ذلك يحدث حتى لا تكتشف ألاعيبهم) . والغريب أن كثيرا من الناس يصدقون ذلك !

ولا شك في أن ارتباط القديم بالحديث يتمثل لنا الآن في نوع من العلاج الذي اكتسب شهرة واسعة ، والمعروف بالعلاج بالإبر الصينية . . . والواقع أن هذا النوع من العلاج ، كان مرتبطا أيضا في نشأته بخرافات قديمة . . . فما هي هذه الخرافات ، وكيف نشأت ؟

العلاج بالإبر الصينية : حقيقة أم خرافة؟

الواقع أن الذي دعانا إلى اختيار هذا الموضوع ضمن كتابنا أن أخبار اليوم القاهرية ، قد ذكرت في عددها الصادر في ١٩٧٨/٦/٢٤ أن «وحدة العلاج بالوخز بالإبر الصينية التي يعمل بها أطباء صينيون منذ عام ، تقرر مد العمل بها سنة أخرى ، بعد أن ثبت جدواها في معالجة عدد من الأمراض مثل الصداع النصفي والربو الشعبي ، وعرق النسا وآلام المفاصل والظهر ، ونتيجة لازدياد المترددين عليها ، وبعد مضي العام الجديد ، سيقوم بالعمل بها الأطباء العرب والكويتيون الذين أمضوا بالصين مدة تدربوا فيها على ممارسة هذا النوع من الطب» !

هذا الخبر صادر لمراسل الأخبار من الكويت ، ووحدة العلاج المذكورة موجودة في الكويت !

لكن ما تكتبه الصحافة شيء ، وما يقوله العلم شيء آخر ، فحقيقة الأمر أن الإبر الصينية لا تستخدم في العلاج كما جاء ، ولكنها وسيلة من وسائل التغلب على الألم الذي يصاحب المرض . . . أي أنها تخدير مؤقت ، لا علاج ناجع ، ومن هنا وجب التنويه والتحذير من هذا الخطأ الشائع ، حتى لا يجري المرضى وراء سراب خادع .

لكن هل الإبر الصينية خرافة؟

الواقع أنها نشأت من اعتقاد خرافي قديم ، وفي هذا الاعتقاد يفترض الصينيون القدامى أن الإنسان ليس إلا صورة مصغرة للكون الكبير ، ولهذا يتأثر

الجسد بالظواهر الكونية التي تسري على الأجرام السماوية ، ويعتقد حكماء الصين أن الكون يسير على هدي قوتين هما : يين Yin و يانج Yang .

و «يين» في هذا الاعتقاد الأسطوري تمثل العنصر الأنثوي ، وتتميز بصفات سالبة ، في حين أن «يانج» يمثل العنصر الذكري ، وذو صفات موجبة ، وهاتان القوتان الكونيتان تمتزجان بطريقة أو بأخرى في كل من الذكر والأنثى ، ويسريان خلال ١٢ قناة أو برجا ، ومن كل قناة يتفرع ٣٠ فرعا ، ولهذا تصور الصينيون القدماء وجود ٣٦٠ فرعا أو نقطة في كل أجزاء الجسم البشري ، وكل نقطة منها صالحة لغرس الإبر ، فإذا غرست ، فإنها تساعد ـ على حد زعمهم ـ على إعادة التوازن بين اليين واليانج ، أي بين القوة السالبة والموجبة ، وهم يعتقدون أيضا أن كل الأمراض التي تحل بالجسم ترجع إلى اختلال الموازين بين اليين واليانج ، ثم إنه لا يهم أن توضع الإبر في الموقع الذي حل به المرض ، لأن كل القنوات أو الفروع تؤدي إلى بعضها البعض ، ومن شأن هذه الإبر أن تصلح الخلل !

لكن هذه الفكرة قد نشأت أيضا عند قدماء المصريين وعرب الجاهلية ، والآشوريين والفينيقيين والبابليين ومن جاء بعدهم من الرومان واليونانيين القدامى ، إلا أنها ـ أي الفكرة ـ قد اتخذت فلسفة أخرى لا تقوم على غرس الإبر ، بل قامت على ربط حظ الإنسان في الصحة والمرض والحياة ببروج السماء الاثني عشر . والحق أن هذه الفكرة الأسطورية ما زالت سارية بيننا حتى الآن فيما نسميه بطالع البروج الذي ولد فيه الإنسان ، وهذا ما نراه في أي صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية تتنبأ لنا بحظنا في اليوم أو الأسبوع ، مثل حظ مواليد أبراج العقرب والدلو والسرطان . . . الخ . وطبيعي أن هذا التنبؤ يدخل علميا في بند الخرافات والخزعبلات . . . حتى الحديث النبوي الشريف ينفي ذلك «كذب المنجمون ولو صادفوا» . . . أي من المصادفة لا الصدق ، فهم يصدفون في نبوءاتهم ولا يصدقون !

المهم أن دائرة البروج التي نعرفها اليوم ، كانت تمثل - في عرف الأجداد - طرازا أوليا للجسم الإنساني . . . فكل عضو من أعضاء هذا الجسم له ما يقابله من أقسام البروج ، ولقد قسموا الجسد إلى ٣٦ عضوا ، وهذا يمثل عدد «الديكانات» أو العشرات الست والثلاثين (والديكانة تعني عشرة أيام) ، كما أن السنة كانت في عرفهم ٣٦ ديكانة ، أي ٣٦٠ يوما . . . وهذا يعني أنهم ربطوا حساب الفلك بالجسم البشري ، يضاف إلى ذلك أن لكل ديكانة أو عضو من أعضاء الجسم إلها خاصا ذا قوة متحكمة أو مؤثرة فيه ، ثم تطور الأمر إلى التنجيم الذي تقاس به أنشطة الإنسان وصحته وسعادته ومرضه . . . الخ .

وربما كانت تلك الأفكار أيضا قد راودت المتصوف محيي الدين بن عربي ، فعبر عن ذلك شعرا أعمق معنى ، وأعم فكرا :

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وأيا كانت الأمور ، فإن فكرة الإبر الصينية قد نشأت عن قصة قديمة تذكر أن جنديا صينيا كان يعيش هناك منذ ثلاثة آلاف عام ، ثم أصيب بسهم استقر في جسده ، فلاحظ أن دخول السهم في منطقة ، قد أحدث ما يشبه التخدير أو فقدان الحس في منطقة أخرى !

وبعد سنين طويلة يجيء أحد الحكماء ، ويستمع إلى هذه القصة الغريبة ، ويحاول أن يأخذها مأخذ التجربة ، فيجربها بالإبر لا بالسهام ، ويقال إن الفكرة اشتغلت ، ثم تطورت وأصبحت وسيلة من وسائل «العلاج» التي انتقلت عبر أجيال طويلة ، حتى وصلت إلينا بتلك الصورة التي أثارت جدلا كبيرا بين العلماء ، خاصة أن نظرة القدماء إلى الجسم البشري تختلف جذريا عن نظرتنا الحديثة له ، فهم ينظرون إليه نظرة أسطورية ، وأنه يتكون من عنصرين : سالب وموجب ، وأن الأمراض تنشأ من اختلال التوازن بين السالب والموجب . . . إلى آخر هذه الأمور التي لم يستطع أحد أن يدلل على صحتها ، ولا أطباء الصين أنفسهم . . . كما أن

تلك الإبر تغرس في مواضع قد لا يكون لها شأن بالشبكة العصبية الناقلة للآلام ، ومع ذلك فهي تشتغل بطريقة «سحرية» ، لكن ليس مع كل الناس ، فلقد قام بعض العلماء الأمريكيين من جامعة أوهايو بغرس الإبر في المواقع التي حددتها الطريقة الصينية ، ومن خلال الإبر انطلق تيار كهربي ضعيف ليؤثر في بعض الخلايا العصبية ، ويشوش على نبضات الألم قبل أن تصب في المخ ، وأظهرت التجارب التي أجريت على عدد كبير من الناس أن النتائج ليست حاسمة ، إذ قرر حوالي نصف الذين أجريت عليهم عمليات غرس الإبر أن آلامهم قد بقيت دون تحسن يذكر ، في حين ذكر النصف الآخر أنهم أحسوا ببعض الراحة ، وهنا لا يستطيع أحد أن يصل إلى القول الفصل في ذلك .

ما نريد أن نصل إليه أن ما يتردد بين الناس عن معجزات الإبر الصينية وسحرها ، ثم قولهم بعجز العلماء عن فهم هذا اللغز وتقييمه ، ليس له ما يبرره . . . فحقيقة هذه الإبر أنها لا تستخدم على الإطلاق كطريقة من طرق العلاج ، بل هي تنفع في تخفيف بعض الآلام عند بعض الناس ، وقد يتأتى ذلك من الاعتقاد في جدواها ، أو بالإيحاء وما شابه ذلك .

خذ لذلك مثلا . . . هناك حالات من الألم الوهمي ، وفيه يطلب المريض دواء معينا يعتقد أنه الوحيد الذي يريحه من آلامه ، وعندما يحقن المريض بالدواء ، يؤكد أن آلامه قد اختفت ، لكنه في الحقيقة لم يأخذ إلا دواء وهميا ، لأن ما أخذه كان حقنة بها محلول معقم من سكر أو ملح لا يضر ولا ينفع . وهذا ينبئك بطبيعة النفس البشرية ، وما تجبل عليه أحيانا من أوهام خادعة !

إن العلم دائما يحترم نفسه ، كما أن العلماء لا يقفزون إلى الاستنتاجات قفزا ، ومن هنا ظهرت أصالة ما يقدمونه للبشرية من خدمات . . . فهم يتعاملون كثيرا مع ما خلق الله ، أو هم يرون إعجازه ودقته في نظم الكون والحياة ، فيدرسون مثلا أسباب الألم ، والميكانيكية البيولوجية الكامنة وراء

الألم ، ويقيسون نبضاته ، ويحددون مواقعه ، ومن هنا يستطيعون التغلب عليه بوسائل شتى مؤسسة على البحوث والنتائج التي حصلوا عليها . . . فهناك مثلا عمليات جراحية دقيقة تزيل مسببات الألم ، ومنها قطع العصب الناقل لإشارات الألم بين الجزء المصاب ، وبين مركز الألم في المخ ، (والحق أن الكي عند العرب قديم ، وهو لا يخرج في مجمله عن قطع العصب الناقل للألم) ، وهناك مئات الأدوية المسكنة والمخدرة التي تتداخل مع بيولوجية الجهاز العصبي ، وتغير أو تحور في معنى نبضات الألم ، وهناك الأجهزة الإليكترونية الحديثة التي تشوش على الحزم أو «الكابلات» العصبية الحية الناقلة للألم قبل صبه في المخ . وهناك مؤثرات كثيرة تشتغل على مراكز محددة في المخ ذاته . . . هذه المؤثرات قد تكون كهربية أو كيميائية أو عن طريق الإيحاء والتنويم . . . الخ .

وكل هذه الأمور مقننة ومعروفة وتعطي نفس النتائج مع نفس الناس ، لكن الأمر ليس كذلك مع تلك الإبر ، فأثرها يختلف بين الناس !

ثم لماذا يجري الناس وراء شيء مشكوك في أمره حتى الآن ، وأمامهم وسائل العلم الحديث للقضاء على الآلام ؟

إن الخطأ الكبير الذي تقع فيه أجهزة الإعلام عندما تتحدث عن الإبر الصينية على أنها وسيلة للعلاج من بعض الأمراض هو تضليل حقيقي ، ومن هنا وجب التصحيح والترشيد . . . فالإبر ليست إلا طريقة للتغلب على بعض الآلام عند بعض الناس ، وهي قطعا ليست للعلاج . . . كما أن نسبة استخدامها للتخدير في الصين نفسها لا يزيد على ٥٪ ، إذ يلجأ الأطباء هناك إلى الاستعانة بالوسائل الغربية المعروفة .

ثم إن هذه الإبر قد دخلت أيضا عصر الخرافات الحديثة ، فعن طريقها يزعمون أن طاقة المعالجين الروحيين تنساب من خلالها ، ليحدث الشفاء ، وهذا وهم سبق أن أوضحناه ، وسوف يتضح أكثر عندما نتعرض للتصوير الروحي لهذه الطاقات .

***

ترشيد واجب

بقيت لنا كلمة أخيرة في نهاية موضوعنا حول بعض الخرافات الطبية التي التصقت بأذهان الناس ، وكان لأجهزة الإعلام النصيب الأكبر في نشرها والدعاية المضللة التي صاحبتها . . . فكل ما كتب في هذا الموضوع من أوهام لم يكتبه عالم أو طبيب فاحص مدقق ، درس طبيعة الجسم البشري ، وعرف الكثير من أسراره وخباياه ، إنما يجيء ذلك عن طريق مشاهدة يلعب فيها التمويه والخداع النصيب الأكبر ، ويجوز ذلك على كل من لا يعرف من أساسيات العلم والطب شيئا يذكر ، ثم يكتب ويتفلسف فيما لا يعرف !

والمعالجون الروحيون في كل أنحاء الدنيا ـ بما في ذلك اللمسات والبركات التي تنساب من بعض شيوخ الطرق الصوفية ، أو كل من له مكانة دينية خاصة بين الناس ـ يدعون أن القدرة على العلاج تأتيهم من مصادر شتى ، يعطونها تعريفات تختلف باختلاف بيئاتهم وعقائدهم ، والأطباء يعالجون أيضا كثيرا من الناس ، ولكنهم لا يقحمون هذه القوى الخفية في مجالاتهم الطبية ، وإلا كان أمرهم كأمر المشعوذين . . . ذلك أن الطبيب أو الجراح يظل طوال عمره يدرس أسرار الجسم البشري . . . جزيئاته وخلاياه وأنسجته وأعضاءه ، ويبحث جادا عن أسباب الخلل النفسي أو العضوي أو الوظيفي أو البيوكيميائي أو الوراثي . . . الخ ، التي حلت بالجسد ، فيجري جراحة لها أصول ، ويصف دواء قام على أساس من بحث وتجربة وإدراك ، ويعطي مضادا حيويا يناسب الميكروب الذي غزا الجسم ، وهو في كل هذا لا يدعي أنه أتى بمعجزة ، ولا قام بأمر خارق ، ولا تدخلت قوى خفية ، ولا هي انسابت من بين أصابعه ، بل إن المعجزات والقوى الخفية تكمن في الخلق المبدع ، والنظام المتقن الذي وضعه الخالق في خلقه من قديم الأزل ، ليسري كل شيء إلى قدره المعلوم . . . ولهذا فإن العالمين ببواطن الأمور يدركون تماما أن المعجزة الحقيقية في داخلنا نحن . . . ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم

حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ . . . ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ . . . قدرها وهداها جزيئات متفاعلة ، وخلايا مترابطة ، وأنسجة متآلفة ، وأعضاء متكاملة ليخدم بعضها بعضا ، وفوق كل هذا تمتلك الوسيلة أو الوسائل التي تصلح بها ما عطب ، وترمم ما تهتك !

على أننا لو أردنا أن نوفي هذا النظام البديع حقه ، لاحتاج ذلك إلى مجلدات ومجلدات ، لكن يكفي أن نشير فقط إلى بعض العموميات ، ففيها فصل الخطاب .

فلو أن طبيبا قد تقبل حالة أصيبت بجرح غائر ، وقام بما تمليه عليه مهنته ، والتأم الجرح في سلام ، فإنه لا يدعي لنفسه الفضل في ذلك ، بل إن الجسم حقيقة هو الذي قام بالعملية من أولها إلى آخرها ، وكل عمل الطبيب هنا أن يساعد فقط على عدم تلوث الجرح بالميكروبات ، ويحد من نزيف الدم بوسائل شتى . . . الخ ، أما التئام الجرح ذاته ، فقد كان من ورائه جيوش من خمائر وبروتينات وكرات دماء وتفاعلات واستعدادات ضخمة ، لتبني «سدا» جديدا يفصل بين عالم الجسم الداخلي وعالمه الخارجي ، فإذا بكل شيء يعود إلى مجراه . . . ولقد كان بودنا أن نقدم شيئا عن إبداع هذه الميكانيكية البيولوجية الفذة ، ليتبين لنا بوضوح معنى ما قدمنا فأوجزنا ، لكن المجال بها يضيق ، أو ليس هذا مجالها .

وما يجري على الجروح ، يجري على العظام المكسورة ، فالكشف بالأشعة يوضح للطبيب طبيعة الكسر وموقعه ، فيقوم بتسوية العظام المكسورة ، وإعادتها إلى وضعها المناسب ، ثم يلفها بجبيرة حتى يضمن بقاءها في وضعها ، ويترك للجسم الباقي ، لأن الجسم هو الذي يقوم بعد ذلك بعملية اللحام بين العظام ، وهي أيضا عملية طويلة ومعقدة . . . إذن فالمعجزة ليست للطبيب ، بل ترجع أساسا للاستحكامات الدقيقة التي لا تظهر إلا إذا حدث الخلل .

والميكروبات التي تحاول غزو أجسامنا ليل نهار ، تجابهها في داخل أجسامنا خطوط دفاعية على قدر هائل من الكفاءة والتعقيد ، وما دامت هذه الخطوط متيقظة ، فإن الميكروب لا يقوى على الهجوم(*) ، فهي ترصده وتعرفه وتشله وتضربه «بصواريخ» بروتينية دقيقة (تعرف باسم الأجسام أو البروتينات المضادة) حتى تنظف الميدان تماما من شروره . . . لكن إذا أصيب إنسان بميكروب ، وحل به المرض ، وذهب إلى الطبيب ، وأعطاه العلاج (غالبا مضادات حيوية) ، وشفي من علته ، فإن ذلك لا يعني أن المعجزة ترجع إلى الطبيب ، بل يرجع له الفضل فقط في تشخيص الداء ، وتقديم ما يتناسب من الدواء ، لكي يساعد الجسم في محنته التي حلت به نتيجة لسوء تغذية ، أو طعام ملوث ، أو هواء غير متجدد . . . فميكروب السل مثلا لا يستطيع أن يغزو إنسانا يتمتع بصحة وقوة جسدية لها وزنها ، وحتى لو غزاه ، فإن الخطوط الدفاعية المتيقظة في جسمه تشل هذا الغزو من البداية . . . أي أن الأمور لم تخلق هكذا عبثا ، ولا هي تسري حسب أهواء الناس وخرافاتهم ، بل إن كل شيء في أجسامنا قد قدر تقديرا «إنا كل شيء خلقناه بقدر» !

والواقع أن الإنسان والحيوان قد عاشا من قديم الأزل على هذا الكوكب ، وكان الفضل في صمودهما ضد الميكروبات التي تحوم حولهما ليل نهار يرجع أساسا إلى خطوطهما الدفاعية المحكمة ، ولولاها لما بقي إنسان ولا حيوان .

ثم إن الميكروبات الضارية (كالطاعون والكوليرا والتيفوس والجدري . . .الخ) قد وضعها العلم تحت سيطرته ، فما عدنا نسمع عن الأوبئة الرهيبة التي كانت تكتسح العالم قديما ، وتقضي على الملايين من سكانه ، ولولا العلم الذي يقوم على أساس ، لحلت تلك

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع المهم ، يرجى الرجوع إلى كتابينا : «الميكروبات والحياة» ، و«معارك وخطوط دفاعية في جسمك» ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٨ .

الأوبئة الخطيرة بعالمنا المزدحم الآن ، والذي يتحرك وينتقل ويختلط بسبل المواصلات السريعة ، وطبيعي أن القوى الخفية ، أو البركات والصلوات والدعوات لا تستطيع أن توقف الميكروب وتقتله ، لكن الناموس الطبيعي أن ندرس هذا الميكروب أولا ، ونعرف طبيعته ، ثم نساعد الجسم ـ من خلال العقاقير ـ على تخطي أزمته في حالات ضعفه .

ومعظم الناس لا يعرفون مثلا أن لكل منا جهازين عصبيين : أحدهما إرادي ، والآخر لا إرادي . . . فحركة الأصبع أو القدم أو الذراع أو اللسان أو الشفة . . . الخ ، تخضع للجهاز العصبي الإرادي ، وهو الذي يتكون من الألياف العصبية التي تنتشر في الجسم على هيئة شبكة رائعة ، وتصب في النهاية في المخ بعد أن تتجمع في الحبل العصبي الذي تحميه فقرات السلسلة الظهرية . . . هذا ولكل منطقة في الجسم مركز محدد في المخ ، وقد يصاب هذا المركز المحدد بضرر أو تهتك أو ميكروب ، وعندئذ لا يستطيع الإنسان أن يحرك العضلة أو العضلات التي تتقبل أوامرها من هذا المركز المدمر ، وقد يؤدي ذلك إلى شلل موضعي .

لكن الأمر يختلف مع الجهاز العصبي اللاإرادي ، فهو الذي يوجه العمليات الداخلية التي لا إرادة لنا فيها . . . فبؤبؤ العين أو إنسانها (النني) يتسع في الظلام ، ويضيق في الضوء ، وهي ميكانيكية حيوية لا دخل لنا فيها بإرادتنا ، إنما الذي يحركها جزء من الجهاز اللاإرادي الذي يضبط الضوء الداخل مئات المرات في اليوم الواحد ، ولتتقبل الشبكية كل شيء بحساب ومقدار .

وارتفاع نبض القلب إثر المجهودات المتوسطة والعنيفة ، وكذلك سرعة التنفس ، وتمدد الأوعية الدموية أو انقباضها ، وإفراز العرق ، وانضباط الحرارة ، وامتقاع لون الوجه عند الفزع . . . كل هذا

وغيره يتم دون وعي منا أو إرادة ، بل إن التوجيه ينصب على الجهاز العصبي اللاإرادي .

والذي لا يعرفه معظم الناس أيضا أن هذا الجهاز العصبي اللاإرادي قد يتسبب في كثير من الأعراض غير المريحة ، أو الأمراض المعروفة . . . فالربو وقرح الاثني عشر والتهاب القولون والإمساك واضطرابات الدورة الشهرية والطفح الجلدي والعنة (العجز الجنسي) ، وارتفاع ضغط الدم والصداع وعدم انتظام نبضات القلب . . . الخ ، إنما قد ترجع إلى خلل في هذا الجهاز ، فإذا أمكن علاج الخلل ، زالت تلك الأعراض .

ومثال واحد يكفي لتوضيح ذلك . . . فقرح «الاثني عشر» - وهي التي تكون حوالي ٩٠٪ من القرح المعروفة باسم قرح المعدة - تنتج من إفرازات زائدة من حامض الأيدروكلوريك الذي تفرزه المعدة ليساعد في هضم الطعام . . . فعندما نأكل ، يبدأ العصب الحائر (وسمي كذلك لأنه حير الأطباء حقا) التابع للجهاز العصبي اللاإرادي ، في توجيه خلايا المعدة لزيادة إفرازها من هذا الحامض ، لكن قد يصيب هذا العصب المتحكم بعض الاضطراب أو الخلل ، فيؤدي ذلك إلى زيادة في إفرازات الحامض التي تنساب بعد ذلك إلى الاثني عشر ، فيتأثر جداره بالتركيز الزائد ، وقد يؤدي ذلك إلى تهتك بعض الخلايا ، وبمزيد من التهتك تتكون قرحة ، وقد تؤدي إلى نزيف من أحد الأوعية الدموية التي تتخلل موضع القرحة .

وطبيعي أننا لا نستطيع أن نأمر العصب الحائر ليقتصد في أوامره ، فتقتصد المعدة في إفرازاتها ، فهذا العصب لا يقع تحت إرادتنا ، ومن أجل هذا يلجأ الأطباء إلى معادلة الحامض الزائد بمواد قلوية ، أو أقراص لتؤثر في الخلايا الحامضية وتخفض إفرازاتها ، أو مهدئات ومسكنات تجعل الإنسان أقل عصبية ، فيؤثر ذلك في العصب الحائر ،

وإذا لم تنفع كل هذه الأمور ، يزال جزء من المعدة ، حتى يكون إفرازها في الحدود المعقولة ، أو قد يقطع العصب الحائر نفسه .

لكن من الممكن التحكم في الجهاز العصبي اللاإرادي في حدود ، وهذا لا يتأتى لكل الناس ، لأن ذلك يحتاج إلى تدريبات قد تطول ، فمذهب اليوجا مثلا يعتمد على الإيحاء الذاتي ، وبه يستطيع اليوجي أن يتحكم في ضربات قلبه ، أو درجة حرارته ، أو معدلات ضغط دمه . . . الخ ، وبعبارة أوضح : إنه يوجه جهازه العصبي اللاإرادي ، فيستجيب الجهاز لهذا التوجيه ، ومن ثم فقد تختفي بعض الاضطرابات الناشئة من خلل الجهاز اللاإرادي .

أو قد يأتي الإيحاء من طبيب ، أو من معالج روحي ، أو من صفاء الذات (وهو ما يطلق عليه مذهب التأمل أو التركيز العقلي على شيء محدد Meditation) . المهم أن المريض هنا يجب عليه أن يعتقد في معالجه ، ويتقبل منه إيحاءاته وتوجيهاته ، ويثق فيها ، ويؤمن بجدواها . . . والعلم والطب لا ينكران جدوى ذلك في علاج بعض الاضطرابات . . .

ما نود أن نصل إليه من كل ذلك ، أن المعجزات التي يرجعونها إلى القوى الخفية التي تنطلق من المعالجين الروحيين أو غيرهم لا وجود لها على الإطلاق ، إنما المعجزة تكمن في داخلنا ، فمهمة هؤلاء أن يوحوا إلى النفس البشرية بأمور ، فإذا تقبلتها قبولا حسنا ، فإن الفضل في إصلاح الخلل قد يرجع أساسا إلى توجيه الجهاز العصبي اللاإرادي الوجهة السليمة ، فإذا استجاب ، حل الشفاء من بعض الأمراض ، وليست كلها .

ثم إن لجوء بعض الناس إلى المشعوذين قد يكون له ما يبرره ، إذ يجدون عندهم السلوى والراحة والطمأنينة والأمل والعقيدة التي تقربهم من الله (قراءات من القرآن والإنجيل والتوراة) ، وهذا ما قد

لا يعطيه لهم الطبيب . . . فالطبيب الناجح حقا هو الذي يبعث دائما الأمل ، ويؤكد للمريض ـ في أغلب الأحوال ـ أن الشفاء قادم لا محالة بإذن الله .

أضف إلى ذلك أن الشفاء من بعض الأمراض قد يأتي نتيجة لقدرة الجسم ذاته على التغلب على بعض الخلل الذي أصابه . . . فنوبات البرد والأنفلونزا والصداع واضطراب الدورة الشهرية . . . الخ ، قد تزول دون تدخل الطبيب أو المعالج الروحي ، وغالبا ما يذهب الفضل إلى هؤلاء ، وننكر ذلك على أجسامنا ، ونكون ظالمين لأنفسنا دون أن ندري ، أو ندري . . . لست أدري .

لكن الذي ندريه أيضا أن عدم دراية الناس بالتنظيم البديع في أجسامهم ، يجعلهم يتوهمون أشياء غريبة ، ولو أدركوا ما توهموا . . . ولقد قدمنا القول الفصل في كل ما يثار ويقال من أوهام ، وبه نصحح بعض المفاهيم الخاطئة التي تنتشر على الناس . فمن هذه الأخطاء ما جاء في كتاب «القوى الخفية» لأنيس منصور ، إذ يذكر بالحرف الواحد «أن عددا من المعالجين الروحيين من الفيليبين قد أذهلوا العالم كله ، ففي بلاد الفيليبين تتوقف الطائرات الذاهبة إلى أمريكا والعائدة منها لترى رجلا أسمر نحيفا قد عصب عينيه ، والناس يمرون أمامه ، فيضع يده على المعدة أو على القلب أو على الظهر أو على المفاصل بسرعة غريبة ، وبعد لحظات يشفى كل إنسان من مرضه . . . إن هذا أيضا يجري عمليات جراحية بأصابعه . . . يفتح البطن . . . وينزل منه الدم . . . ثم يحرك أصابعه داخل البطن ثم يمر بأصابعه على البطن ويعيده إلى ما كان عليه» .

ويستطرد قائلا : «يحدث هذا الآن في إندونيسيا . . . والمجلات الطبية الأمريكية تصف ذلك بالتفصيل ، والأطباء والعلماء أكثر دهشة من المرضى ، وقد صوروا الرجل وأصابعه ، لا شيء غير عادي . . .

أصابعه عادية ، ولكن الشيء غير العادي : كيف يفتح البطن بأصابعه ، ثم كيف يعيده كما كان . . . وكيف يمشي الناس على أرجلهم بعد ذلك دون أن يصاب أحد بتلوث أو تسمم أو دون أن يموت الناس . إن هذا المعالج الروحي الفيليبيني لا يستخدم الأدوات المعقمة ولا غرف الإنعاش . إن هذا يتم يوميا أمام الناس بعدساتهم وعيونهم المشككة» . . . الخ . . . الخ .

ولا تعليق لنا على هذا الكلام ، إلا أن نترك القارئ ليستخلص ما يشاء ، خاصة بعد أن قدمنا ما قدمنا . . .

«اللهم إني قد بلغت ، اللهم فاشهد» !



الفصل الرابع

قوى خفية تنطلق من الكائنات الحية

في أوائل شهر مايو عام ١٩٧٦ ، وقف دكتور أليك فوريس الطبيب الاستشاري وعضو جمعية الأطباء الملكية بلندن ، ليقول في ندوة مطولة عقدت بكلية الملك (كينجز كوليج King's College) التابعة لجامعة لندن ، وأشرفت عليها ونظمتها جماعة من البريطانيين والأمريكيين التي تطلق على نفسها شعار «الصحة من أجل عصر أفضل» ـ وقف ليعلن أنه «منذ عشر سنوات مضت لم أكن لأجرؤ وأقف لأتحدث إليكم مثلما أتحدث الآن»!

ولقد كان معظم الحاضرين في هذه الندوة من ذلك الطراز من الناس الذين يعتقدون أو يتحمسون لفكرة وجود قوة أو طاقة خفية لا يعرف الأطباء العاديون عنها شيئا ، أو لا يعتقدون في وجودها ، رغم أن تلك القوى الخفية تعلن عن نفسها من خلال تغيرات تحدثها في العقل والبدن ، وليس من نافلة القول إذن أن يبحث الحاضرون عن وسائل فعالة لتوجيه هذه القوى غير المنظورة ، حتى يمكن الاستفادة منها في شفاء الأمراض بواسطة مجموعة خاصة من البشر يعرفها العالم أجمع باسم «المعالجين الروحيين» .

ولو كنت أنت طبيبا أو عالما أو عقلانيا ، واستمعت إلى بعض ما دار في هذه الندوة ، لحكمت على هؤلاء الناس أنهم من ذلك النوع

الذي تسيطر على عقله الأوهام والخزعبلات ، أو أنهم جماعة من «المهاويس» . . . ورغم أن دكتور أليك فوريس طبيب ممتاز ، وأنه يطبق أصول مهنة الطب التي تعلمها التطبيق الأمثل ، إلا أنه يعتقد في بعض ما يعتقد فيه هؤلاء الناس ، وظل يكتم هذا الاعتقاد في نفسه طيلة عشر سنوات ، خوفا من تهكم زملائه عليه ، أو ربما يؤدي ذلك إلى شكوك وظنون قد تؤثر على مستقبله كطبيب ، لكنه أخيرا أعلن رأيه أمام هذه المجموعة التي دعته إلى تلك الندوة ، فهو ـ دون أدنى شك ـ سوف يلقى منهم ترحيبا وتشجيعا ، ومن أجل هذا قال إنه لم يكن ليجرؤ على التحدث إليهم منذ عشر سنوات بمثل ما يتحدث به الآن ، وإلا اعتبروه مختل العقل ، وطبيعي أن هذا الطبيب ما كان ليجرؤ ويعلن ما يعلنه عن اعتقاده في القوى الروحية وظواهرها المحيرة ـ على هيئة علمية أو طبية ـ وإلا لكان مصيره السخرية والازدراء ، وربما تم طرده من زمرة الأطباء !

ولقد دعي إلى هذه الندوة علماء وأطباء لهم وزنهم ، لكن عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ومن أبرز هؤلاء يقفز اسم البروفيسور جون تيلور . . . صحيح أنه لا يعتقد فيما يعتقد فيه هؤلاء الناس (رغم أنه وقع في مصيدتهم قبل ذلك ثم هرب) ، ولكنه جاء ليستمع ويناقش ويفند ويوجه ، فإذا كانت هناك قوى خفية قادرة على الشفاء حقا . فما هي طبيعة هذه القوى ؟ . . . وكيف يمكن التدليل عليها ؟ . . . ثم ما هي الوسائل الكفيلة بالسيطرة عليها وتطويعها لخدمة العلم والطب؟ . . . الخ .

وتقفز الإجابات قفزا من أفواه الناس . . . إن هذه القوى الخفية تظهر أكثر ما تظهر في المعالجين الروحانيين . . . بل إن كل إنسان تكمن فيه هذه القوى ، ولكن بدرجات لا تكاد تظهر أو تبين ، فلماذا ـ إذن ـ لا يحاول العلماء والأطباء دراسة هذه الظاهرة دراسة مقننة وافية ، فربما وضعوا أيديهم على سرها .

ويعلق البروفيسور تيلور على ذلك تعليقا هادئا رزينا ، ويتساءل : إذا كانت هناك طاقة أو قوة شافية ، فلن تخرج عن كونها كهرومغناطيسية ، فالعلم لا يعرف أي نوع آخر من الطاقة يمكن أن يروضها للعلاج .

لقد كان البروفيسور يقصد من ذلك أن الكون الذي نعيش فيه إنما يتجلى لنا على هيئة مادة وطاقة ، وأن إحداهما تؤدي إلى الأخرى ، أو تؤثر فيها ، فالجسم مثلا مادة تتكون من أعضاء . . . الأعضاء من أنسجة . . . الأنسجة من خلايا . . . الخلايا من جزيئات . . . الجزيئات من ذرات . . . الذرات من جسيمات ، والجسيمات في النهاية تبدو لنا بوجهين : وجه مادي ، ووجه كهرومغناطيسي . . . أي موجات تنطلق على هيئة إشعاعات ، وللإشعاعات هنا شأن يذكر .

فجميع التفاعلات الحيوية في أجسامنا تحدث بين جزيئات أو أيونات (الأيون ذرة أو مجموعة ذرية تحمل شحنة كهربية سالبة أو موجبة) ، وأن الأصل في اتحادها أو انفصالها يعتمد على الإليكترونات التي تدور حول كل ذرة في مدارات ، ومن هذه العملية (وهي معقدة جدا بطبيعة الحال) تنطلق في داخلنا طاقات . . . حركية وكهربية وإشعاعية (كهرومغناطيسية) وإفرازية وعصبية . . . الخ . . . الخ ، ومن دون انطلاق هذه الطاقات ، فلن تكون هناك حياة .

فإذا كان المشاركون في هذه الندوة يقصدون بالطاقة أو القوة الخفية هذا النوع من الإشعاع (أي الكهرومغناطيسي) ، فإن العلم قد يمد يده ليدرسه ، ويعرف كيف ينطلق من المعالجين الروحانيين بتركيزات مناسبة بحيث تؤدي إلى التغيير المطلوب في وحدات المادة الحية ، وبحيث تصلح الخطأ الذي يسبب المرض داخل خلايانا وأنسجتنا ، وعندئذ سيكون من الميسور ـ في تلك الحالة ـ استخدام الأجهزة العلمية الحساسة لقياس هذه القوى التي تنطلق من المعالجين ، ومعرفة ترددها وقوتها وطول موجاتها . . . الخ .

وطبيعي أن الأستاذ تيلور كان يستدرج معظم المشاركين في هذه الندوة إلى المصيدة ، فهو يعرف تماما نوعية التفكير التي يمارسونها ، إذ لا يمكن أن تنطلق من المعالج الروحي طاقة كهرومغناطيسية قوية إلا إذا كان هذا المعالج المزعوم قد تحول إلى مولد كهربي تكفي طاقته لتشغيل جهاز تليفزيون مثلا !

والواقع أن العلماء قد توصلوا إلى تصنيع جهاز طبي يطلق موجات كهرومغناطيسية ، ذات تردد عال قريب من تردد الموجات التي يشتغل بها التليفزيون ، ومن هذا الجهاز تنطلق نبضات إشعاعية بمعدل ٨٠ ـ ٦٠٠ نبضة في الثانية الواحدة ، وعند تسليطها على الجروح أو المفاصل الملتهبة أو المتورمة أو العضلات المتقلصة أو الحروق . . . الخ ، فإنها تساعد على التئامها أو شفائها ، والواقع أن أحدا لم يستطع أن يقدم دليلا مقنعا على الكيفية التي تشتغل بها هذه الطاقة الكهرومغناطيسية على خلايانا وأنسجتنا ، فتساعدها على تنظيم عملياتها ، وكل ما قيل في هذا المجال ليس إلا ضربا من النظريات والاجتهادات .

لكن ذلك قد لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نعرف أن طريق العلم واضح ، وأنه يقوم على القياس والتجريب ، وتسجيل النتائج . ولا شك في أن الذي يعشش في عقول هؤلاء الناس أو غيرهم من خيالات وأوهام ، لا يجد العلماء فيه إلا نوعا من الخداع أو الهوس بشيء غير موجود إلا في تصوراتهم الغريبة والرديئة !

هل القوى الخفية موجودة فينا حقا؟

لكن هؤلاء الناس يزعمون أن العلم قاصر عن إدراك الحقيقة ، وأنه لا يريد أن يتبنى أو يبارك هذه القوى الخفية التي تنطلق من المعالجين الروحانيين إلى المرضى ، فتؤثر فيهم وتشفيهم . ليس ذلك فحسب ، بل إن هناك أستاذا جامعيا أمريكيا قد ذهب إلى أبعد من ذلك ، وادعى أن

المعالج الروحي لابد أن يكون قناة أو وسيلة لتنبثق منها قوة ما غير معروفة على وجه التحديد ، وأنه بالإمكان التدليل عليها ، وإظهارها بين جمهرة الحاضرين .

ويطلب الأستاذ ـ وهو دكتور روبرت ميللر أستاذ الهندسة الكيميائية في إحدى الجامعات الأمريكية ـ من الحاضرين أن يضع كل واحد منهم راحة يده في راحة يد من يجاوره أو تجاوره ، وفعلا فعلوا ، وبعد برهة قصيرة سألهم إن كانوا يشعرون بشيء غير عادي في أكفهم ، فأجاب عدد غير قليل منهم بأنهم يشعرون حقا بشيء غير عادي ، وطبيعي أن العامل النفسي ، والتعصب لما وقر في أدمغتهم قد جعلهم يتسرعون برد لم يكن له ما يبرره !

وعاد دكتور ميللر ليطلب من الناس أن يأخذوا أنفاسا عميقة ، وأن يداوموا عليها دقائق عدة ، بينما أكفهم متشابكة ، ثم سألهم بعد التدريب إن كانوا يشعرون حقا بشيء غير عادي ، وفي هذه المرة أجابوا جميعا ودون استثناء ، وبشعور حقيقي : نعم . . . نعم . . . نحس بنبضات غريبة في أصابعنا ، وكأنما هي تأكلنا ، أو كأنما تنطلق فيها كائنات جد صغيرة !

لكن . . . ماذا يعني ذلك حقا ؟ . . . وهل أدت التجربة ما هو مطلوب منها ؟

نعم . . . فهي من وجهة نظر دكتور ميللر ، ومن وجهة نظر المعتقدين في وجود قوى خفية في داخلنا ، قد شعروا فعلا بظهور هذه «القوى» في أطراف أصابعهم ، ولقد ظهرت السعادة على وجه الرجل ، وعلى وجه الناس ، عدا قلة قليلة مطت شفاهها سخرية وازدراء لهذه الخدعة التي جازت عليهم .

صحيح أن شيئا غير عادي قد حل بأصابعهم ، لكن ذلك لا يعني دليلا أو برهانا على قوة خفية يزعمونها ، بل إن ما حدث أمر طبيعي ، فالتنفس العميق «يغسل» الدم أو يخلصه من غاز ثاني أوكسيد الكربون

بكفاءة أعلى ، وهذا من شأنه أن يغير التوازن الأيوني الكائن في الدم أو السوائل التي تنساب بين الخلايا ، فيؤدي إلى تغير في كفاءة التنبه أو النشاط العصبي ، وينتج عن ذلك شعور بوخز خفيف في النهايات العصبية لأطراف أصابعنا ، وكأنما هناك شيء غامض يسري في أنسجتها .

أي كأنما دكتور ميللر يقلب الحقيقة العلمية التي كان يجب عليه أن يعرفها ، إلى نوع من الوهم الذي يسيطر به على عقول العامة ، ويوحي به إليهم أن هناك بالفعل قوة خفية ، وأن هذه القوة تظهر بدرجات كبيرة عند بعض الناس ، فتنطلق منهم لمعالجة بعض المرضى !

وطبيعي أن الكتاب غير العلميين مع عامة الناس يثقون ثقة عمياء فيما يقوله أحد رجال العلم ، عن عمد أو جهل بظاهرة يعرفها العلماء والأطباء حق المعرفة ، ثم نرى الكتاب الذين يكتبون عن هذه الظواهر يرجعون ذلك إلى العلم ، مع أن العلم بريء مما يدعون !

ويذهب دكتور ميللر إلى أبعد من ذلك ، ويدعي أن زميلته دكتورة أولجا وورول - وهي حاصلة فعلا على درجة الدكتوراه ، لكنها ممثلة من الدرجة الأولى في هذا المضمار ، ويعتبرها منظمو الندوة أشهر المعالجات الروحانيات - قد امتلكت هذه القدرة الفذة ، وأنها إذا صلت ودعت للنباتات - حتى ولو كانت تبعد عنها مئات الأميال - فإن نموها يزيد بمقدار ٨٤٪ . . . ثم شرح للحاضرين كيف يتأثر نمو البذور عندما تروى بماء تتسلط عليه قوى مغناطيسية من مغناطيس قوي ، أو عندما ترسل أولجا قوتها الخفية خلال هذا الماء من يديها ، وعندما سأله أحد الحاضرين سؤالا محرجا ، طالبا منه أن يقدم الدليل على ذلك ، تراجع دكتور ميللر وقال : إن نتائجه في هذا المضمار ليست واضحة إحصائيا ، وتحتاج إلى مراجعة لتثبت صحتها !

وكانت هذه الإجابة غير المقنعة دليلا كافيا على بطلان ما يدعون .

ظاهرة كيرليان والطاقات الخفية

والواقع أن الذين يتعلقون بالخرافات ، لا تخونهم الوسيلة العلمية لربطها بما وقر في نفوسهم من تصورات ، ومن هذه الوسائل تبرز ظاهرة التصوير الكيرلياني (نسبة إلى الروسيين سيمون دافيد وفيتش كيرليان) التي اتخذها أدعياء العلم أداة ليبرهنوا بها على وجود قوى خفية تكمن في الكائنات الحية ، وأن هذا النوع من التصوير يمكن أن يبرزها بوضوح على أفلام حساسة .

ولقد قيل عن التصوير الكيرلياني ، وربطه بالطاقات الخفية ، أو الهالات النورانية ، الشيء الكثير ، ولعب الخيال فيه دورا عظيما ، ففي «أرواح وأشباح» لأنيس منصور ، والمنقول عن مؤلفات غير علمية ، تجد مادة غزيرة عن هذه الظاهرة . . . فتراه مثلا يذكر في إحدى الفقرات «وفي سنة ١٩٦٥ نشرت المجلات العلمية في أمريكا وفي روسيا أيضا صورا فوتوغرافية للنباتات ، وحول هذه النباتات هالات من الضوء . . . ولكن بعض العلماء نشر صورا لنباتات قد قطعت أوراقها ، ولوحظ أن هناك «نزيفا من النور» يخرج من الأماكن التي نزعت منها الأوراق . . . ونشرت صور لنباتات في حالة «خوف» ، أو عندما تقترب منها الفراشات التي تحمل حبات اللقاح ، ومن الغريب أن «الهالة» التي تحيط بهذه النباتات تختلف في شدتها . . . الخ» .

وفي فقرة أخرى يذكر : «هذا الذي أراه بركان من الدم . . . سيول من النار . . . ألسنة من اللهب . . . مع أن الذي فعلته ليس أكثر من أنني مررت بسكين على هذه الأشياء الصغيرة» . . . وهذه العبارة ينسبها لكيرليان . . . «أما الذي رآه فهو مجموعة من أوراق الشجر وأوراق الزهر قد مزقها بيديه ، ثم سجل بالكاميرا هذا الذي فعله . . . إن الأوراق تنزف ألوانا حمراء . . . والورد يسيل دما قانيا ـ ألوانه هكذا . . . وذهب علماء لا يصدقون كريليان (وصحتها كيرليان)

واستدعوه إلى كليات متعددة ، وعزلوه تماما عن كل الناس ، وطلبوا إليه أن يصور أجسام البشر . . . فما الذي رأوه ؟ . . . لقد رأوا أن الجسم الإنساني تخرج منه ألسنة من الألوان المتداخلة . . . الأحمر والأزرق والأخضر والدموي . . . وأغرب من ذلك أن هذه الألوان لها شكل واحد . . . أنه شكل الجسم الإنساني . . . وهذا الشكل يحيط بالجسم الإنساني وقريب منه . . . وقد دلت الصور التي أخذت لبعض الموتى بعد الوفاة بساعات على : أن هناك شكلا ضوئيا ملاصقا للجسم وقريبا منه ، ويظل هذا الشكل الضوئي ، أو هذا الغشاء المضيء موجودا بعض الوقت . . . ثم يختفي تماما» .

وفي كتاب «القوى الخفية» يذكر أيضا أن كيرليان وزوجته استطاعا أن يطورا أدوات التصوير ، ويصورا بها النباتات ، فيجدا هالة حول كل نبات . . . «وإذا قطع غصنا من شجرة ، ثم صوره ، فإنه يجد مكان الغصن ينزف نورا . . . كأنه جريح أو كأنه ذبيح أو كأنه يبكي . . .» ثم يقول «وفي الأحاديث أيضا أن النخيل تبكي ، والعلم الحديث والتصوير الحديث يؤكدان هذا المعنى تماما» . . . الخ . . . الخ .

والواقع أن العلم الحديث قد دحض كل هذه الافتراءات والتصورات الغريبة ، لكن مما يجذب الانتباه أن إقحام العلم والعلماء في هذا المجال هو نوع من التمويه والخداع ، ونرى ذلك بوضوح أيضا في كتابات عبد الرزاق نوفل ، ففي كتابه «من أسرار الروح» يتعرض لمسألة طبية معروفة ، وهي تتلخص في أن بعض الأشخاص الذين بترت لهم ساق أو ذراع قد يحسون بوجود ألم في الجزء المبتور ، رغم أن هذا الجزء غير موجود .

ولكي ندرك سر هذه الظاهرة الغريبة - والتي لها ارتباط وثيق بموضوعنا - كان لزاما علينا أن نقدم فقرة أو فقرتين «من أسرار الروح» ، فيذكر عبد الرزاق نوفل : «لقد أكدت الأبحاث العلمية والمعملية في

عصرنا الحاضر ، بل وفي أيامنا هذه وجود الجسد الأثيري . . . وخصوصا بعد موت الجسم الترابي . . . فمنذ عشرات السنين والأطباء والعلماء في حيرة مما لاحظوه على من بترت بعض أعضائهم . . . أنهم بعد بترها أو فقدها يحسون بوجودها إحساسا لطيفا هادئا ، ولكنه قوي واضح ، واعتبر الأطباء أن هذا الإحساس إنما هو من الافتعالات النفسية ، ومن الإحساسات العصبية ، وأنه من ضمن تأثير العضو في الإنسان قبل فقده وأنه يظل لفترة وهو تحت سيطرة هذا الإحساس . . . إلا أن الأطباء وقد وضعوا هذه الملاحظات تحت التجريب المعملي ، وتحت المشاهدة والمتابعة ، وجدوا أن هذا الإحساس لا يزول ولا يخبو ، بل يظل معهم طوال حياتهم ، وإلى أن تنتهي أعمارهم . . . ولما تعددت هذه الملاحظات ، وأثبتها الأطباء من مختلف جهات العالم ، ووضعت المستشفيات التقارير العلمية لهذه النتائج ، وكانت هذه أحد الدوافع التي أدت بالعلماء في الاتحاد السوفييتي لدراسة أثر البتر الجزئي في المادة الكاملة ، فتوصل العالم البيولوجي السوفييتي كيرليان إلى استحداث جهاز ضوئي بدأ الدراسة به على النبات ، فعرض ورقة نبات كاملة على الجهاز وصورها ، ثم قطع ما يوازي ثلث مساحة الورقة ، وأخذ لها عدة صور ضوئية . . . فظهرت الصورة كاملة من الناحية الضوئية . . . بها الأجزاء الموجودة في الورقة ، وبها الجزء المقطوع في مكانه ، وإنما تختلف صورة هذا الجزء غير الموجود عن باقي ورقة النبات . . . وقد واصل كيرليان أبحاثه مع مساعديه ، وبعد تطوير أجهزته لمدة خمسة وعشرين عاما ، وصل بعدها إلى حقيقة تقول : بالنسبة للأجسام الحية نتمكن من رؤية الحالة الداخلية للتركيب العضوي منعكسة على لمعان وعتمة ، وألوان هذه الالتماعات أن النشاط الداخلي للكائن الحي مسجل على هذه الأضواء الهيروغليفية (هكذا !) . . . ولقد توصلت حتى الآن إلى ابتكار جهاز يسجل هذه اللغة الضوئية ، لكننا نحتاج إلى عون الآخرين حتى نستطيع قراءة هذه اللغة» !

هذا ما ذكره المؤلف في كتابه ، ثم يستطرد فيقول : «هذا ما جاءت به الأنباء العلمية التي نشرت مؤخرا . . . لقد أظهرت الأجهزة المادية (!!) التي تعلن الحقائق بالصور أن للإنسان جسمه الآخر ، ومن مادة أمكن تصويرها حيث استجابت لأشعة خاصة أظهرتها مضيئة . . . هذا هو الجسد الأثيري الذي أمكن لعلماء الروح إثبات وجوده بأدلتهم العقلية والمنطقية ، وعن طريق اتصالاتهم بالوسطاء . . . وبأرواح الموتى . . . أن جسد الروح أثيري . . . أما هي فمن نور . . . ولقد تابع كثير من علماء البيولوجيا في أنحاء مختلفة من العالم أبحاث العالم كيرليان ، وربطوا بينها وبين ما سبق أن قرره الدكتور والتر كلنر بمستشفى سانت توماس بلندن من صحة ما يتردد على الألسنة من وجود هالة تحيط بالجسم الإنساني . . . إذن لقد ثبت أن السحابة الضبابية أو الهالة التي كان يرسمها الإنسان في العهود القديمة حول الأشخاص المقدسين والتي تحيط بهم ثم اكتفى برسم هالة تحيط برؤوسهم من أعلاها في العهود الحديثة إنما هي حقيقة علمية . . . أثبتها وأكدها . . . وصورها العلم الحديث . . . أن العلماء العلميين يقررون أن هناك ثورة في علم الأحياء وعلم النفس . . . فكل هذه الدراسات ، وكل هذه البحوث إنما تؤكد وجود طاقة من نور . . . وأصل من ضوء . . . ليس مصدره بالقطع الجسم الترابي ، ولكنه الروح . . . إذن لقد أثبتت الأبحاث المعملية والخاصة بفروع البيولوجيا والكهرباء . . .» ، إلى آخر هذه الشطحات التي تستحق كتابا كاملا لدحض ما جاء بها من افتراءات على العلم والعلماء .

وإلى هنا نكون قد وصلنا مع عبد الرزاق نوفل إلى ما وصل إليه أنيس منصور عن وجود هالات تحيط بالأجسام ، وأنها تظهر بالتصوير الكيرلياني ، وأن العلماء قد أكدوا هذه الحقائق وأثبتوها . . . الخ !

لكن الغريب حقا أن الكتاب غير العلميين يحاولون بشتى الوسائل أن يربطوا بين خرافات قديمة ، وبين نظريات العلم المختلفة ، ليوهموا القراء

بأن هذه الخرافات قد حققها العلم ، وأظهر أنها ليست خرافة ، بل حقيقة علمية لها وزنها .

مزاعم مدحوضة من الأساس

على أنه من الأوفق هنا أن نفند بعض هذه الخرافات في نقاط نمر عليها سريعا ، ليتبين لنا الغث من السمين .

* فالعالم البيولوجي السوفييتي كيرليان ـ الذي سبق ذكره بتلك الصفات ـ ليس عالما ولا بيولوجيا . . . بل هو فني لإصلاح الأجهزة الكهربية ، ولقد دعي في أحد أيام عام ١٩٣٩ لإصلاح جهاز في معهد طبي محلي في مدينة كراسنودار الواقعة قرب البحر الأسود ، وتصادف أن شاهد ومضة ضوئية صغيرة تقفز بين الجهاز وبين المريض ، ومن هذه الملاحظة بدأ في فهم الفكرة ، ثم حورها في تصوير أشياء كثيرة على أفلام حساسة ، فأعطته صورا غريبة .

* لا يوجد في مجال العلوم ما يسمى بالأضواء الهيروغليفية ، ونخشى أن يكون قد خلط بينها وبين التصوير الهولوغرافي Holography الذي يستخدم أشعة الليزر . . . وحقيقة الأمر أن العلماء يتعاملون مع الأضواء على أنها موجات كهرومغناطيسية لها ترددات مختلفة ، وأطوال تقاس بوحدات القياس المعروفة ، ولا ندري هنا ما هو المقصود حقا بالضوء الهيروغليفي !

* في فقرة أخرى يجيء «لقد أظهرت الأجهزة المادية» ـ ولا ندري ما هو المراد بأجهزة مادية إلا أن يكون المؤلف يريد أن يدخل في رُوعنا أن هناك أجهزة غير مادية أو روحانية أو أثيرية . . . فالأجهزة شيء ملموس على أي حال ، ولا يحتاج إلى هذه الصفة الغريبة .

* لا يوجد في مجال العلم الآن شيء اسمه الأجسام الأثيرية ، ولا الأثير نفسه ، ذلك أن هذه الكلمة كانت افتراضا قديما لشرح نظرية الضوء ، لكن ألبرت أينشتاين دحض هذه المزاعم من خلال نظرية النسبية الشهيرة .

* الوصف الذي نقل عن كُتاب أجانب غير علميين ـ محرفا أو نصا ـ في الكتب التي صدرت عندنا عن ظاهرة التصوير الكيرلياني ، لا يمكن أن نجده في المراجع العلمية الجادة ، بل هو من ذلك النوع الأسطوري الذي يوحي للعامة بوجود ظواهر غير عادية ، فيثير ذلك خيالهم ، ويشحذ أفكارهم ، ويعود بهم إلى ظنون خرافية قديمة مثل الهالات والأشباح والأرواح وما شابه ذلك . . . فالمرجع العلمي مثلا لا ينشر وصفا يقول : «هذا الذي أراه بركان من الدم . . . سيول من نار . . ألسنة من اللهب» . . . الخ ، فهذه لغة إنشائية لا علمية !

* ليست هناك علاقة بين الإحساس بوجود الأجزاء المبتورة من الجسم وبين التصوير الكيرلياني ، وظهور الهالات في الأماكن المقطوعة من النبات أو الحيوان ، والذين حاولوا ربط هذا بذاك ، إنما يريدون التوصل إلى ترسيخ ما وقر في العقول من أساطير ليس لها في مجال العلوم مكان ، أو هم لا يدركون حقيقة ما يكتبون ، أو قد يدركونها ، ولكنهم يلفقون ويضللون باسم العلم ، لنشر مزيد من الخرافات على حساب العلم المفترى عليه !

فحقيقة شعور الإنسان الذي بترت ساقه أو ذراعه ، تتجلى لنا في هذه الواقعة التي ذكرها لنا فيتوس دروشر في كتابه القيم «سحر الحواس» . . . وهو كتاب يتناول أهم الاكتشافات الحديثة في المدركات الحسية للإنسان والحيوان ، فيقول إن شابا يبلغ من العمر ٢٧ عاما ويدعى جون موليجان كان دائم الشكوى والبكاء وهو يرقد في المستشفى الجامعي بشيكاغو ، وسبب بكائه هو الشعور بآلام قاتلة في

بطن رجله وأصابعه ، وظل أياما وهو يستعطف الجراحين بضرورة بترها عله يتخلص من آلامه التي لا تفيد فيها العقاقير ولا المسكنات . . . لكن الشيء المثير والغريب حقا أن قدم الشاب التي تعذبه لم تكن في الحقيقة موجودة . . . فلقد بترت منذ سنين عدة !

إذن . . . كيف نفسر هذه الظاهرة؟ . . . هل «روح» قدمه قد عادت لتظهر على هيئة «هالة» حول الجزء المبتور ، فتشعره بوجودها أو آلامها ؟ . . . أو هل تجسدت القدم المبتورة ، وعادت إلى صاحبها من الدار الآخرة ؟!

الواقع أن هذه الظاهرة أحيانا ما تتكرر مع من بترت بعض أطرافهم ، والعلماء والأطباء يعرفونها تمام المعرفة ، والقول بأن الأطباء قد لجأوا إلى كيرليان للبحث عن سرها إنما هو ـ من ناحية ـ تضليل ، ومن ناحية أخرى سبة للأطباء ، وقذف في حقهم . . . فهذا الألم الناشئ ، والذي يعرف بالألم الكاذب أو «الألم الشبح» ـ كما يسميه دروشر في كتابه ، له في الواقع ما يبرره . . . فمع أن القدم مبتورة منذ زمن ، إلا أن عملية البتر قد تركت ندبة أو ندبا في نهاية الساق ، وأن الأعصاب الحسية التي كانت تغذي القدم ما زالت موجودة في الندبة أو النسيج الجديد المتكون حول الجزء الذي حدث عنده البتر (يعرف بالجدعة) ، وأحيانا ما يتقلص نسيج الجدعة ببطء ، وعندئذ يحدث تهيجا في النهايات العصبية الموجودة فيها ، فترسل هذه نبضات عصبية إلى المخ ، والمخ بدوره لا يستطيع أن يميز بين هذه النبضات الواصلة من الجدعة ، وبين النبضات التي كان يتلقاها قبل ذلك من القدم قبل عملية البتر . . . فالنبضة العصبية هي نبضة على أي حال ، سواء جاءت من ألم في الجدعة ، أو ألم في القدم المصابة !

لكن للقصة بقية . . . فتهيج النهايات العصبية في الجدعة قد يكون ضئيلا للغاية ، ومع ذلك فالمخ يشعر بها ، ويفسرها على حسب الحالات

النفسية التي تختلف من شخص إلى آخر ، والتفسير دائما ينعكس على الشعور بوجود ألم ، وفي حوالي ٣٠٪ من الحالات التي بترت فيها ساق أو ذراع أو قدم . . . الخ ، قد يكون الألم شديدا ، وفي ٥٪ منها قد ينذر بالخطر ، لكن كل الدلائل تشير إلى أن أصل الألم ينشأ من تشويش أو ارتباك في الإرسال العصبي نتيجة للصدمة النفسية أو العصبية التي صاحبت العملية . . . بمعنى أن الحالة النفسية أو العصبية التي صاحبت العملية . . . بمعنى أن الحالة النفسية هنا قد تأخذ مبدأ المبادرة ، وتؤثر في الحالة الجسدية ، فتجسد الآلام الخفيفة ، وتجعلها كبيرة ، أو تذهب إلى أبعد من ذلك ، وتعطي الإحساس بأن الآلام واردة من الجزء المصاب ، رغم أن هذا الجزء مبتور !

لكن مما لا شك فيه أن العلم دائما يحاول أن يستكشف ويدرك ، ثم يطبق التطبيق السليم الذي قد يريح البشرية من آلامها ومعاناتها ، ففي حالة جون موليجان مبتور القدم ، أمكن لجراح المخ الشهير لاس إيجلتون أن يثقب ثقبا ضئيلا في جمجمة الشاب ، ومن خلال هذا الثقب أرسل موجات فوق صوتية لتدمر جزءا محددا وصغيرا يقع فيما يسمى بمنطقة مهاد المخ ، وبعد سبع جلسات من هذا العلاج ، اختفى الألم تماما ، ويرجع ذلك إلى أن تلك المنطقة الخاصة ـ في المهاد ـ والمكلفة باستقبال الإشارات العصبية من القدم أو من الجدعة (أثر العملية) قد دمرت ، فلا يصبح للإشارات العصبية معنى ، فيلغى هذا الشعور المؤلم تبعا لذلك . . . أو قد تزرع سلوك بالغة الدقة في الأعصاب الواصلة بين الجزء الذي يبعث بإشارات الألم ، وبين المخ ، وبواسطة نبضات كهربية خارجية وضعيفة ، يمكن التشويش على الإشارات العصبية ، فلا يستطيع المخ لها ترجمة ولا إدراكا ، وهنا يختفي الشعور بالألم .

والموضوع بعد ذلك متشعب وطويل ، لكن فيما قدمنا فأوجزنا الكفاية ، وليتبين لنا التفسير العلمي السليم ، ثم التطبيق الصحيح ، ثم

لندرك كيف يضلل الكتاب غير العلميين - في الداخل والخارج - عامة الناس ، ويشوهون الحقائق العلمية لتتماشى مع ما وقر في العقول من خرافات قديمة وحديثة .

الهالات النورانية . . . ظاهرة طبيعية(*) !

ولابد أن نأتي بعد ذلك إلى تفسير نقطة مهمة اتخذها محبو الخرافات والأساطير دليلا على أنماط أفكارهم الخاطئة . . . وعلينا أن نسترجع ما ذكرناه في الصفحات السابقة ، إذ ارتبطت فكرة الهالة التي تحيط بالأجسام بفكرة التصوير الكيرلياني ، بفكرة الروح ، بفكرة القداسات والكرامات . . . وكل هذه الأفكار أخطاء لابد من تصحيحها ، ثم الرجوع فيها إلى الأصول العلمية ، وربط الأسباب بالمسببات ، بدلا من هذا الخلط الذي ليس له أساس .

فظهور الهالات على رؤوس القديسين وأصحاب الكرامات تختلف عن الهالات التي تظهر في التصوير الكيرلياني . . . أضف إلى ذلك أن الفكرة السائدة عن ظهور هالة من نور حول رأس إنسان ، ليست دليلا على صلاح أو تقوى ، ولا هي معجزة أو كرامة ، ولاهي دليلنا إلى الروح التي يقحمونها في البحوث العلمية دون وجه حق .

إن الهالات التي رسمها الرسامون حول رؤوس القديسين منذ أمد طويل قد لا تكون من وحي الخيال ، إذ إن هذه الهالات قد تظهر على رؤوس بعض الناس تحت حالات خاصة ، ولما رأى الآخرون ظهورها ، ظنوها معجزة وكرامة !

(*) سبق أن نشرنا جزءا من هذا الموضوع في مجلة العربي العددين : ٢٢٤/ ١٩٧٧و٢٣٠/ ١٩٧٨ . ونحن نكتبه هنا بشيء من التصرف والتحوير ليناسب موضوع هذا الكتاب .

لكن هذه الظاهرة المحيرة لاشأن لها بقديسين ، ولا أولياء وكرامات ومعجزات ، لأنها قد تظهر أيضا فوق رؤوس الحيوانات ، وهامات النباتات ، أو صواري السفن ، أو القباب العالية . . . الخ ، ولقد استطاع العلم تعليلها ، بعد أن عرف الأسباب الكامنة وراءها ، ولهذا انتفت معجزاتها .

إذن . . . ما هي طبيعة هذه الهالات النورانية ؟ . . . وكيف تظهر وتتجلى ؟

دعنا نبدأ القصة من أولها ، لنعرف ما خفي من أمرها .

يقص علينا ن . كولويكوف في كتابه «محيطنا الفضائي» أن مجموعة من متسلقي الجبال الروس كانوا في طريقهم إلى إحدى قمم جبال تيين شان ، ثم بدأ الجو يكفهر ، والغيوم تتراكم ، وضوء الشمس يحجب ، والبرق يبرق ، والرعد يزمجر ، وعندئذ صاح أحدهم محذرا رفيقه : احترس . . . إن «النار» فوق رأسك !

وكان في ذلك على حق ، لكنها لم تكن نارا بمعنى الكلمة ، ولا هي بحارقة ، بقدر ما كانت ومضات من ضوء تقفز من ثنايا شعره ، وفي اللحظة ذاتها بدأت الرؤوس الأخرى تحاط بالظاهرة نفسها ، وكأنما كل رأس قد لبس هالة من ضوء ، لكن الأغرب من ذلك أن شيئا يشبه الشرر كان يقفز من أصابعهم ، وكأنما هي تكاد تضيء ، ولو لم تمسسها نار !

وفي يوم ٦ يوليو عام ١٩٥٠ ، وبينما كانت جماعة أخرى من متسلقي الجبال على ارتفاع ٣٨٠٠ متر من سطح البحر ، لاحظوا أن قمم الصخور كأنما تلبس هالات من نور ، وعندما وصلت الجماعة إلى نقطة معينة ، لاحظت قائدها ف . راتسيك وقد ظهرت حول رأسه هالة مثيرة ، ثم انتشرت هذه الظاهرة على رؤوسهم جميعا ، وبدأت شعورهم تقف وتتباعد وتتنافر ، وبدأت فروة رؤوسهم تضايقهم ، وكأنما هناك شيء يشد الشعر من جذوره ، وعندما عادوا من مهمتهم بسلام ، أطلقوا على قمم تلك الجبال اسم «إليكترو» ـ أي قمم الكهرب .

وطبيعي أن معظم متسلقي الجبال في وقتنا الحاضر يعرفون سبب هذه الظاهرة ، ويطلقون عليها تعريفا قديما ، وهذا التعريف تراه موجودا في كل المراجع العلمية التي تتناول الظواهر الجوية ، ويسمى «نار القديس أيلمو» St. Elmo's Fire . . . فما هي قصة ذلك القديس وناره أو نوره ؟

في عام ١٥٢٠ كان أحد البحارة الإيطاليين يدون مذكراته عندما انضم إلى بعثة ماجيلان الشهيرة في المحيط الهادي ، إذ يجيء في مذكراته هذه الفقرة التي ننقلها نصا : «لقد ظهر لنا القديس إيلمو مرات عديدة ، فذات ليلة حالكة الظلام ، ظهر لنا على هيئة نار موقدة في أعلى الصاري الأساسي للسفينة ، فاطمأنت قلوبنا لذلك كثيرا ، بعد أن كنا نبكي بحرقة انتظارا لمصيرنا المحتوم من جراء عاصفة هوجاء . . . إذ عندما يظهر هذا النور على أي سفينة ، فإن ذلك يبشر بنجاتها من الغرق» !

وللقديس إيلمو كنيسة مشهورة باسمه في إيطاليا ، وقد عاش هناك حوالي ٢٠٠م ، وأحيانا ما كانت هذه الهالة تظهر على قمة الكنيسة كلما تهيأت الظروف الجوية لذلك ، ولما رأى البحارة الظاهرة ذاتها على قمم صواري سفنهم منذ مئات السنين ، كانوا يتباركون بها ويستبشرون ، فهي دليل على أن «روح» القديس قد حضرت ، وأن الرحلة ستكون مباركة ، ولهذا اعتبره القدامى «حارس كل بحارة البحر الأبيض ومنجيهم من الأخطار» !

لكن الظاهرة كانت أقدم من ذلك بكثير ، فالرهبان والمتصوفون الذين كانوا يعتزلون الناس ، ويلجأون إلى صوامعهم فوق الجبال والتلال ، كانوا عرضة لهذه الظاهرة الغريبة كلما تهيأت الظروف الجوية لذلك . ولما رأى الناس هذه الهالات المضيئة ، ولم يستطيعوا لها تعليلا ، بدأوا في اختلاق المعجزات والأساطير الدالة على كراماتهم .

وأحيانا كانت الهالة ذاتها تظهر على شجرة ، فتتوهج وكأنما هي تكاد تحترق ، ولهذا يذهب علماء الظواهر الجوية والطبيعية إلى القول بأن ما جاء في العهدين القديم والجديد من رؤية موسى لشجرة على الجبل ، وهي تكاد تحترق أو تضيء ، ربما كان أيضا ناشئا من هذه الظاهرة !

وظاهرة نار أو نور القديس إيلمو لم تزل موجودة حتى الآن ، وكثيرا ما خدعت بعض الطيارين ، فأبلغوا عن وجود حرائق وهمية تكاد تمسك بهامات الأشجار في الغابات ، ثم تبين فيما بعد أن ما ظنه الطيارون نارا أو حريقا ، لم يكن - في الحقيقة - إلا نار القديس المذكور ، رغم أنه بريء مما يدعون ، لأن الظاهرة لا ترجع إليه بقدر ما هي ظاهرة طبيعية .

التفسير العلمي للهالة الطبيعية

إن الهالة التي تتجلى على أي شيء قائم أو بارز أو مرتفع ، إنما ترجع إلى الكهرباء الجوية . فكما أن هذه الكهرباء تتخذ صورة البرق بعد عملية تفريغ مفاجئة بين الشحنات المختلفة الكامنة في أجزاء متفرقة من السحب ، فإن هذه الكهرباء قد تتخذ صورة أخرى على هيئة كهرباء إستاتيكية أو مستقرة ، أي أنها لا تسري كما يسري التيار الكهربائي المعروف لنا جميعا ، وهذا النوع من الكهرباء المستقرة ليس بضار في أغلب الأحيان ، فكل إنسان يستطيع أن يكتشف هذه الكهربية في قميص من الألياف الصناعية (النيلون والرايون وما شابه ذلك) ، فإذا نزع القميص من على الجسد ، فإن حركة نسيجه تعطي «طرقعات» خفيفة ومسموعة ، وهذه تعني تفريغ الشحنات الكهربية التي اكتسبتها ألياف النسيج من الجسم الحي ، وأحيانا ما ينجذب القميص إلى الجسم العاري إذا كانت المسافة بينهما بضعة

سنتيمترات ، كما يمكن مشاهدة شرر دقيق ينطلق من القميص في الظلام الحالك ، إذا كانت العين قد تهيأت لفترة للرؤية في الظلام .

ثم إن مثل هذه الهالات التي ظهرت وتظهر على رؤوس القديسين ، أو قمم الأشجار والمآذن والكنائس ، ويعتبرها الناس معجزة ، مثل هذه الأمور يمكن إظهارها أو تكرارها في المعامل ، فقد أجريت تجربة على فتاة ، بحيث طلب منها أن تقف بمعزل عن الأرض ، ثم تضع يدها على مولد قوي للكهرباء الإستاتيكية ، فإذا بشعر رأسها يتباعد بعضه عن بعض كما ظهر وكأنه يضيء . وما كان هذا ليحدث إلا لأن جسمها كان يشحن بما يزيد على المليون فولت من هذا المولد القوي ، ومع ذلك لا تشعر إلا بوخز خفيف (أو تنميلة بسيطة على حد تعبير العامة) ، وما دامت الشحنة الكهربية واحدة ، فإن كل شعرة تكتسب نفس الشحنة ، ولهذا تتنافر الشعرة مع الشعرة (لأن الشحنات المتشابهة تتنافر) فتبدو الفتاة بمثل هذا الشعر المنفوش الغريب !

ويمكن توضيح ذلك أيضا بلعبة معملية طريفة ، فهناك مثلا جهاز صغير لتوليد شحنة كهربية ، تم توصيله إلى كُرات معدنية معزولة ، ثم إذا أتيت - بعد ذلك - بعدد من كُرات تنس الطاولة (البنج بونج) ، وعلقتها - كل في خيط مستقل - ثم قربتها من الكرة المشحونة لتلمسها ، فإنها تكتسب الشحنة ذاتها ، وتحتفظ بها على هيئة كهربية ساكنة ، ومن ثم يحدث تنافر بين الكرة المعدنية وبين الكرات المعلقة ، ثم يظهر تنافر آخر بين كل كرة وأخرى لها نفس الشحنة .

لكن البحوث المعملية تنتقل عادة إلى حيز التطبيق ، فقد نشرت صورة لطائرة تبدو وكأنما النار قد اشتعلت في محركاتها وجناحيها وذيلها ورأسها . لكن هذه النار ليست - في الواقع - نارا حقيقية ، بل هي توضح لنا ظاهرة القديس إيلمو ، أو بمعنى أدق : توضح ظاهرة من ظواهر الكهرباء الإستاتيكية أو الساكنة . . . كما أن هذه الطائرة (التي

نشرت صورتها كثيرا) لم تكن محلقة في الجو، ولا هي طائرة حقيقة، إنما هي نموذج مصغر لطائرة مشحونة بكهرباء مستقرة، فظهر عليها هذا الوهج أو هذه الهالة المثيرة. لكن العلماء هنا لا يتسلون، ولا يريدون إثبات أن ظاهرة القديس إيلمو ليست إلا نوعا من الكهرباء الساكنة، إنما هم يقومون بهذه التجارب لأن بعض الطيارين قد قرروا أنهم - تحت ظروف جوية خاصة - شاهدوا هذه الهالات العجيبة وهي تحيط بطائراتهم في أثناء تحليقها في الجو، وأن هذه الكهربية كانت تحدث تداخلا في أجهزة الاتصال، كما أنها قد تصبح هدفا مباشرا لعملية تفريغ مفاجئ من شحنة مضادة، وقد يؤدي ذلك إلى احتراق الطائرة، ومن هنا انبثقت بحوث العلماء، علهم يتجنبون هذا المصير.

فهناك مثلا حادثة مشهورة وقعت للمنطاد «هندنبيرج» الذي عبر المحيط الأطلنطي بنجاح في مايو عام ١٩٣٧، وعندما توقف بسلام في مطار «ليكهيرست» بأمريكا، اشتعلت فيه النيران بسبب تسرب غاز الأيدروجين، واختلاطه بالأوكسجين، ثم حدوث شرارة من الكهرباء الساكنة على المنطاد، فأدى ذلك إلى اشتعاله وتدميره. ولهذا احتاط العلماء للأمر مع حاملات البترول الضخمة، فزودوا خزاناتها بوسائل خاصة، لتفرغ الكهرباء المتجمعة عليها، حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه.

والواقع أن هذه الظواهر نادرة الحدوث، وهي تتطلب ظروفا جوية خاصة تساعد على توليد الكهرباء، لتشحن بها جزيئات الهواء، وقد تلامس تلك الجزيئات إنسانا معزولا عن الأرض، كأن يكون واقفا أو جالسا على مقعد خشبي، أو مرتديا لحذاء عازل، فتتجمع هذه الشحنات فيه، ولا يزال يستقبلها حتى يصل إلى الدرجة التي يظهر فيها وكأنما النار تشع منه، أو كأنما هناك هالة نورانية تجذب اهتمام الإنسان، وتثير خياله، فينسج حولها الأساطير!

ذكرنا ما ذكرنا ليتبين لنا كيف يحدث الخلط بين ظواهر مدروسة ومعروفة علميا ، وبين ما لا يزال عالقا في الأذهان من أوهام تنسب إلى العلم ، ويقال إنه حققها وعاينها واعترف بها ليسلم الناس بهذه الخرافات تسليما .

عودة إلى التصوير الكيرلياني

إن أخطر الأمور التي يواجهها العلم ، هي الاستعانة بأدواته وتقنياته لاستخدامها في مجالات التدليس والشعوذة . ومن هذه الأدوات يبرز التصوير الكيرلياني الذي يعطينا صورا غريبة ، والتي وصفها كيرليان بنفسه فيقول «تظهر على هيئة قنوات تفرغ فيها الشحنات ، فتتخذ أشكالا شتى على هيئة نقط أو هالات أو توهجات ضوئية ذات تجمعات ساطعة ، وتبدو على هيئة ألوان مختلفة مثل الأزرق والأرجواني والأصفر ، وقد تكون هذه الألوان واضحة أو شاحبة . . . وعلى بعض قطاعات من الجلد تتوهج نقط بألوان زرقاء أو بلون الذهب ، كما أن بعض هذه التجمعات التوهجية قد تقفز من نقطة على الجلد إلى نقطة أخرى ، حيث تمتص فيها . . .» الخ .

ولا شك في أنك قد لاحظت أن هذا الوصف الذي جاء على لسان الرجل أكثر واقعية من الوصف الذي قدمناه على لسان بعض الكتاب ، وقلنا عنه إنه لا يرقى إلى النشر في المجلات العلمية المتخصصة ، لأن أدعياء العلم قد التقطوا هذا الخيط ، وبدأوا في تحويره بما يتلاءم وأنماط تفكيرهم . . . فالهالة أو الأضواء ذات الألوان المختلفة التي تظهر في أثناء التصوير ليست من القوى الخفية التي يزعمونها ، ولا هي هالة روحانية ، بل يرجع ذلك إلى أمور كثيرة سوف نتناولها فيما بعد .

أذكر أنني حضرت محاضرة في هذا المجال دعت إليها هيئة جامعية لها قدسيتها ووزنها ، وكان المحاضر أيضا أستاذا جامعيا ـ هو

الدكتور رؤوف عبيد صاحب المؤلفات الكثيرة جدا في مسألة الروح ، والمنقولة أصلا عن كتب غير علمية ـ وكان أهمَّ ما عرضه علينا صور لأرواح زعم أنهم صوروها بآلات تصوير خاصة ، ومنها ـ بطبيعة الحال ـ التصوير الكيرلياني ، وثارت مناقشات ومجادلات كثيرة ، وقد أثارني ذلك إثارة فكرية شديدة ، فعدت لأقلب في كل مراجعي وفي دوائر المعارف العلمية والتكنولوجية ، علني أعثر فيها على شيء ذي أهمية ، فلم أجد مجرد إشارة لهذه البحوث الغريبة التي يزعمون أن لها أقساما ومعاهد ملحقة بأعظم الجامعات وأرقاها . . . كل ما هنالك أنني وجدت بحوثا كثيرة عن علم النفس بشقيه : النظري والتجريبي ، وعلم الطب النفسي ، ولا نحسب أن ذلك مما يدخل في الروحية التي يدعون أنها علم أصيل .

وهناك صورة الرجل «النوراني» ، وهي من الصور النادرة التي وزعها ويوزعها أدعياء البحوث الروحية ، على أنها لروح مجسدة تشع من «أكتوبلازمها» هالات من نور ، والأكتوبلازم ـ كما يزعمون ـ هي مادة الروح ، وليست الروح مادة علي أي حال ، لكن الصورة توحي بذلك ، فماذا تعني تلك الهالة ـ من وجهة نظر العامة ـ إلا أنها لروح قد حضرت وتجسدت ؟

لكن الصورة ـ في حقيقة الأمر ـ لرجل يدعى دكتور أسترونج . . . رجل حي بلحمه ودمه ، لكن هذه الهالة قد جاءت نتيجة لوقوف الرجل في مجال كهرومغناطيسي يبلغ تردده مليون سيكل ، أو فرق جهده قدره نصف مليون فولت ، ولقد التقطت هذه الصورة منذ أكثر من ستين عاما ، وهي نتيجة للكهرباء الإستاتيكية التي سبقت الإشارة إليها ، ثم وقوع المادة تحت تأثير قوى كهرومغناطيسية أو موجات من الإشعاع ، فتؤثر فيها وتثيرها ، لتنطلق منها موجات ، وعندما تصطدم هذه الموجات بفيلم حساس من نوع خاص ، فإنها تؤثر في الفيلم ، ويبدو الشيء وكأنما هو يشع بهالات «نورانية» يكون لها في الأوساط

غير العلمية تأويلات خاطئة ، كأن يرجعوها إلى بعض البشر الذين أوتوا شفافية خاصة ، أو أولئك الذين تهيأوا للوساطة الروحية ، أو الذين يعالجون روحيا عن طريق القوى الخفية الكامنة في أجسامهم ، والتي قد تنطلق عن طريق أصابعهم إلى المرضى . . . إلى آخر هذه الأمور التي جعلت العلماء التجريبيين يبتعدون عن هذا المجال ، حتى لا يتهموا بما ليس فيهم ، تماما كما حدث في مجال التنويم . فالتنويم ظاهرة معترف بها علميا ، وأحيانا ما تستخدم في المجالات الطبية والنفسية ، لكنها ـ مع ذلك ـ لا تلاقي ترحيبا في الأوساط العلمية ، لأن هذا المجال قد انتقل من دائرة البحث العلمي إلى المسارح ، وشاع في أوساط الدجالين والمشعوذين ، وهو ما أسموه بالتنويم المغناطيسي ، مع أنه لا ينتمي للمغناطيسية من قريب أو بعيد ، بل جاءت التسمية هكذا نتيجة لزعم خرافي خاطئ ، بل إن التنويم نوع من الإيحاء والسيطرة على الوعي الإنساني تحت ظروف خاصة ، لكن البعض اتخذه وسيلة لقراءة الغيب ، وشفاء الأمراض ، والكشف عن المسروقات . . . إلى آخر هذه الادعاءات التي لا تجوز إلا على أصحاب العقول الضعيفة !

والواقع أن هذا النوع من التصوير الكيرلياني ، كان من الممكن أن يتطور ويستخدم في المجالات العلمية المختلفة كوسيلة من الوسائل التي توضح حالات المادة ـ حية أو جامدة ـ وهي واقعة تحت تأثيرات طاقات ذات درجات متباينة ، وكان من الممكن أيضا أن يؤدي إلى تقدم في العلوم البيولوجية والطبيعية . . . الخ ، لكن العلماء هجروه عشرات السنوات ، وتركوا المجال لأدعياء العلم يصولون فيه ويجولون ، ويؤكدون أنه من الممكن تصوير الأرواح تحت حالات خاصة ، أو استخدام بعض ذوي القدرات أو الطاقات الخفية لعلاج المرضى ، وتصوير هذه الحالات أثناء العلاج ، وكان العلم في هذا

المجال سلبيا ، لكنه عاد منذ سنوات قليلة ، وأراد أن يصحح هذه المفاهيم الخاطئة ، ويضع لنا النقط فوق الحروف .

بعض الصور المنشورة هنا تشير إلى أن الظاهرة روحية ، أو هكذا ادعى الذين التقطوا هذه الصور ليعرضوها في كتبهم التي ألبسوها ثوب العلم ، ومع ذلك ، فكل مادة تقع تحت جهد كهربي محدد ، تفرغ شحناتها على أفلام حساسة ، فتظهر على الأفلام توهجات ذات أنماط مختلفة ، فإذا تغيرت طبيعة الشيء الذي يراد تصويره ، أو تغير نوع الفيلم الحساس ، أو اختلفت شدة المجال الكهربي ، تغيرت الظاهرة الكيرليانية تبعا لذلك .

هناك مثلا من جاءوا بصليب وصوروه بهذه الوسيلة ، فظهرت للصليب صورة وكأنما هو نوراني الصفات . . . المسيحي العادي يعتبر ذلك معجزة ، لكن رجل العلم التجريبي الذي يدرك مغزى هذه اللعبة ، لا يعترف كثيرا بمسألة المعجزات . . . فالهلال أو الصليب أو النجمة أو الإنسان أو أي كائن حي آخر ، أو أي شيء له بين الناس قداسة خاصة ، يمكن بخدعة ذكية (أو حتى غير ذكية تماما) أن يبدو أمام الناس بظاهرة غير عادية ، كأن يضيء مثلا في الظلام ، أو يبدو متوهجا ، أو تلتقط له صور في ظلمة تامة ، دون أن يستخدم في ذلك أي مصدر ضوئي كما هو الحال في التصوير العادي ، فإذا بالصور تبدو مضيئة ، أو كأنما هي تشع نافورات من أضواء ذات ألوان شتى ، ويتم نشرها على البسطاء بقصد خداعهم ، رغم أن لكل حالة من تلك الحالات تعليلا ينبع من طبائع الأشياء . . . لا من أهواء الناس !

فالصور التي التقطت لأوراق النبات (أو أي جزء آخر) وهي موضوعة تحت مجالات خاصة ، قد جاءت بهالات عجيبة على الأفلام الحساسة . . . ولقد اختلفت ألوانها ، وتعددت توهجاتها باختلاف الفيلم الحساس ، والفترة التي تعرض فيها لتفريغ الشحنات ، وشدة الشحنة المفرغة . . . الخ .

هناك مثلا ثلاث وسائل للتصوير الكيرلياني نذكر منها واحدة فقط لصلة ذلك بالتقاط صور لأصابع الإنسان ، مع أنها لا تختلف في المضمون عن الطريقتين الأخريين ، إذ يكفي أن يوضع طرف أصبع أي إنسان على فيلم حساس ، وبحيث يكون سطحه الحساس ملاصقا للأصبع أو قريبا منه (ما بين ۰۱ر ۰ ـ ۱ ملليمتر) ، أما السطح الآخر للفيلم فيرتكز على لوح عازل للكهرباء ، والعازل بدوره يتصل بقطب كهربي ذي فولت عال يتراوح ما بين عشرة آلاف ومائة ألف فولت .

وتؤخذ الصور دون أي مصادر ضوئية ، إذ تكفي الشحنة أو الشحنات التي تفرغ من الأصبع أو أي جزء من جسم الإنسان أو النبات أو الحيوان ، في التأثير في الفيلم الحساس ، والانتشار فيه ، فتعطي صورا شتى .

والآن يبرز أمامنا سؤال مهم : هل هناك صلة بين هذه الهالات وعالم الروح أو الطاقات والقوى الخفية وبين التصوير الكيرلياني ؟ . . . وما هي طبيعة هذه الهالات التي تحيط بالصور المنشورة هنا؟ . . . وهل هي تنزف نورا أو نارا ؟ . . . ثم إذا قطعنا غصنا أو جزءا من ورقة نبات ، فهل يتجسد الجزء المقطوع ، ويظهر بدوره وكأنما هو ينزف دما ـ على حد ما جاء في الفقرات التي سبق أن قدمناها نقلا عن كتب غير علمية ؟

الواقع أن هذه الهالات لا تظهر إلا من خلال تفريغ الشحنات الكهربية على الفيلم الحساس . . . أي أن الهالة ليست نابعة من طبيعة الأشياء ، بل هي نتيجة حتمية لوضع الشيء في مجال كهربي ، فتقفز منه الإليكترونات بموجاتها المصاحبة لها وتؤثر في الفيلم ، وهذا يعني أن هناك تفاعلا بين الشحنة التي قفزت وبين المواد التي تدخل في حساسية الأفلام ، فإذا كان الفيلم ملونا ، نتج عن التفاعل ألوان شتى ، يحسبها الناس نزيفا من الدم أو أي تصورات أخرى رديئة !

بمعنى آخر نقول : إنه لا علاقة على الإطلاق بين مسألة الروح وهذه الهالات ، كما أن الأجسام لا تنزف ضوءا ولا دما ، بل إن «النزيف» لشحنات جهزناها لهذا الغرض ، وهي الأساس فيما ظهر في الصور .

على أنه من الممكن أيضا أن نظهر هذه الهالات عن طريق الحرارة التي تشع من الأجسام ، فالحرارة نوع من الإشعاع الذي لا تراه عيوننا ، وهذا الإشعاع نسميه الأشعة تحت الحمراء ، وهي تقع مباشرة فيما وراء حدود اللون الضوئي الأحمر الذي نراه في ألوان الطيف ، فعيوننا مهيأة فقط لترى في حدود لا تتعداها ، أي أنها تتأثر بموجات كهرومغناطيسية تتراوح أطوالها ما بين ٠٠٠٤ر٠ - ٠٠٠٧ر٠ من الملليمتر (وهذه هي حدود الضوء المنظور الذي ينعكس إلى عيوننا فنرى به الأشياء ، فإذا زادت أطوال الموجات على ذلك قليلا (أي تصبح أشعة تحت حمراء ونحس بها فقط كحرارة) ، أو نقصت قليلا (أشعة فوق بنفسجية) فإننا لا نرى هذه أو تلك ، بل يمكن رؤيتها بوسائل تصوير خاصة ، تستخدم فيها أفلام خاصة .

لو أننا أتينا إلى إنسان نائم في ظلام حالك ، ووجهنا إليه آلة تصوير بالأشعة الحرارية أو تحت الحمراء ، فإنها ترصد الحرارة المنبعثة من جسمه ، وتنقلها إلى الفيلم الحساس ، فيتأثر بها ، وعند تحميضه تظهر حوله هالة غريبة ، تتركز حول جسمه ، ثم تخف شيئا فشيئا كلما ابتعدت عن الجسم . . . وهذا النوع من التصوير له تطبيقات شتى ، منها مثلا الكشف عن الثروات المدفونة ، أو أسراب الأسماك بطريقة الاستشعار عن بعد !

لكن هذه الظاهرة قد تحولت إلى خرافة ، ونسبت زورا إلى الأرواح ، والدليل على ذلك هو ما جاء في كتاب «أرواح وأشباح» ، ففيه تجد تلك العبارة التي نعيد تسجيلها هنا «وقد دلت الصور التي أخذت لبعض الموتى

بعد الوفاة بساعات ، على أن هناك شكلا ضوئيا ملاصقا للجسم وقريبا منه ، ويظل هذا الشكل الضوئي ، أو هذا الغشاء المضيء موجودا بعض الوقت ثم يختفي تماما» !

ولا يخفى على لبيب ما تحمله هذه العبارة من مغزى خرافي ، فبعض الموتى قد تظهر لهم هذه الظاهرة إذا كانت أجسامهم أعلى حرارة من الجو البارد الذي يحيط بهم ، وعندئذ تشع منهم الحرارة شيئا فشيئا ، إلى أن تبرد أجسامهم ، وهذا الإشعاع هو الذي ينتقل إلى الفيلم الحساس ويؤثر فيه ، فيظهر حول الجسد المسجى تلك الهالة ، لكنها لا تظهر في بعض الموتى إذا كانت أجسادهم أبرد من الجو المحيط بهم ، لأن الإشعاع الحراري لا ينتقل ـ بطبيعة الحال ـ من الوسط البارد إلى الوسط الساخن ، بل العكس هو الصحيح تماما !

أي أن لكل ظاهرة سببا ، ولكل أمر تعليلا يتبع نواميس الكون والحياة ، لا أن نربطها بخزعبلات وقرت في العقول منذ زمن طويل ، ولا تزال .

ثم إن الذين يربطون بين إحساس بعض من بترت ساقهم أو ذراعهم بوجود هذه الساق أو الذراع ، وبين صور أخذت لأوراق بترت منها أجزاء ، ثم أظهر التصوير الكيرلياني هذه الأجزاء المبتورة ، ثم راحوا يؤكدون أن ذلك دليل على حضور «الروح» في الجزء المبتور ، أو برهان على حقيقة الجسم الأثيري ، أو انفتاح على قوى خفية غير معروفة ، كل هذا وغيره ليس صحيحا بالمرة . . . هذا ولقد سبق أن أوضحنا موقف العلم من إحساس بعض من بترت سيقانهم بألم في الساق ، رغم أن الساق غير موجودة ، لكن . . . ما هو التفسير الذي يوضح لنا سر ظهور جزء مبتور من الورقة رغم أنه غير موجود ؟

الواقع أن هذه الظاهرة ـ أو كما يطلقون عليها اسم «أثر الورقة الشبح» Phantom leaf effect لم يتوصل أحد إلى تحقيقها ، فعندما أعيدت هذه التجربة في الولايات المتحدة على نفس المنوال الذي أجريت به

في روسيا ، لم يظهر أي أثر للجزء المبتور ، ومن هنا حامت حول حقيقتها الشكوك والشبهات ، وما دام الأمر كذلك ، فإن العلم لا يستطيع أن يقدم تفسيرا لشيء لم يتحقق ، وربما كانت الصورة الوحيدة التي ظهرت للورقة المبتورة بالتصوير الكيرلياني تنطوي على خدعة لشيء وقر في نفس مَن صوّرها ، أو قد يكون هناك آثار لجزيئات عضوية ، من الورقة قد تركت على الفيلم الحساس ، وربما كانت هذه الجزيئات وسطا لانطلاق الشحنات الكهربية من خلالها ، فأدت إلى هذه الظاهرة المشكوك في صحتها حتى الآن .

ومثل هذه الصور الخادعة ـ التي لم يمكن تكرارها ـ كثيرة جدا ، ومجالها يتركز فيما يطلقون عليه اسم التصوير الروحي ، فعندما حاول بعض العلماء التدخل في هذا الأمر بالوسائل العلمية المشروعة ، فشلت كل المحاولات ، بدعوى أن القادر على ذلك وحده هو المصور الروحي ، إذ إنه مهيأ دون غيره للوساطة الروحية ، أو على حد ما جاء في كتاب «القوى الخفية» بالحرف الواحد «أن الفرق بين المصور العادي ، والمصور الروحي ، كالفرق بين ماء الحنفية ، والماء الذي توضع فيه الصور لتظهر ملامحها ، فالماء العادي ليست فيه المادة القادرة على إبراز معالم الصور ، وكذلك المصور العادي والمصور الروحي» !

وفي هذا القول أو التعليل خلط وتضليل ، فهو يوحي إلى القارئ العادي أن المصور الروحي قد امتلك قدرة خاصة ، أو اكتسب تكوينا جسديا وذهنيا فريدا يختلف عن تكوين أجسامنا ، أي أنه من طينة غير طينة البشر ، والفرق بيننا وبينه كالفرق بين ماء عادي وماء به المواد التي تظهر الصور عند طبعها وتحميضها ، وهذا أمر لم تثبت صحته على الإطلاق ، فكلنا من آدم ، وآدم من تراب .

ثم ما الذي يمنع أي إنسان من تصوير الأشباح والأرواح ما دامت هذه الظاهرة صحيحة ومتكررة ، خاصة أننا نستخدم لذلك أدوات العلم ووسائله ، وهي نفس الوسائل التي يستخدمها هؤلاء المضللون لإيهام الناس بوجود شيء غير موجود أصلا ؟

وإذا كان تحضير الأرواح ممكنا ، وله أيضا طرقه ووسائله ، فلماذا لا تتكرر هذه الظاهرة على مسمع ومشهد من العلماء الساعين الى تحقيقها بمساعدة هؤلاء الأدعياء أنفسهم ؟

الواقع أنه كلما حضر العلم للتحقيق ، اختفت هذه الخفافيش المحلقة في ظلمات الدجل والشعوذة والأباطيل ، فليس لهم من سلطة أو سلطان على الروح ، ولا هم يدركون مغزاها ، ولا يستطيعون لها تجسيدا ، لأن الروح لا تظهر على الأفلام الحساسة إلا إذا كانت متجسدة ، فتعكس موجات الضوء أو تشعها من خلال المادة الكامنة فيها . . . إذ لا شيء يأتي من لا شيء ولا إشعاع دون مشع ، وعندما يتقبل الفيلم الحساس هذا الإشعاع يتأثر به ويسجله ، فهل يمتلك البشر هذه القدرة الفذة العظيمة في السيطرة على الأرواح التي يدعونها ، ويحيلونها إلى أجسام تتكلم وتأكل وترقص وتؤلف الأشعار ؟

لو أن ذلك قد حدث ـ و هو ما لم يحدث قطعا ـ لشاركوا الخالق في قدراته التي ليست لها حدود ، وهذا ما لا يمكن أن يتأتى لبشر ، والقول الفصل في ذلك ﴿ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ . . . وهذا القول أيضا يتماشى مع المنطق العلمي ، ولذلك لم ترد الروح أبدا في أي مرجع علمي ، ولا هي مادة من بحوثه التي تقوم على أساس .

وفي هذا الكفاية لقوم يدركون فيفقهون !

القول الفصل في مزاعم خاطئة

بعد أن تعرضنا لبعض جوانب هذا الموضوع الكبير ، نعود لنؤكد أن ما ظنه الناس انبثاقات أو طاقات أو قوى خفية تنطلق من الأجسام الحية ، ليس واردا في التفكير العلمي على الإطلاق .

فالخرافات الكثيرة التي يحشو بها الكتاب غير العلميين كتبهم ، ويخدعون بها غيرهم ويوهمونهم بأن «بعض الناس عندهم طاقة كامنة . . . هذه الطاقة في استطاعتهم أن يتحكموا فيها ويوجهوها إلى الآخرين بصورة نافعة أو ضارة . . . وفي كل كتب التاريخ ـ كتب الدين والسحر في كل العصور ـ أناس لهم القدرة على شفاء الآخرين بمجرد الاقتراب منهم ، أو بمجرد أن يلمسوهم» !

أغرب من ذلك أن الكاتب الذي كتب الفقرة السابقة في أحد كتبه ، يتهم العلماء بأن نظرياتهم جامدة ، وعليهم أن يعاودوا النظر فيها . . . أي عليهم أن يؤمنوا بالخرافات التي يدعيها المشعوذون والدجالون . . . عليهم مثلا أن يصدقوا أن ضابطا روسيا متقاعدا كان يعالج آلام الروماتيزم وأوجاع الظهر . . . ويقول المرضى الذين عالجهم هذا الضابط «إنهم كانوا يشعرون بلهب من النار يخرج من يديه ، مع أن الذي يلمس يديه يجد أنهما باردتان ترتجفان . . . وبعض المرضى كان يقول إن النار كانت تلسع أماكن الألم في الظهر أو المفاصل أو في العنق . . .» الخ .

أو أن هذه القوى الخفية تنبعث من بعض الأصابع لتحفظ اللحم من التعفن أياما طويلة ، وربما كانت هذه القوى المزعومة من نوع الأشعة فوق البنفسجية التي تقتل الميكروبات في اللحم ، فلا تجعله يتعفن ، ولم يتوصل العلم حتى الآن ـ ولن يتوصل بعد الآن ـ إلى اكتشاف أن بعض الأصابع تطلق أشعة قاتلة !

ومن الأمور التي يجب على العلماء تصديقها حتى لا يتهموا بالجمود ، أن بعض الأشخاص «كانوا يضعون البذور في أيديهم بعض الوقت ، ثم يضعونها في التربة ، وقد أكدت التجارب أن البذور التي وضعوها في أيديهم تنمو أسرع وأقوى من البذور الأخرى التي لمسوها» !

وخرافات أخرى كثيرة جدا ينسبونها إلى العلم والعلماء ، ويؤكدون صحتها ، ومع ذلك لا تجد لها أثرا واحدا في المراجع العلمية ، ولو صحت هذه الخرافات ، لسارع العلماء بتبنيها وصقلها وتطويرها ثم نشرها على الملأ .

لكن التضليل يبلغ منتهاه عندما يحاول الكتاب أن يربطوا بين هذه القوى الخرافية الخارقة ، وبين ظاهرة التصوير الكيرلياني ، إذ يرجعون ذلك إلى طاقات خفية تخرج من أصابعهم ، وتتجلى للعيان عن الأفلام الحساسة «كبراكين من الدم . . . أو سيول من النور . . . أو ألسنة من اللهب» ! . . . وأن هذه الطاقات التي يمتلكها بعض البشر قادرة على أن تعطل نواميس الكون ، وتخرق شرائع الحياة ، وتتلاعب بالقوانين الصامدة التي لا يأتيها الباطل أبدا «ولن تجد لسنة الله تحويلا» !

فواقع الأمر أن ما يظنه هؤلاء الكتاب الخياليون قوى تنطلق من الأصابع ليس لها من وجود على الإطلاق ، إنما هي راجعة أساسا إلى الشحنات الكهربية التي تقفز من الأشياء الحية والجامدة عند تعريضها لمجالات كهربية ذات جهد عال ، فتفرغ ما شحنت به على الأفلام الحساسة . . . أي أن الطاقة المفرغة هنا ليست نابعة من طبيعة البشر ولا الحيوان أو النبات أو الجماد . . . بل إن ظهور الهالة حول صور للأصبع أو راحة اليد ، أو الورقة والصرصور ، أو أي عملة معدنية ، إنما هي ظاهرة كهربية يعرف العلم تعليلها تماما ، وهي راجعة أساسا إلى وضع أي شيء في مجال كهربي تحت جهد عال سبقت الإشارة إليه ، ولو لم توضع هذه الأشياء ، تحت تلك الظروف ، ما ظهرت فيها تلك الظاهرة المثيرة !

ومن هنا وجب تصحيح المفاهيم الخاطئة التي يتردى فيها من يكتبون عن ظواهر لا يعلمون عن طبيعتها شيئا ، ولا يستطيعون أن يرجعوا الأسباب إلى مسبباتها !

لكن علينا أن نعود ـ بعد هذا التصحيح ـ إلى بعض البحوث القليلة التي تمت بواسطة التصوير الكيرلياني ، والتي قيل عنها إنها قد تنفع البحوث الفيزيائية والبيولوجية ، وأنها قد توضح لنا حالات الجسم الإنساني في الصحة والمرض بشقيه : العضوي والنفسي .

فالبحوث القليلة التي تمت في الاتحاد السوفييتي مثلا ، لم تجد تطبيقا سليما بقدر ما انبثقت عن ذلك في عام ١٩٦٨ نظرية غريبة قدمها لنا ستة علماء سوفييت ، وعلى رأسهم العالم البيولوجي دكتور فلاديمير إينيوشين ، إذ يذهبون إلى القول بأن هذا التصوير الكيرلياني يوضح لنا أن الكائنات الحية لا تتكون فقط من ذرات وجزيئات وخلايا مادية ، بل يكمن فيها ما أطلقوا عليه «الجسم البلازمي الحيوي» ، وأن هذه البلازما الحيوية Bioplasma يمكن تشبيهها بالهالة أو الجسم الأثيري أو الجسم الكوني (أو النجمي) Astral body ، الذي ورد في الفكر اليوجي أو الهندي القديم ، لكن العلماء الستة لم يقدموا لنا إلا نظرية لم يقم على صحتها أي دليل علمي حتى الآن ، ولهذا يعتبرها العلماء «فرقعة» في المحيط العلمي ، ولن يستفيد من ذلك ـ بطبيعة الحال ـ إلا الذين يؤمنون بالأساطير القديمة ، أو الذين يدعون القدرة على تجسيد الأرواح .

والواقع أن ظاهرة التصوير الكيرلياني لم يمارسها علماء الغرب إلا في الستينيات من هذا القرن ، وكان الهدف من ذلك أن تستخدم هذه الظاهرة في الكشف عن تأثير الخمور والأدوية المختلفة ، والأمراض العضوية والنفسية وما شابه ذلك ، ولقد كانت ثيلما موس من جامعة كاليفورنيا سباقة في هذا المجال ، وذكرت أنها وجدت اختلافات

كثيرة في الصور الناتجة ، وأنها توصلت إلى بعض علاقات بين لون الصور الذي تحدثه الطاقة الكهربية المفرغة من الأصابع ، وبين بعض الحالات المرضية والذهنية ، وأن لون الصور كان يختلف من الأبيض إلى الأزرق والأحمر والبرتقالي والأصفر ، لكن هذه البحوث قد خيم عليها الشك والريبة عندما أعلنت ثيلما موس أن هناك تغيرا واضحا في الصور التي التقطتها لورقة نبات أصابها بعض التدمير ، ثم الأثر الطيب الذي تركه أحد «المعالجين الروحانيين» عندما وضع الورقة بين راحة يديه ، وكأنما نحن نعود إلى تلك الحلقة المفرغة التي تعطينا انطباعا بأن هذا التغيير في طبيعة الصور ، يرجع إلى القوى الخفية الكامنة في أيدي بعض من يدعون القدرة على تغيير طبائع الأشياء ، من خلال ما امتلكوه من قدرات خارقة .

وهناك ـ بعد ذلك ـ تجارب كثيرة لجمعيات خاصة غير علمية ، أو لأفراد يهتمون بما أسموه «البحوث الروحية» ، ولهذا أرجعوها إلى ظواهر خرافية للعلم فيها رأي حاسم وقويم ، لكن علينا أن نعود لنسأل أنفسنا سؤالا محددا : ماذا تعني حقا هذه الاختلافات التي نراها واضحة في بعض الصور التي ينشرها المؤيدون لهذه الظواهر؟

الواقع أنها لا تعني شيئا رغم غرابتها . . . صحيح أنها تدفع المتحيزين للمسائل الروحية ، أو المعتقدين في الطاقات الخفية إلى مزيد من التحيز لعقيدة وقرت في نفوسهم دون اعتبار لأي شيء آخر ، خاصة أن أحدا من العلماء لم يستطع أن يفسر لهم السر في اختلاف الصور أو ألوانها الناتجة من أصبع إنسان ، تحت حالات نفسية وعاطفية ومرضية مختلفة .

لكن القول الفصل في تفسير هذه الاختلافات يرجع ـ في المقام الأول ـ إلى دكتور ويليام تيللر ـ أستاذ علم المواد بجامعة ستانفورد الأمريكية ، إذ نشر بحثا بإحدى المجلات العلمية (نيوساينتيست

البريطانية New Scientist) يذكر فيه أن الصور الناتجة لم تلتزم حقا بالدقة العلمية ، فلكي تقفز شحنة كهربية من الأصبع أو أي شيء آخر لتضرب الفيلم الحساس بموجات من الأشعة المنظورة أو غير المنظورة ، فإن أثرها لابد أن يختلف ، والاختلاف يرجع إلى عوامل عدة ، والباحثون ـ سواء في داخل المعامل الجامعية أو خارجها ـ لم يضعوا هذه العوامل في الحسبان .

دعنا نوضح ذلك بمثال ملموس من واقع عالمنا ، فالشحنة الكهربية الجوية المفرغة بين الجو والأرض (أي البرق) تختلف في شكلها وتفرعها وشدتها عن أي شحنة أخرى ، ولهذا لا يتشابه مسار انطلاق هذه الشحنات بين «السماء» و «الأرض» تشابها تاما .

وكل الصور المنشورة لظاهرة كيرليان ليست ـ في الواقع ـ إلا عملية تفريغ لشحنات البرق ، مع الاختلاف طبعا بين ضآلة شحنة ، وضخامة أخرى . . . أضف إلى ذلك أن قوة هذا التفريغ بين الأصبع وبين الفيلم الحساس تتوقف على عوامل نذكر منها : المسافة بين الأصبع وبين الفيلم الحساس ، ونوع الفيلم ، وفرق الجهد الكهربي ، وعدد مرات التفريغ ، والزمن اللازم لهذا التفريغ ، وسطح الأصبع (أو أي شيء آخر) وما علق به من بخار أو مواد غريبة . . . الخ .

ثم إننا لو كررنا التجربة ذاتها ، تحت الظروف ذاتها ، فإنها للأسف ، لا تعطي النتائج ذاتها ، ولو حاولنا معرفة أسباب هذا الاختلاف ، لكان ذلك في مقدور أي باحث مدقق غير متحيز . . . فضغط الأصبع ذاته على اللوح الحساس ، أو المسافات الصغيرة التي تفصل بينهما لا يمكن تقديرهما بحاسة اللمس أو النظر المجرد ، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى اختلاف واضح في طبيعة الصور . . . أضف إلى ذلك أن نظافة الأصبع ، أو تلوثه بالغبار أو أي مادة ، حتى لو كانت إفرازا عرقيا ، فإن ذلك أيضا كفيل بإظهار اختلاف في توزيع الشحنة ونوع الصور الناتجة .

والذين درسوا هذه الظاهرة دراسة علمية مقننة ودقيقة ، استطاعوا ـ على سبيل المثال ـ أن يعرفوا السر في اختلاف الألوان . فتكرار إطلاق الشحنات في زمن جد قصير ، يؤدي إلى ترسيب بعض المواد العضوية وبخار الماء على القطب الكهربي الشفاف ، وهذا من شأنه أن يعطيك نتائج خادعة من أصفر وبرتقالي وأحمر وكل ألوان الطيف الأخرى . فإذا نظفنا هذا القطب مما يكون قد علق به ، فإن الصور الناتجة لن تكون إلا مزيجا من اللونين الأبيض والأزرق ، وهما اللونان المتوقع ظهورهما بالفعل ، وسبب ظهور هذين اللونين بالذات يرجع إلى التركيب الكيميائي للفيلم ، وإلى نوعية الموجات المنطلقة من الشحنات .

والموضوع بعد ذلك قد يتفرع ويطول ، ولقد ألفوا فيه كتبا كثيرة ، لكن الكتب التي ظهرت ران عليها التحيز الواضح لأفكار خاطئة راودت بعض العقول ، ومنها قلة قليلة من العلماء ، والعلماء بشر أولا وأخيرا ، فمنهم من يميل إلى الغيبيات ويتحيز لها ، وذلك بحكم نشأته وتربيته في بيئة تؤمن بهذه الأمور ، فرجل العلم الهندي مثلا يتعامل دائما مع قوانين العلم الراسخة ، لكنه قد ينظر إلى تقديس الأبقار بنفس نظرة العوام ، وفي مصر وفي معظم البلاد العربية قد تصطدم بأساتذة يشغلون أرقى الرتب ، ويحملون أعلى الشهادات ، ومع ذلك يعتقدون كثيرا فيما يعتقد فيه العوام !

الأهم من ذلك أن الصور التي كانت لب هذه المؤلفات كانت صورا خادعة ، ولا يمكن ـ والحال كذلك ـ أن يبنى العلم على الخداع ، لأن الذين التقطوا هذه الصور ، لم يضعوا في اعتبارهم كل الاحتياطات الواجب اتخاذها في هذا المجال ، فعلى هذه الصور يتوقف تفسير النتائج ، ثم إنها ـ أي الصور ـ هي الشيء الوحيد المنظور أو المرئي في غابة متشعبة من عوالم غير مرئية ، ونقصد بهذه العوالم الشحنات والأيونات والموجات والذرات والجزيئات والتفاعلات الكيميائية المتغيرة التي تتم بينها . . . الخ .

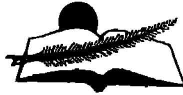
والواقع أن النفس البشرية تنفتح عادة على النتائج الإيجابية ، لكنها لا ترتاح للنتائج السلبية ، رغم أن النتيجة السلبية ـ أي التي لم تحقق فكرة وقرت في العقول ـ تصبح في نظر العلم نتيجة مهمة على أي حال ، لأنها استطاعت أن تحسم مسألة خاصة ، فتوجه أنماط الفكر إلى البحث عن شيء بديل .

ومع ذلك فنحن لا نريد أن نغلق الباب ، أو أن نشيح بوجهنا عن هذه الاجتهادات ، فربما بشيء من الصقل والإتقان والتقنين ، ووضع كل صغيرة وكبيرة في الحسبان ـ ربما يؤدي ذلك إلى اكتشاف علاقات بين الانفعالات النفسية ، أو التغيرات الجسدية ، أو التفاعلات الكيميائية التي تتم في أجسام الأحياء ، وبين هذه الصور واختلافاتها . . . وعندئذ يمكن تفسيرها علميا ، فلو أن الاختلاف قد حدث نتيجة لتغير في كيمياء البشرة ، أو في كفاءة التوصيل الكهربي للجلد ، أو في الجهد الكهربي بين نقطتين عليه ، أو في الانبثاق الإليكتروني الثانوي للجلد ، أو في المقاومة الكهربية الشاملة للنظام الحي ككل ، وتبع ذلك تغير في طبيعة التفريغ الكهربي على الفيلم ، مما قد يؤدي إلى اختلاف في الصور ثم ثبات هذا الاختلاف أو تكراره على نفس النمط ، وتحت نفس الظروف ، فإن ذلك قد يؤدي إلى اكتشافات علمية جديدة ومثيرة .

ولكي يتم ذلك حقا ـ وعلى حسب ما يذكر دكتور تيللر في بحثه ـ كان من الضروري أن نستنبط وسائل تصوير فوتوغرافي ذات جهد عال ، وفيها وبها يتم ضبط الفولت المستخدم ، أو تغييره حسب مقياس محدد ، ثم تحديد زمن التردد أو النبض الكهربي ، وسرعة تكرار هذا النبض ، والموجات المنبعثة نتيجة لهذا النبض ، والمسافات الدقيقة الكائنة بين الأقطاب الكهربية وبين الأشياء التي يراد دراستها ، وكيمياء الغازات التي تتخلل هذه العملية أثناء التصوير . . . الخ ، وفي الوقت ذاته لابد من تقنين العمليات

الكيميائية التي تتم في جلودنا ، وسرعة اندفاع الدماء فيها ، ودرجات حرارتها . . . الخ . . . الخ . فكل اختلاف في هذه النظم جميعا ، سيؤدي إلى اختلاف في الصور ، ولهذا لابد من تثبيت كل العوامل الداخلة في تلك الظاهرة ، ثم تغيير عامل واحد منها ، للحصول على نتائج يكون لها مغزى .

أما أن يقفز البعض إلى الاستنتاجات قفزا ، فهذا أمر لا يرحب به العلم أبدا ، ومن هنا كان صموده العظيم ، وإنجازاته التطبيقية التي لا نكاد نحصيها عدا .



الفصل الخامس

قوى روحيـة خارقة تـثـنــي المعــادن

ظل أدعياء الروحية سنين عدة وهم يتشدقون بتلك القوى الخارقة التي امتلكها شاب إسرائيلي يدعى يوري جيللر ، إذ يزعمون أن يديه أو عينيه تطلق طاقات خفية أخرست العلم والعلماء ، ووضعتهم في مأزق كبير ، ثم هو ـ بهذه الطاقة الروحية المكنونة ـ يستطيع أن يثني الشوك والملاعق والسكاكين ، ويحطم الساعات ، ويفلق قطع النيازك الصلبة التي هبطت على الأرض من الفضاء !

وفي أمثلتنا الشعبية نقول : إن العين قد فلقت الحجر ، لكن أحدا لم يشهد ذلك ، ولا يستطيع أن يقدم دليلا مقنعا على إمكان حدوث ذلك ، لكن كسر المعادن ، وثني الصلب ، وتحطيم الصخور بمجرد تسليط «الفكر الروحي» عليها ، أو مجرد النظر إليها ، لمن الظواهر المحيرة التي درسها بعض العلماء ، ورآها رؤية العين ، فسلموا بصحتها تسليما ، لكنهم لم يستطيعوا لها تعليلا ، فتركوا ذلك لعقيدة الإنسان في المقام الأول ، وقبعوا في معاملهم لا يلوون على شيء . . . هذا بعض ما يدعيه الذين يعتقدون في وجود تلك القوى الخارقة .

ولقد ذهب يوري إلى أبعد من ذلك ، وظهر في أكثر من برنامج تلفزيوني وهو يقوم بإظهار طاقاته الخارقة أمام الملايين ، فزادهم ذلك عقيدة بوجود ظواهر فيما وراء حدود العقل البشري ، وأنها تمنح موهبتها لمن تشاء من العباد . . . ومن هؤلاء يبرز يوري جيللر ، ليحتل في القلوب مكانا مرموقا !

في العام الماضي فقط كنا نتحدث عن المعجزات مع مجموعة لا بأس بها من المثقفين ، واحتدم النقاش ، وزادت حدة الجدل ، وراح مثقف من هؤلاء (من أنصار الروحية الحديثة وقد ألف فيها كتبا) يعرض علينا براهين قاطعة عن وجود قوى روحية خارقة ، وأن العلم قد درسها ، وتحقق من وجودها ، وأن المجلات العلمية قد نشرت أخبارها . . . الخ . . . الخ ، وفي الأسبوع التالي أحضر معه عددا من «أخبار الروحية» (العدد ٢١٨١ الصادر بلندن في ٢٣ مارس ١٩٧٤) . . . وقد خصصت الصحيفة الصفحة الأولى بكاملها ليوري جيللر ، وكتبت في صدرها بالبنط العريض «طاقات يوري جيللر قادمة من عالم آخر - هكذا يقول عالم مشهور» ؟

والعالم المشهور هو بالفعل دكتور أندريجا هنري بوهاريش الحاصل على درجة الدكتوراه في الطب ، وله ٥٦ اختراعا مسجلا في الأجهزة الإليكترونية التي تستخدم في دراسة الكائنات الحية ، وأهم هذه الاختراعات الاختراع رقم ٢٩٦٥٦٣٣ في قائمة براءات الاختراع الأمريكية ، وهو يختص بغرس جهاز استقبال إليكتروني دقيق يتصل بأحد أعصاب ضرس من الضروس ، فيحول موجات الصوت إلى موجات راديو ، لتنتقل عبر أعصاب الوجه إلى مراكز السمع ، فتجعل الأصم يسمع ، ولقد درت عليه هذه الاختراعات ثروة طائلة ، وفي الوقت ذاته كان مديرا للبحوث في شركة أمريكية متخصصة في إنتاج الأجهزة الإليكترونية والطبية ، وظل يشغل هذا المنصب عشر سنوات ، لكن اهتماماته التي شغلت حياته كانت في مجال البحوث الروحية (إن صح هذا التعبير) ، وكان دائم البحث عن الناس الذي يدعون امتلاك قوى روحية خارقة ، وأخيرا عثر على الشاب الإسرائيلي جيللر أثناء زيارته لإسرائيل ، إذ وجد فيه ضالته ، فأخذه معه وسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك قدم جيللر من المعجزات ما يعجز العقل عن التفكير فيه .

وهناك ظواهر غريبة استطاع جيللر أن يؤديها أداء حسنا ، ولقد وضع بوهاريش كل هذه الإنجازات في كتاب ألفه حديثا وأسماه «يوري» ، من ذلك مثلا أنه وضع لجيللر حلقة من الحديد ـ مميزة بعلامات خاصة ـ داخل صندوق محكم الغلق ، وعندما وضع جيللر يده على الصندوق لمدة دقيقتين ، أسر لبوهاريش أنه ظن أن الحلقة الحديدية قد اختفت ، وعندما فتح الصندوق ، ظهر أن الحلقة غير موجودة !

ويتدخل في الأمر إسرائيلي آخر يدعى إيتزاك بنتوف ، وهو زميل لبوهاريش في دراسة ظواهر جيللر المثيرة ، وقال إنه إذا كان باستطاعة جيللر أن يعيد الحلقة ذاتها إلى الصندوق وهو مغلق ، فإن ذلك يعني أنهم يتعاملون مع قوى كونية ذكية !

وقبل جيللر التحدي ، ووضع يده على الصندوق لمدة ربع ساعة ، دون أن يحقق نجاحا ، وعندئذ طلب من بوهاريش أن يضع أصبعا من أصابعه على جانب الصندوق الذي يواجه الشمال ، وفي اللحظة التي تم فيها ذلك ، انطلق صوت شيء معدني وكأنما هو يستقر في قاع الصندوق ، وعندما فتحوه ، وجدوا الحلقة التي اختفت لست ساعات طوال ، دون أن يعرف أحد أين كانت قبل ذلك ، وكان هذا تشجيعا للمجموعة على إجراء مزيد من البحوث للتدليل على هذه الطاقة الخفية !

ويذكر بوهاريش أنه كان ينوم جيللر بالإيحاء ، ويتحدث إليه وهو منوم ، فيلحظ أن صوتا آخر غريبا جاء ليتكلم عنه بالنيابة ، ويدعي أنه قادم من حضارات أخرى متقدمة في الكون ، ويؤكد أن جيللر مزود ببرامج ذات طاقات فوق طاقات البشر ، وهي موضوعة فيه بواسطة وسطاء كونيين فائقي الذكاء ، ولهذا فإن جيللر كائن غير عادي بمقاييس أهل الأرض ، ولقد تم تسجيل هذا الحديث على شريط استغرق ساعة ، وأعيد سماعه ، لكن بوهاريش اكتشف بعد ذلك أن

الشـريط أصبح خاليا من كل كلمة ذكرت في هذه التجربة ، وتعليل هذا بسيط ، فالصوت الكوني لم يشأ أن يطلع أحدا من أهل الأرض على ذلك التسجيل السري ، ومن ثم قام بمسحه بطريقة لا يدري البشر عنها شيئا !

وكلام من هذا النوع كثير ومثير ، وهو بلا شك يشحذ الفكر ، ويحير العقل ، ويطلق للخيال العنان ، والإنسان بطبعه يحب التحليق في عوالم خيالية ، بدلا من ربطه في واقعه الضيق الذي يعيش فيه ، وقد يسعد به أو يشقى . . . لكن هل هـذه الظـواهـر تحمـل شـيئا من الصحة ؟ . . . دعنا نـرَ .

جيللر يدخل تجارب في جامعة ستانفورد

لقد اخترنا حالة جيللر من ضمن حالات كثيرة لأسباب . . . فهو بارع حقا في إظهار قدرته على الإتيان بأشياء محيرة للعقل ، وهو قد أظهر براعته تلك أمام الملايين ، وجذب اهتمام بعض العلماء ، ومن ثم فقد قبلوا أن يضعوه تحت الاختبار والتجربة ليروا بأنفسهم ما يمكن أن تتمخض عنه هذه الظواهر الغريبة . ولم يحظ أحد بمثل ما حظي به يوري جيللر ، ومن هنا كانت أهميته في الدراسة التي نقدمها هنا ، لنرى القول الفصل من وجهة نظر العلم في مثل تلك الأمور .

لقد أظهر جيللر براعته المثيرة في تجارب قام بها في معامل «بـل» للبحوث بنيوجيرسي ، وفي مركز جودارد للفضاء بكاليفورنيا ، وفي بيربيك كوليج بلندن ، وغير ذلك من مراكز البحوث . . . ثم ظهر في برنامج تليفزيوني بلندن عام ١٩٧٣ ، وأمام سمع الناس وأبصارهم استطاع أن يعيد رسم شكل محدد داخل ظرف مغلق على ورقة أمامه ، فظهر الشكلان متقاربين إلى حد ما ، كما أمكنه ثني شوكة بمجرد وضع يده عليها ، وفي قول آخر : بمجرد تركيز بصره عليها ، وبدأ في

التحكم ظاهريا في حركة ساعة يد كانت معطلة ، فتحركت عقاربها ، ولقد ظهر معه في البرنامج كل من البروفيسور جون تيلور ، ودكتور ليال واطسون ، وهما من المعتقدين في إمكان حدوث هذه الظواهر بفعل قوى غير معروفة ، إلا أن البروفيسور تيلور ـ الذي قدمناه قبل ذلك في فصل سابق ـ أخذ جانب الحذر والحيطة بعد عدة سنوات ، وذلك بعد أن درس هذه الظواهر أكثر ، ووضع لها شروطا أدق ، وسنتناول هذه القضية فيما بعد .

وتحدث جيللر في التليفزيون البريطاني في ذات الندوة ، وأكد أنه أربك العلماء وحيرهم ، بل إنه قد أفحمهم بأدلة لا تقبل الشك في قدراته الخارقة التي تنبع منه ، وتنساب من عينيه ، فيرى ما لا عين رأت ، وتتركز في يديه ، فتتبخر الأشياء ، أو تعود من حيث لا يعلم أحد . . . وهو لا يدري سر هذه الطاقة ، وأن على العلماء تحقيقها وتعريفها . . . إلخ .

والواقع أن شخصية جيللر وظهوره كشاب خجول وبريء وطيب ، مع ادعائه بالخوف من فشله في إظهار قدراته ، ثم تكراره ذلك بطريقة تمثيلية تجعل المشاهدين يتعاطفون معه إلى أبعد الحدود ، بل وتدفعهم إلى تصديق ما يجري أمامهم من أفعال حتى لو كانت غير صحيحة . . . . يضاف إلى هذا أن جيللر كان قبل ذلك عارض أزياء (موديل رجالي) ، ثم اشتغل بعد ذلك بالتمثيل في إسرائيل قبل أن ينتقل إلى الولايات المتحدة ، ولهذا فهو ممثل بارع ، وبتمثيله يستطيع أن ينفذ إلى قلوب الناس ، وفوق كل هذا ، فهو دائم الحركة والنشاط ، ولا يستقر على حال ، حتى في أثناء قيامه بظواهره الخفية !

ومما يذكر هنا أيضا أن دكتور إدجار ميتشيل ـ رائد الفضاء الذي سبق ذكره ـ كان يعتقد في قوى جيللر الروحية ، وكان من أشد أنصاره ومؤيديه ، وهو الذي قدم جزءا من المال اللازم للصرف على البحوث

التي أجريت على جيللر في معهد ستانفورد للبحوث ، (وقدم الجزء الآخر مؤسسة «ناسا» للبحوث الفضائية) ثم اختلف معه بعد ذلك بسبب المال ، ومع ذلك فإن ميتشيل يعتقد أن جيللر هو أهم ظاهرة روحية ظهرت في عصرنا الحديث !

وتبدأ تجارب معهد ستانفورد . للبحوث بوضع جيللر في حجرة مغلقة من الصلب المزدوج ، ويعزل فيها عن أي مصادر أو اتصالات خارجية ، وتجلس هيئة الاختبار في حجرة مجاورة أو في مكتب يبعد عن جيللر بحوالي ٤٥٠ مترا ، وعن طريق هذا المكتب البعيد تمت تجارب التخاطر Telepathy ـ أو نقل الأفكار ـ ولقد أشرف على التجارب أوراسيل تارج والدكتور هال بوت هوف ، وكلاهما عالمان فيزيائيان متخصصان في أشعة الليزر ، ومع ذلك فهما يعتقدان في البحوث الروحية ، ويساندانها . . . وهذا أمر قد يثير بعض الشكوك عند غير المعتقدين في تلك الظواهر ، إذ قد يتعاطف هذان العالمان مع جيللر بطريقة أو بأخرى .

ولقد أجريت ١٣ محاولة أو اختبار لقدرات جيللر ، وقسمت المحاولات إلى أربعة بنود ، البند الأول منها يحتوي على أربع صور يتم اختيارها من قاموس ، ولقد تعرف جيللر على صورتين ، وفشل في الأخريين . وفي البند الثاني تم اختيار الصور بواسطة مجموعة غير معروفة لجيللر ، وكان عددها ثلاثا ، ولم يتعرف فيها على أي صورة ، (لاحظ هذه النتيجة جيدا) . وفي البند الثالث ثلاث صور متفق عليها مقدما قبل بدء التجربة ، وتعرف فيها على صورتين ، أما الثالثة فقد رسم جزءا منها ، ولم يكملها . وفي البند الرابع ثلاث صور ، أولاها عرضت على شاشة إكس ، وتعرف عليها ، وثانية الصور خزنت في عقل إليكتروني ، وفشل في تعريفها ، والثالثة رسم كاريكاتيري عرض على شاشة لفترة قصيرة ، ثم اختفى ، ولم يتعرف عليه إلا جزئيا .

ومما أكسب هذا البحث أهمية خاصة أنه نشر في مجلة نيتشر البريطانية (الطبيعة المجلد ٢٥١ صفحة ٦٠٢ عام ١٩٧٤) ، وهي مجلة دورية علمية واسعة الانتشار في محيط العلماء ، وربما كانت هذه أول مرة تقبل نشر مثل هذه البحوث ، وقد يرجع ذلك إلى الثقة في العالمين الفيزيائيين اللذين أشرفا على البحث وأجرياه في واحد من أهم معاهد البحث العلمي وأكثرها شهرة ، ومع ذلك فقد حامت حول جديته ومغزاه الكثير من الشبهات .

والواقع أن هذه الاختبارات لم تتعرض لثني ملاعق أو سكاكين ، أو توضح قدرة جيللر على التحكم في تحريك الأشياء أو إيقافها عندما يركز طاقته عليها ، ولو كتب بحث بهذه الصورة ، لما قبلته أي مجلة علمية تحترم نفسها ، وسوف نعود لنوضح ماذا نعني بذلك ، لأن ما خفي كان أعظم .

إن الغرض من هذه الاختبارات يرجع إلى قدرة بعض الناس على ما يسمونه بالاستبصار Clairvoyance ، أي القدرة على رؤية كل ما هو واقع وراء نطاق البصر ، ولقد حدث حول هذه الظاهرة لغط كثير ، خاصة في داخل نطاق البحث العلمي ، إذ إن الذين يدعون امتلاك هذه القدرة - وملأوا بها الدنيا ضجيجا ، وكتبت أجهزة الإعلام ونشرت عنهم الشيء الكثير - قد افتقدوها بمجرد أن وضعهم العلماء الجادون تحت رقابة صارمة ، وبحيث تجرى التجارب بشروطهم ، وتقدم مادتها بإشرافهم المباشر .

وأنت تستطيع أن تعرف - دون أدنى عناء - معنى ذلك إذا عدت إلى تحليل النتائج التي أشرنا إليها قبل ذلك ، ففي البند الثاني لم يتعرف جيللر على صورة واحدة ، لأن اختيارها قد تم بمعرفة مجموعة محايدة لا يعرف جيللر عنها شيئا ، وهذا مما يدعو إلى الشك في جدية

الاختبارات الأخرى . . . فهل يعني ذلك حقا أن الذين قاموا بهذا البحث قد تعاطفوا مع جيللر ، وسهلوا له الأمر؟

دعنا نرَ ذلك .

تصحيح واجب

لقد ذكر العالمان الفيزيائيان في بحثهما المنشور في مجلة نيتشر :

«لقد ركزنا اهتمامنا على كل شيء في التجربة بحيث نعتبر مسؤولين بالدرجة الأولى عما جاء فيها ، وذلك بغرض التوصل في هذا الموضوع إلى إثبات أو دحض تلك الظاهرة التي تشير إلى إمكان وجود إدراك بغير الحواس المعروفة (إدراك خارق أو معجز Paranormal Perception عن طريق شروط لا لبس فيها ولا غموض» . ثم يستطردان فيقولان : «وفي كل المرات أخذنا على عاتقنا الإجراءات الكفيلة التي تحول دون تسرب المعلومات (إلى جيللر) ، أو حدوث تضليل أو خداع» !

وإلى هنا تساءل بعض العلماء : هل كان تارج وبوتهوف (اللذان قاما بالبحث) حذرين بدرجة كافية ، ولم يلتبس عليهما الأمر في قليل أو كثير ؟

في إحدى المجلات العلمية البريطانية «نيو ساينتيست New Scientist (رجل العلم العصري) ، يظهر موضوع متكامل عن القصة من أولها إلى آخرها ، وقام بتحقيقها دكتور جوزيف هانلون من هيئة تحرير المجلة ، وفي هذه الدراسة (العدد ٩١٩ ، المجلد ٦٤ الصادر بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٧٤) يذكر هانلون أن الذين قاموا بهذه التجارب ، يعترفون بإنهم كانوا مدركين لاحتمال خداعهم ، ويقول إن تارج قد أسر إليه قائلا «إنني واثق من أن جيللر كان سيخدعنا لو أننا أتحنا له

الفرصة لذلك» . . . ويعترف تارج أيضا بأنه يتشكك كثيرا في قدرة جيللر على ثني المعادن أو تفتيتها ، ولقد وضعوه بالفعل تحت هذه الاختبارات ، لكنهم لم ينشروها ، بعد أن ثبت أن جيللر يأتي بحركات سريعة ، كأن يثني جسمه ويموه به دون داع لذلك ، ويتصرف كالأطفال الذين تقع بين أيديهم أدوات للعب ، إذ كان يتناول الأشياء ويلقيها ، وكثيرا ما كان يمر بأصابعه خلال شعره المسترسل الطويل ، وفي خلال الاختبارات يقفز وينطلق في الحجرة على غير هدى ، ويتوقف تماما عن الاستمرار في الاختبارات ، لكنه قد يعود فجأة ويظهر استعداده للاستمرار فيها ، أو قد يطلب من الحاضرين معه في الحجرة أشياء خارج الحجرة ، مثل قصاصات مما كتبته عنه الصحافة أو قضبان معدنية صغيرة ، أو عملات من النقود . . . الخ ، فهذه على حد زعمه تعيد إليه الثقة في نفسه ، وتمنحه الطاقة الخفية التي يعمل بها ! . . . الخ . . . الخ .

لقد قدمنا جزءا من سلوك جيللر لتتبين أمامنا بعض المعالم ، ففي هذه الحركات السريعة يمكن خداع الناس بسهولة ، فهو يشد انتباههم لشيء ، ويصرفهم عن النظر إليه ولو للحظة خاطفة ، وفيها يكون قد أتم خدعته بسرعة فائقة ، ثم يدعي أنه فعلها من خلال طاقته غير المدركة حسيا !

إن العلماء يعتقدون أن مثل هذه الأمور تنطوي على حركات أشبه بحركات الحواة المتضلعين في هذا الفن ، وهم يعيبون على مجموعة معهد ستانفورد للبحوث عدم إشراك حاو محترف ليراقب الأمر مراقبة الحاذق الذكي ، إذ لا يفل الحديد إلا الحديد ، وكذلك لا يفل الساحر إلا ساحر مثله !

يضاف إلى ذلك أن تارج وبوتهوف لم يشركا معهما في هذه التجارب أحدا من أساتذة المعهد المحايدين ، صحيح أنهما أشركا معهما اثنين

من الحواة الهاوين لا المحترفين ، هذا بالإضافة إلى أن تارج نفسه حاو هاو ، وكان يجري بعض الألعاب مع زملائه وأصدقائه ويحصل منهم على بعض المال إذا لم يستطيعوا التوصل إلى حل ما يقوم به أمامهم ، والمراقب الوحيد الذي جاء من الخارج ليقيم هذه التجارب كان مبعوثا من الحكومة الأمريكية ، لأنها أمدت مجموعة البحث ببعض المال الذي يحتاجون إليه ، ويهم الحكومة أن تعرف جدية ما تصرف عليه ، وهذا شيء جميل ، لكن مبعوث الحكومة كان هو الآخر من المهتمين بالظواهر الروحية ، ولا شك في أن لديه شوقا ليتحقق من ذلك ، وربما يقوده ذلك إلى تعاطفه مع مجموعة البحث ، وهو باعترافه أنه لم يتح له اختيار أو تعديل مواد الاختبار ، بل إنه تقبل ما أملاه عليه كل من تارج وبوتهوف ، وعندما كان يتدخل في الأمر ويطلب أن تكون الإجراءات أكثر انضباطا ، كان تارج يحتج على ذلك ، ويمزح معه بلفظ سوقي Bullshit ـ أي «يا براز العجل» !! . . . ولقد اعترف ممثل الحكومة بالحرف الواحد قائلا : «إن الرقابة على جيللر كانت مرنة وغير كافية» !

لكن . . . هل يمكن أن يغش العلماء في نتائجهم ؟

للأسف إن ذلك قد يحدث في حالات قليلة ، ففي كل فئة يوجد بعض الشواذ ، وهناك دراسة عن هذا الموضوع في مجال العلوم التطبيقية كتبها دكتور أيان سان جيمس روبرت ، من جامعة لندن في نيو ساينتيست البريطانية بعنوان : هل الباحثون موثوق بهم ؟ (العدد ١٠١٦ المجلد ٧١ ـ ٢ سبتمبر ١٩٧٦) . وفي هذه الدراسة ذكر حالات ـ والحمد لله ـ قليلة ، وليس مجالها هنا . ثم إن هناك دراسة أخرى مطولة منشورة في مجلة «عالم الفكر» الكويتية بعنوان «ماذا يحدث في علوم الإنسان والمجتمع؟» للأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد (العدد الأول ـ المجلد الثامن ـ ١٩٧٧) ، وفيها يذكر أن عالم النفس البريطاني الشهير سيريل بيرت (المتوفى عام ١٩٧١) «تحوم الآن حوله

فضيحة» . . . وأنه قد «ظهر من العلماء ـ وبخاصة العلماء الأمريكيون ـ من يشكك في ، الاختبارات التي كان يجريها ، ويتهم بيرت بأنه كان يزيف النتائج ويزورها . . .» الخ .

المهم أن هذا الغش يعتبر دنسا في مجال العلوم التطبيقية ، وما أسرع ما يكتشف ذلك الدنس ، وعندئذ يلفظ تلقائيا من العلم ، كما يلفظ الجسم عضوا غريبا مزروعا فيه !

نعود الآن للبحث المنشور عن ظاهرة الإدراك الخفي الذي يدعيه جيللر ، ويسانده العالمان الأمريكيان ، فنقول إن «رائحته» الرديئة بدأت تزكم أنوف العلماء ، خاصة أن مكتشف جيللر ـ أي دكتور بوهاريش ـ واحد من المتضلعين في علم الإليكترونيات ، ولقد سبق أن أوضحنا كيف أنه اخترع جهازا دقيقا يمكن أن يوضع داخل الفم في حشو ضرس لا أكثر ولا أقل ، ومن هنا حامت الشبهات حول جيللر وبوهاريش ، إذ ليس من المستبعد أن يحمل جيللر جهازا صغيرا بين شعره ، أو أسنانه أو داخل أذنه الخارجية (بعلم أو دون علم بوهاريش) وعن طريق هذا الجهاز السري يتم التدليس والخداع ، فكل شيء جائز ، خاصة في مثل هذه الظواهر !

ومما يعطي هذه الشكوك أرضا صلبة ، أن بوهاريش قد ذكر يوما أن جيللر ليس لديه مانع من فحصه حتى يثبت براءته مما قد يخفيه من أدوات أو أجهزة دقيقة تساعده في اختباراته ، لكن بوهاريش يعود ليقول : «لكنني أعرف أن يوري جيللر لن يسمح بفحص دقيق قد تستخدم فيه الأشعة السينية مثلا» . . . وقد يعني ذلك أمرا ، إذ يخشى يوري أن تكتشف الأشعة السينية أي أجهزة صغيرة من ذلك النوع الذي يصنعه بوهاريش ، ويزرعه في أماكن لا يمكن للفحص العادي إظهارها .

ويقال إنه لهذا السبب قد وضعوا جيللر في حجرة ذات جدران مزدوجة من الصلب حتى يفسدوا عليه عمل أي أجهزة دقيقة قد تكون

مخبأة في داخله . لكن دكتور جوزيف هانلون قد رجع في هذا الأمر إلى دكتور روبرت كنج ـ الأستاذ بالكلية الإمبراطورية بجامعة لندن ـ الذي أفتى بحزم قائلا : «إنني أستطيع أن أحصل على أي معلومات في أي حجرة معزولة ، حتى ولو كانت من الصلب المزدوج» ، وعلته في ذلك أن الحجرات المعزولة ليست مصممة ضد أي محاولات للحصول على معلومات سرية . ويدخل روبرت كنج بعد ذلك في متاهات تكنولوجية عن طبيعة الموجات وتردداتها وكيفية نفاذها في المواد ، ودرجة هذا النفاذ والامتصاص . . . الخ . لكن يكفي أن نذكر هنا أن إرسال المعلومات خلال حجرة الصلب المعزولة ليس مستحيلا . . . بل ممكن .

إننا نقدم هنا بعض التفاصيل القليلة ، ليتبين لنا أن العلماء حريصون كل الحرص على فحص كل كبيرة وصغيرة قبل أن يصلوا إلى نتيجة . . . وهذا هو المنهج العلمي الأصيل الذي يسير العلماء على هديه في معاملهم وبحوثهم .

والنتيجة : أنه كلما وضعت شروط أدق وأدق ، وكانت الاختبارات تحت مراقبة أعظم وأشد ، فإن الفشل في إظهار تلك القوى الخارقة يصبح القاسم المشترك الأعظم ، ويعني هذا أن الأمر قد ينطوي على خداع وذكاء قد يفوقان حرص رجال العلم وقوة ملاحظاتهم . . . ولهذا يجيء على لسان جيللر اعتراف له مغزاه ، إذ يقول : «عندما أقوم بإجراء تجارب كافية في حضور العلماء ، فعليهم أن يتخلوا عن الإنكار لقدراتي» . . . أي عليهم أن يعتقدوا في كل ما يقوم به من خوارق ، وأن يتركوا له الحبل على الغارب ، ليصول في الميدان ويجول على حسب هواه !

لقد كنت متتبعا لقضية يوري جيللر على مدى ست سنوات ، إذ دعته الهيئة العلمية لتحرير مجلة نيو ساينتيست البريطانية في عام

١٩٧٣ لكي يحضر ندوة خاصة يظهر فيها قدراته ، فقبلها أثناء وجوده بإنجلترا بدعوة من التليفزيون البريطاني ، وحدد الموعد ، وأرسلت له المجلة أسماء الهيئة التي ستضع وتشهد مواد الاختبار ، وكان من بينها دينيس بارسون من جمعية البحث الروحي ، ودكتور كريستوفر إيفانز من المعمل القومي للفيزياء (وهو أحد علماء علم النفس) ، وكل من دكتور برنارد ديكسون (بيولوجي) ودكتور جوزيف هانلون (فيزيائي) نيابة عن هيئة تحرير المجلة العلمية صاحبة الدعوة ، والبروفيسور د . ج . فيني عالم التحليل الإحصائي بجامعة أدنبرة ، وديفيد بيرجلاس الساحر العالمي المحترف ، ودكتور يوليوس جرانت من الطب الشرعي ، وآلان برين الكاتب العلمي لصحيفة صنداي تايمز البريطانية ، ووافق جيللر على تشكيل الهيئة ، لكنه ترك بريطانيا إلى الولايات المتحدة ، وتم الاتصال به عن طريق أحد أصدقائه الموجودين في إنجلترا ، وحدد موعدا لحضوره في ٨ فبراير ١٩٧٤ ، وعندما وصل إلى إنجلترا قبل الموعد المحدد بأيام ، ألغى جيللر هذا الموعد زاعما أنه تلقى تهديدا بالنسف بقنبلة (هكذا !) ، مع أنه أجرى بعد ذلك بعض عروضه في أماكن أخرى خالية من العلماء والمراقبين ، وتلكأ جيللر في الرد ، وواصلوا الاتصال به ، وأخيرا يجيئهم على التليفون من أمريكا ليقول «لقد غيرت رأيي . . . والآن فقط لا أريد أن أتعاون معكم» !

لقد تنصل جيللر من وعوده أكثر من مرة ، إذ هو لا يريد أن يقع في المصيدة ، خاصة أن الهيئة العلمية البريطانية كانت ستضع شروطا صعبة ، وقد تكشف حقيقته أمام الناس ، ثم هو يعلم أن البريطانيين جادون ، وقد لا يتعاطفون معه كما تعاطف معه الأمريكيون في معهد ستانفورد للبحوث . . . ثم إنه - أي جيللر - في غنى عن هذه الاختبارات ، خاصة أن مجموعة معهد ستانفورد قد نشرت البحث في مجلة «نيتشر» ، ويكفيه هذا دليلا وفخرا على صحة ما يدعيه ، لكن

المجلة بنشرها للبحث لا تأخذ ما جاء فيه قضية مسلمة ، وقد عاب عليها بعض العلماء هذا النشر . لكن النشر قد حقق هدفا ، ووضع أمام العلماء أجمعين قضية جديرة بالبحث الجاد ، والمناقشة الذكية ، ومزيدا من التفاصيل التي توضح الأمر ، وتضع حدا للبلبلة الفكرية التي يعيش فيها الناس !

والنتيجة مرة أخرى أن جيللر تحاشى اختبارات العلماء حتى يومنا هذا ، فلم يعد يذكر لا في «نيتشر» ولا غيرها ، وكل أنشطته تتركز على أجهزة الإعلام والجمعيات الروحية التي يهمها أن تحصل على الأخبار المثيرة دون شروط أو تدقيق !

جيللر . . . مخادع وساحر رعديد!

إن «التحريات» العلمية الكثيرة التي جمعها نفر من العلماء الأوفياء لعلمهم ، أثبتت أن قدرات يوري جيللر تنطوي على خداع عظيم ، وخفة يد لا تجارى ، وتصرف جد سريع ، وهو لا يستخدم هذه القدرات إذا شعر بإحكام الرقابة عليه ، ولهذا يعتذر عن عدم الاستمرار ، أو يدعي أنه ليس على ما يرام ، أو أنه سيفشل ، وكان يكرر ذلك كثيرا ، أما إذا كانت المجموعة التي يعمل أمامها لا تهتم في كثير أو قليل بوضع شروط لقدراته ، عندئذ يصول ويجول ، ويأتي «بالمعجزات» - رغم أن العجز الحقيقي يكمن في العيون التي تراقبه ، والعقول التي تصدقه !

والأمثلة على الخدع التي يقدمها كثيرة ، كما أن الشك في قدراته ينبع من عدم اتفاق اثنين على رأي واحد في ظاهرة محددة أجراها ، إذ ترى هذا يصفها لك بطريقة ، في حين أن ذاك يصفها بطريقة أخرى . . . والواقع أن الظاهرة الصحيحة دائمة التكرار على نفس المنوال . . . فظواهر البرق والرعد لا يختلف عليها اثنان ، ووقوع الأشياء

على الأرض تحكمه الجاذبية ، ولم نسمع مثلا أن حجرا قفز تلقائيا إلى أعلى ضد الجاذبية . . . الخ . فإذا كان جيللر قد امتلك حقا قوة خفية ، فلابد أن تظهر على الملأ دون لف أو دوران . . . إن في ذراع الإنسان مثلا قوة ، وبهذه القوة يرفع الأشياء كلما شاء ، ولا أحد يستطيع أن يقول : إن القوة التي في ذراعه قد تبخرت الآن ، وسوف تعود بعد ساعة أو يوم أو أسبوع (ولا يدخل في ذلك المرض بطبيعة الحال) . . . أما القول بأن هذه القوة تأتيه من مكان ما في الكون ، وأنها هي التي تتحكم فيه ، فهذا أمر لا ينطلي إلا على أصحاب العقول الساذجة للغاية ، وليقل السذج ما يقولون ، فلن يؤخر ذلك ولا يقدم في القوانين التي تحكم الوجود !

خذ مثلا هذه الواقعة . . . في معهد ستانفورد للبحوث جاءوا بقطعة من النحاس تشبه الشريط ، وعلى سطحيها طلاء خاص يعطي إشارة تختلف شدتها باختلاف الثني أو الإجهاد الذي يتعرض له هذا الشريط ، ثم ثبت من أحد طرفيه في ماسك ، وطلبوا من جيللر أن يثنيه دون لمسه ، وإلى هنا تختلف الروايات . . . فواحد مثل جون هوايت (مساعد رائد الفضاء إدجار ميتشيل في معهد علوم العقل الذي أسسه ، وهو يبحث في مثل هذه الظواهر الخفية) يقول : لقد اختفت قطعة من شريط النحاس من طرفه تدريجيا وظهرت في مستوى منخفض عن الشريط ، وهذا يعني أن جيللر استطاع أن يفتت الشريط إلى ذرات وجزيئات ، ثم يجمعها مرة أخرى في مكان آخر ـ على حسب ما يعتقد جون هوايت . . . لكن واحدا مثل دكتور هال بوتهوف (سبق ذكره في بحث مجلة نيتشر) الذي صمم هذه التجربة وأشرف عليها ، يقول قولا آخر : فحقيقة الأمر أن جيللر قد أخفق في ثني الشريط في اليوم الأول ، وعندما عاد في اليوم الثاني ليحاول من جديد ، وقبل أن يدخل التجربة رسميا ، ظهرت قطعة من الشريط المعدني ملقاة على المنضدة ، ودون أن تنطلق الإشارة التي توضح أن الشريط قد انثنى أو مسه أحد في هذا الوقت خاصة !

إن الاحتمال الوحيد أن جيللر أو غيره قد استطاع أن يتسلل خلسة إلى المعمل ، وأن يفصل قطعة المعدن من الشريط دون أن يكون هناك رقيب . . . والدليل غير المقنع الذي قدموه هو فيلم مصور عن هذه الحادثة ، ولم تظهر مثلا قطعة المعدن وهي تنفصل من الشريط لتستقر على المنضدة ، بل ظهرت فجأة في الفيلم وكأنما هي كانت هناك قبل أن يبدأ تصوير التجربة ، كما أن أحدا لم يكلف خاطره لقياس الشريط قبل بدء التجربة في اليوم التالي ، حتى نتأكد من أن الانفصال قد تم بالفعل أمام أعين المشاهدين . وطبيعي أن الفيلم لا يستطيع أن يحدد ذلك بالدرجة المطلوبة .

إذن فالأمر ينطلي على خدعة ، إذ لو ثبت أن جيللر لديه القدرة على تفتيت المعادن ونقلها إلى مكان آخر ، فلماذا لم يعيدوا هذه التجربة تحت ظروف أكثر دقة ، وأعظم حرصا ؟

إن أحدا لم يكلف نفسه التأكد من ذلك ، لكن هذه الواقعة المشكوك فيها ، والتي كان شهودها من المعتقدين أو المؤيدين لوجود تلك القوى الخارقة عند جيللر - هذه الواقعة أطنبت فيها الصحف ، وانتشرت الأخبار ، وصدق الناس ، وابتهج الروحيون ، واستبشر المعتقدون في ذوي الكرامات ، ومحققي المعجزات !

تشديد الرقابة يؤدي إلى العجز

نعود لنقول إن للعلم منهجا واضحا ، وهو دائما يتعامل مع قوانين هذا الكون وشرائعه ، وهي قوانين جادة ومتناسقة ، ولا حيود فيها ولا شذوذ ، فإذا ظهر الشذوذ ، فإن ذلك ليس عيبا في القانون الكوني ، لكن العيب قد يكون فينا ، أو في أنماط تفكيرنا ، لكن أنماط التفكير قد تكون قويمة ، وقد تكون شاذة . والعلم لا يعطي ظهره للشواذ ، بل يحاول أن يدرس الظواهر الشاذة دراسة دقيقة ، عله يتوصل إلى سر اعوجاجها ، وهو

في ذلك حريص أشد الحرص على ألا تفلت منه صغيرة ولا كبيرة ، خاصة إذا ظهر في محيطه أدعياء يعطلون قوانين الكون ، ويهزلون بشرائعه . . . فنحن جميعا ـ في الواقع ـ نسير وفق شرائع الوجود ، لا أن تسير هذه الشرائع وفق أهواء الناس .

فالذين يعتقدون في القوى الخفية التي يمتلكها بعض البشر من أمثال جيللر ، وكاترين كولمان ، ونوربو تشن ، وجو ميركادو . . . الخ . . . الخ ، لا يريدون تصديع أدمغتهم بالبحث عن الحقيقة التي قد تضنيهم كثيرا ، ولاهم يملكون وسائلها ، لكن العلماء يسلكون طريقا آخر مختلفا تماما ، ولهذا تراهم ينظرون إلى هذه المزاعم وكأنها تلوث فكري في المحيط العلمي ، ومع ذلك يقبلون عليها أحيانا لدراستها من قبيل الترشيد الفكري ، والتقويم العقلي لما اعوج في هذا وذاك .

إن الدعايات الضخمة التي أحاطت بجيللر ومعجزاته إنما نشأت من «استغفال» هذا الشاب ـ بحيله البارعة ـ معظم الناس ، وقليلا من العلماء . . . فبعد أن قدم لنا دكتور جوزيف هانلون تقريرا مفصلا ومطولا عن أوجه الخداع التي قام بها جيللر ، نراه يعلق على ذلك بقوله : «إن الشيء المميز والواضح في كل هذه الأمثلة (التي قدمها والتي لم نذكرها ، وقد نذكر بعضها فيما بعد) أن جيللر لا يتوصل إلى إنجازاته بالطريقة السهلة والسريعة التي تظهر عادة في الأخبار والتقارير ، بل هو ينجزها بعد أن يتلقى مساعدة غير مقصودة من المشاركين ، أو بعد أن يستلهم خطوة مبدئية تقوده إلى ما بعدها ، على غرار ما يحدث مع الحواة في مثل هذه الأمور ، أو بمعنى آخر ، فإن جيللر يعمل بطريقة تؤدي إلى اعتبار الظاهرة عادية أكثر مما تكون غير عادية» .

ويقصد دكتور هانلون من ذلك أنك لو راقبت جيللر مراقبة شديدة لعرفت التعليل الصحيح والذي يتماشى مع العقل والمنطق ، ولو شددت الرقابة بدرجة فائقة ، فإنه لا ينجح ، أو قد يعتذر عن توقفه عن العمل !

ولكي نوضح أكثر ، دعنا نَعُدْ إلى ظاهرة من الظواهر التي يعتبرها جيللر والمعتقدون فيه من أهم العلامات الدالة على قوة الاستبصار . . . أي نفاذ البصر إلى كل ما هو محجوب عن العين العادية . . . ففي أحد العروض التي قدمها التليفزيون الأمريكي لقدرات يوري جيللر ، ذلك العرض الذي يؤتى فيه بعشر علب معدنية خفيفة من ذلك النوع الذي تحفظ فيه أفلام التصوير (٣٥ مم) . وتوضع في واحدة منها قطعة معدنية ، أو بندقة ، أو قطعة شيكولاتة . . . الخ ، ثم يؤتى بها جميعا وتوضع على منضدة صغيرة وتوزع اعتباطيا في غياب جيللر ، وعندما يحضر ويركز بصره عليها ، يبدأ أولا في اختيار العلب الفارغة واحدة واحدة ويفتحها ثم يلقيها في سلة بجواره ، ويظل يركز ويركز ، حتى يترك العلبة العاشرة على المنضدة ، ويشير إلى أنها هي العلبة التي تحوي الشيء المقصود ، وبالفعل يكون قد حقق الهدف الذي يعجز الناس عن تعليله إلا بما يسمونه بظاهرة الاستبصار .

لكن قلة قليلة من المراقبين ذكرت أنها شاهدت جيللر وهو يقترب من المنضدة الصغيرة ، ويحدث فيها رجة غير محسوسة ولا مرئية من جمهرة المشاهدين ، لكن هذه الرجة تهز العلب الفارغة بدرجات أعلى قليلا فتؤدي إلى تمييزها عن العلبة الثقيلة نسبيا (والتي تحوي في داخلها كتلة ما) ، وبهذا يستطيع أن يلتقط العلب الفارغة واحدة وراء الأخرى ، وهو في هذه الحركة - بلا شك - رائع ، لكنه مخادع . وطبيعي أن كل واحد منا يستطيع الآن أن يصل إلى أن ما جرى أمر طبيعي ، ولا يحتاج إلى تعليلات غيبية !

ومما يؤكد ذلك أن هذا العرض ذاته قد أجري مرة أخرى في برنامج جوني كارسون «استعراض الليلة» ، وفيه اتخذت الاحتياطات اللازمة بحيث لا يسمح لجيللر بأن يقترب من المنضدة أو يمسها ، والنتيجة أنه فشل فشلا ذريعا !

وفي عرض أقيم في نيويورك بعد ذلك ، اتخذت احتياطات أشد وأكفأ ، إذ تمت التجربة بعلب ثقيلة ، ليكون من الصعب تحريكها فيما لو خدع جيللر الناس ، وهز المنضدة ، وقبل بدء العرض بساعة ، وأثناء تجهيز هذه التجربة ، كان جيللر يحوم حول المكان ، واقترب من الفتاة التي كانت تجهز العلب ، وتغلقها ، ثم تحكم الغلق بشريط لاصق ، وأوعز إليها أن حضوره معها لن يقدم ولن يؤخر . لكن الفتاة اتصلت تليفونيا بالساحر العالمي فيلكس جرينفيلد وأخبرته بالقصة ، إلا أن الساحر حذرها بأن جيللر ربما يعرف الهدف من علامة صغيرة قد تظهر في طريقة وضع الشريط اللاصق على العلب المختلفة ، وأنه ـ أي جيللر ـ في مثل هذه الأمور شديد الملاحظة ، بارع الحيلة ، وطلب منها أن تعيد وضع شرائط جديدة لاصقة في غيابه ، وعرضت التجربة ، وأخفق جيللر في تحديد الهدف !

نعود الآن إلى معهد ستانفورد للبحوث ، حيث أجرى كل من العالمين تارج وبوتهوف تجربة «الجلاء» البصري أو الاستبصار ، وفيها أحضرا «زهر» طاولة ، ووضعاه داخل علبة ذات غطاء ، وفيها برج الزهر ، ويطلب من جيللر أن يحدد عدد النقط الموجودة على السطح الأعلى للزهر ، ونجح جيللر في ذلك ثماني مرات ، وأخفق في اثنتين ، وهذه بلا شك نتيجة بارعة ، وتخرج عن نطاق المصادفة التي نعرفها .

فإذا كان جيللر يتمتع حقا بظاهرة الاستبصار ، فلماذا فشل مثلا في تحديد العلبة المحشوة من العلب التسعة الفارغة ؟

إن فصل الخطاب يأتينا أيضا من مجموعة معهد ستانفورد للبحوث ، إذ قاموا بتجربة جديدة ، وفيها أحضروا رساما في المعهد ليرسم مائة صورة للأشياء العادية التي تقابلنا يوميا في حياتنا (سيارة ـ شجرة ـ دراجة . . . زهرة . . . الخ) ، ووضع كل رسم في ظرف قاتم ، ثم أغلق ، ومن خارج هذا الظرف ظرف آخر قاتم ، وأغلق ، ووضعت الأظرف

المائة في خزينة محكمة الغلق ، وفي كل يوم تسحب من الأظرف المائة خمسة أظرف بطريقة عشوائية ، وتقدم الأظرف لجيللر أمام هيئة من المراقبين ، ويركز نظره عليها لفترات تطول أو تقصر ، ثم يبدأ هو في رسم ما هداه إليه جلاؤه البصري ، وظل على هذا الحال أياما ثلاثة ، لكنه أخفق ، وعلى هذه النتيجة جاء تعليق كل من تارج وبوتهوف في البحث المنشور ، «أن الرسومات التي جاءت في هذه التجربة لا تختلف في قليل أو كثير من المتوقع حدوثه بطريق المصادفة» !

وعلى هذه النتائج يعلق أحد العلماء : «إن ذلك مثير حقا . . . فلقد استطاع جيللر أن يرى الزهر داخل العلبة ، ويحدد الوجه الصحيح» ! . . . وهذا يعني تهكما منه على جدية النتائج التي تسجل داخل معاهد البحوث (زهر الطاولة والأظرف المغلقة) أو خارج نطاق هذه المعاهد (في عروض التليفزيون والعروض الخاصة التي قدمها جيللر للصحفيين ليكتبوا عن معجزاته دون أن يفطنوا لخداعه) .

الغريب أيضا أن البحث الذي نشره العالمان الأمريكيان في مجلة «نيتشر» البريطانية قد أغفل حادثة لها مغزاها ، إذ بعد أن فشل جيللر في استقراء ما بداخل الأظرف المغلقة وإلغاء هذه التجربة كلية ، ظهر بعض التسيب في تجربة أجريت بعد ذلك على أظرف ستة مغلقة ، لكنها تركت على منضدة وقتا كافيا ، وبحيث يمكن لأي إنسان أن يأخذ منها ظرفا دون أن يلحظه أحد ، ولقد سمحوا له بالتجوال هنا وهناك ، وترك الغرفة وعاد إليها ثلاث مرات ، والله وحده يعلم (وربما بعض الباحثين أيضا) ماذا جرى في هذه الأثناء ، لكن النتيجة أن جيللر قد استطاع أن يعرف ما بداخل أحد الأظرف معرفة دقيقة . . . وعلى هذه النتيجة يعلق الباحث الثالث الذي شارك تارج وبوتهوف في هذه التجربة فيقول : «إنني مقتنع تماما بأن جيللر قد غش» !

لو أن هذه الواقعة قد ذكرت بأمانة في البحث المنشور ، لكانت كافية لإلقاء ظلال كثيفة من الشكوك في كل ما جاء في ذلك البحث من نتائج ، فمن يضمن مثلا أن الرقابة كانت على جيللر شديدة وحازمة في كل الأوقات» ؟ . . . إنه يفشل إذا شددت الرقابة ، وينجح إذا ضعفت !

والشك أولى علامات اليقين !

ومما يذكر أيضا في هذا الصدد أن «راي هيمان» أستاذ علم النفس بجامعة أوريجون (وهو أيضا ضليع في أداء الألعاب السحرية واكتشاف خداعها ومن المتشككين بشدة في البحوث الروحية وجدواها) ، كان قد حضر جانبا من تجارب معهد ستانفورد على جيللر ، ولم يعجبه الحال ، فعلق على ذلك قائلا : «إنهم لا يعرفون كيف يلاحظون ويراقبون . . . إن تارج وبوتهوف يسردان الأحداث التي نراها منطقية بطريقة عكسية تماما ، ويصنعان منها معجزات» !

هل يثني الملاعق ويعطل الآلات؟!

لكن «معجزات» جيللر التي أعطته شهرة خاصة ، هي قدراته الخارقة على النظر إلى الأشياء ثم ثنيها أو تحطيمها دون لمسها ، فنرى مثلا مفكرا وكاتبا قديرا مثل أنيس منصور يتحدث عن الحسد ويحاول أن يربط بينه وبين ما أجراه يوري جيللر ، فبعد أن قدم لنا في كتابه «القوى الخفية» أمثلة عن الحسد «ومعجزاته» ، وكيف أن عيني الحسود تميت الحياة وتحطم الجماد . . . الخ ، نراه يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول : «والعلم الحديث قد وجد تسمية لهذا الحسد (وهذا بالطبع زعم خاطئ ، فأي باحث في ميدان العلم الحديث لن يجد أثرا لذلك) . . . أما التسمية فهي : تحريك الأشياء عن بعد Telekensis (وصحتها Telekinesis) أو التأثير في الأشياء دون لمسها» .

ثم يستطرد قائلا : «وقد تحدثت الصحف العالمية في الأعوام الأخيرة عن شاب اسمه يوري جيللر . . . هذا الشاب قد تخصص في تحريك الأشياء عن بعد ، مستخدما قواه الخفية . . . فهو مثلا يستطيع أن يضع يده على الشوك والسكاكين ، فإذا هي تتحطم بمجرد لمسها (هكذا !!) وأحيانا تنثني بمجرد أن يشير إليها من بعيد . . . وقد عرضه التليفزيون الفرنسي بين عدد من الصحفيين ، وأتى لهم بعدد من علماء الفيزياء ، وبحثوه جيدا ، وجعلوه يخلع ملابسه ويستعرض هذه القوة الغريبة (ولا نظن أن علماء الفيزياء يفعلون ذلك !) ولم يجدوا في جسمه شيئا غير عادي ، ولكن الشاب يقوم بعملية تركيز عقلية على هذه الأشياء ويلمسها ، أو يشير إليها من بعيد ، فإذا الملاعق والسكاكين تمشي وراء يده مع أن المسافة بين اليد وبين الشوك والسكاكين بضعة أمتار ! (هكذا !!) . . . الخ .

ولا معقب لنا على ذلك إلا أن نذكر ما ذكره هانلون وهو أحد علماء التكنولوجيا وضمن هيئة تحرير المجلة العلمية البريطانية السالفة الذكر ، إذ يقول : «إن المشكلة ليست مشكلة الصحفيين والكتاب وحدهم ، بل إن بعض رجال العلم المدربين قابلوا نفس المصير» ـ أي خُدعوا كما خدع غيرهم !

أو دعنا نَسُقْ فقرة من البحث الذي نشرته مجلة نيتشر لتارج وبوتهوف عن يوري جيللر وقدرة استبصاره ، إذ يجيء فيه بالحرف الواحد «لقد انتشرت روايات كثيرة عن جيللر الذي برهن على قدرته في ثني المعادن بقوى غير معروفة طبيعتها ، ومع ذلك فإن ملاحظاتنا عن قدرته على ثني المعادن في معملنا ، لم تسفر عن تقديم أي دليل حاسم لكي يساند نظرية الظواهر الخارقة» !

والحق أن علماء معهد ستانفورد للبحوث قضوا أوقاتا طويلة في تحقيق هذه الظاهرة ، مع وضع شروط محكمة لكي يفوتوا على جيللر كل وسيلة

للتمويه أو الغش والخداع ، ولقد سبق أن قدمنا تجربة شريط النحاس المدهون بمادة تعطي صوتا مسموعا عند ثني الشريط ، وكيف أن جيللر فشل في اليوم الأول ، ولما عادوا في اليوم الثاني تمت «المعجزة» بخدعة ، لأن الشروط الموضوعة لم تكن محكمة ، ولا الرقابة صارمة ، ومن هنا نجح ظاهريا فقط ، وشك الجميع في هذا النجاح ، وعرفوا أن الأمر ينطوي على غش .

وكما حدث مع شريط النحاس ، حدث أيضا مع ملعقة عليها علامات مميزة ، وفشل جيللر في ثنيها ، لأن الرقابة عليه كانت شديدة ، ولكي يضعف هذه الرقابة بدأ يطلب أشياء أخرى من الحاضرين ، لكي يشغلهم عن ملاحظته ولو للحظة خاطفة ، وقدموا له ما أراد دون أن تغفل عيونهم عنه لحظة واحدة ، فقضى اليوم كله دون أن يحقق نجاحا ، وعندئذ انصرف الجميع ، وتركوا الملعقة معلقة في مكانها ، بينما كل الأشياء المعدنية التي طلبها جيللر قد كومت في ركن من المعمل .

ولما عاد جيللر في اليوم التالي ليحاول مع الملعقة من جديد ، بدأ يطلب أشياء أخرى ، أو كان يذهب بنفسه إلى الكومة المهملة من المعادن التي وضعت في الركن ، وهذه بالطبع لا تدخل ضمن مواد الاختبار ، لكن جيللر أحضر من بينها ملقاطا معدنيا لم يكن أحد يعطيه أي أهمية ، لأن التركيز كله كان على الملعقة وقضيب آخر من المعدن . وعندما أحضر الملقاط استطاع أن يكسره وهو ينظر إليه ، والخدعة هنا واضحة ، لأن الملقاط كان قد تعرض للكسر خلسة بيديه لا ببصره . . . ثم إن من يكسر ملقاطا من الصلب بنظرة ، ألا يستطيع أيضا أن يثني ملعقة في الوقت ذاته؟

إن مثل هذه التجارب لم تنشر في مجلة نيتشر ، لأن الريبة تحيط بها من كل جانب ، ثم إن مجموعة معهد ستانفورد تعرف أن جيللر

بارع في خفة اليد ، وهذا من صفة الحواة . . . وعن هذا يقول جيللر في أحد العروض التي قدمها بإشراف بوب ماك اليستار في التليفزيون الأمريكي ، في يوم ٣ مايو ١٩٧٤ : «إن كل شيء يمكن تكراره (بواسطة الحواة) ، لكن ذلك لا يعني أنني أسلك سبيلهم» !

والحواة يؤكدون بدرهم أن جيللر حاو مثلهم ، لكن اتخذ نغمة القوى الخفية التي أضفاها عليه بعض رجال العلم دون وجه حق (من أمثال د . بوهاريش ، د . إدجار ميتشيل . . . الخ) ، ولقد كان جيللر يتحاشى دائما القيام بأي محاولات تظهر قدرته أمام أي حاو محترف ، لأن هذا يعرف مكامن الخدع والتمويه ربما أكثر من العلماء . . . فلقد خدع جيللر بالفعل بعض العلماء ذوي النوايا الطيبة ، واعترفوا بذلك فيما بعد ، إرضاء لضمائرهم !

لكن . . . هل سارت الملاعق والسكاكين وراء يد جيللر ، مع أن المسافة بينهما عدة أمتار ؟!

إننا نترك ذلك لذكاء الإنسان أولا ، ولعقيدته ثانيا ، مع الإشارة إلى أن ذلك لم يرد على الإطلاق في المحيط العلمي ، لا أمام علماء الفيزياء ، ولا علماء الكيمياء . . . ولا غيرهم ، أما إذا تمت هذه «الخوارق» في تصورات الناس ، أو على المسارح ، فإن العلم لا شأن له بما يجري في التصورات ولا على المسارح ، بل يترك ذلك لتسلية العامة ، وليس في التسلية ضرر على أي حال ، إنما الضرر واقع على العلم إذا ألصقت به هذه الخزعبلات دون مبرر ، إذ لو ثبتت صحتها حقا ، لسارع بنشرها ، ويكون بذلك قد وضعها أمام العلماء لمزيد من البحث والدراسة .

ومع ذلك كان لابد أن نسوق هذه الواقعة ليتعظ بها كل ذي عقل رزين . . . والواقعة يسوقها لنا بوب ماك اليستار الذي أشرنا إليه منذ قليل ، إذ هو يضع أمام أعيننا بعض الاحتياطات التي اتخذها مع جيللر

عندما زعم أنه يريد أن يفعل شيئا أكبر من ثني الملاعق والسكاكين (وهو في هذا كاذب) . . . إنه سيحاول أن يوقف سلما متحركا من ذلك النوع الذي يوجد في المحلات التجارية الكبيرة ، حيث يدور السلم صعودا وهبوطا بين الطوابق . واقترح جيللر أن تكون المحاولة في محلات «بلومنجديلز» . . . لكن قسم المعلومات التابع للتليفزيون الذي يعمل فيه ماك اليستار اقترح أن تكون المحاولة في محلات «جمبلز» ، لأن قسم المعلومات هذا كان يتعاون مع قسم العلاقات العامة في جمبلز ، لكن جيللر ظهر عليه بعض الضيق ، واختفى مدعيا أن هناك مكالمة تليفونية مهمة يريد أن يجريها ، وعندما ذهب ماك اليستار إلى محلات جمبلز ، وتحدث مع أحد الحراس هناك عن هذا الموضوع ، أخبره الحارس أنه من الممكن إيقاف السلم المتحرك في أي طابق من الطوابق ، من خلال أي محول كهربي موجود في كل طابق بجوار السلم المتحرك . ولما عاد ماك اليستار إلى جيللر ، وأخبره أنه يوافق على شروطه ، وسيدعه يجري تجربة إيقاف السلم في محلات بلومنجديلز ، مع أخذ الاحتياطات الكفيلة بعدم تمكين جيللر من لمس أي محول كهربي ، لم ينجح جيللر في إيقاف السلم !

هذا ويزعم بعض الصحفيين الأجانب أن جيللر كان يخبرهم في أثناء ركوبه معهم في سياراتهم أنه بإمكانه أن يركز بصره على السيارة فتتوقف ، وكانت السيارة تتوقف بعد قليل دون سبب ظاهر ، والسبب لعبة خادعة يعرفها جيللر مقدما(*) ، لكن اللعبة كانت تنطلي عليهم ، فلا رقيب عليه هنا فيما يفعل! . . . وعندئذ تنتشر الأخبار بأن جيللر يتحكم في الآلات بقواه الخارقة التي حيرت البشرية !

(*) الواقع أن هذه اللعبة يجريها بعض الصبيان على السيارات التي يغيب عنها أصحابها ، فإذا جاءوها ، وساروا بها عشرات ومئات الأمتار ، دون سبب ظاهر ، وهنا يظهر الصبي الميكانيكي لإصلاح خلل يعرفه مقدما ، لأنه هو الذي فعل الخلل أثناء غياب صاحب السيارة ، وبهذه الخدعة يتكسب قوته !

ويعلم الغيب !

والذي يتقصى أمر جيللر بعقلية متفتحة سوف يقع على مواطن الخداع والتمويه في حركاته ، فالمفاتيح التي كان يثنيها أمام الصحفيين بنظرته المجردة ، ثبت فيما بعد أنها كانت وهما وخداعا ، وطبيعي أنهم سارعوا بعمل الدعايات اللازمة لشخصه دون التحقق من أفعاله ، والصحافة على أي حال تعيش على الخبر المثير دائما ، أما غير المثير ، فقد لا يكون له أحيانا في مجالها من قبول .

ولقد ادعى جيللر كثرا أنه يعرف الأحداث قبل وقوعها ، والحكايات التي يرويها الناس كثيرة ، ولا شك في أنهم قد بالغوا فيها ، ومن هذه الحكايات ما يقصه علينا البروفيسور راي هيمان ، الذي أشرنا إليه من قبل ، إذ يقول : بينما كنا جلوسا مع جيللر ، وفي حوالي الساعة الرابعة مساء ، وقف جيللر فجأة ، وادعى أن هناك شيئا خفيا يناديه ، ولابد أن يذهب في التو واللحظة إلى داره ، لكنه عاد إلينا مرة أخرى بعد حوالي نصف الساعة ، وأشار إلى أحد الحاضرين محذرا إياه من السفر بالطائرة (وكان هذا الشخص قد عوّل على السفر في أثناء جلوسهم إلى واشنطن) ، بدعوى أن هاتفا كان قد أوحى إليه في أثناء تناولهم الغداء أن هناك طائرة سوف تتحطم ، وهنا اتصل أحد الحاضرين بجريدته ليعلن النبأ مقدما حتى يكون لها السبق الصحفي ، وردت عليه الجريدة بأن الطائرة قد تحطمت بالفعل أثناء فترة الغداء في واشنطن ، وأن هذا الخبر كان يذاع بالفعل من دور الإذاعة في الوقت الذي انصرف فيه جيللر من القاعة .

فإذا كان جيللر يطلع على الغيب حقا ، وهذا ما لا يمتلكه الإنسان ، فلماذا لم يخبر الصحاب بذلك في تلك الفترة أو قبلها ولو بدقائق ؟! . . . لقد أراد جيللر أن يخدع ، ولا شك في أن الفكرة قد جاءته بعد أن سمع

الخبر ، فعاد ليضلل ، ولولا تلك المكالمة التليفونية ، لكان له شأن آخر ، ولقالوا عنه إنه يوحى إليه بالأحداث مقدما !

ويذكر بروفيسور هيمان كذلك أنه قد دعي إلى معهد ستانفورد للبحوث بناء على طلب ممثل الحكومة في هذه التجارب ، وفي واحدة منها طلب جيللر أن يوكل إلى أي شخص محايد أن يكتب رقما على «نوتة» ورق موضوعة على مكتب ، وتقدم المدعو جورج ليكتب الرقم ، بينما وضع جيللر يديه على عينيه مدعيا أنه يطمسهما ولا يرى شيئا ، وهنا يقول هيمان : «لقد استطعت أن أرى عيني جيللر من الزاوية التي أقف فيها وهي تختلس النظر من بين يديه إلى يد جورج وهي تخط الرقم» ! . . . ويستطرد هيمان قائلا : «ولقد كان بمقدوري أيضا أن أعرف الرقم الذي كتبه جورج من حركة يده على الورق . . . لقد عرفت أنه قد كتب الرقم ١٠» . . . ولا ننسى أن هيمان يعرف تماما حركات الحواة وألاعيبهم ، ولهذا استطاع أن يكشف الخدعة .

لقد ذكرنا هنا تلك الواقعة بالذات لارتباطها بواقعة أخرى حققناها بأنفسنا ، إذ كانت لي مجموعة أخرى من الأصدقاء (كثيرهم مثقف وقارئ وهاضم) الذين يعيبون علي عدم اعتقادي في المعجزات ، خاصة أن العلم قد درسها واعترف بإمكان حدوثها (نفس النغمة المكررة دائما) ، ولكي يبرهنوا لي بالدليل القاطع على ذلك ، راحوا يسردون علي ما يأتي به الدكتور «س .م .» المنوم المغناطيسي من إنجازات أشبه بالمعجزات ، ولن أجد لها في علومنا الحديثة من تفسير إلا أن نرجعها إلى قوى خفية امتلكها بعض الناس ، وطلبت أن أرى هذا الرجل (وهو ليس بدكتور ، بل هم يضفون عليه هذا اللقب ، أو هو الذي أضفاه على نفسه ، فلا أحد يلومه على ذلك) ، وحددوا معه موعدا ، وطلبت ألا يعطوه عني أي معلومات ، وقد كان ، وذهبنا إليه في «عيادته» ، ووجدنا زبائن كثيرين . . . منهم من جاء يطلب العلاج ، أو

يبحث عن شيء ضائع ، أو لديه مشكلة عاطفية . . . الخ . . . الخ ، وانتظرنا حتى ينفض المهرجان المخدوع ، ولنجلس مع منومنا جلسة هادئة لا يتدخل فيها زبون .

باختصار شديد : جاء الرجل بالوسيط ونومه ، ومد يده إلى الجيب الداخلي لسترة صديق من أصدقائنا ، وأخرج منها أوراقا ، ومن ضمنها بطاقة عائلية ، وكان هو ينظر إلى البطاقة ، وراح يشجع الوسيط ببعض الكلام ، والوسيط المنوم يعرف ما فيها . . . اسم الصديق ، وتاريخ ميلاده ، ورقم البطاقة ، وما شابه ذلك ، وكان كل شيء صحيحا ، وعندئذ نظر إلى الجميع نظرة ذات مغزى ، وكأنما لسان حالهم يقول : كيف تفسر ذلك ؟

وجاء دوري ، ومد الرجل يده إلى سترتي ليخرج من الجيب الداخلي ما به من أوراق أو ما شابه ذلك ، لكنني اعترضت قائلا : بشروطي لا بشروطك !

كانت شروطي أن أختار بنفسي مواد الاختبار ، فما دام قادرا على استكشاف الغيب أو المجهول بواسطة وسيطه ، فماذا يمنع من اختياري شيئا من المجهول له ولوسيطه وللحاضرين !

ووافق الرجل على ذلك ، ومددت يدي في جيبي ، ثم أخرجتها مطوية ، وطلبت منه أن يستكشف ما فيها ، فراح يتمتم ويضغط بيده على يدي ، ويسبل جفنيه على عينيه ، وطلب من الوسيط أن يذكر أمام الجميع ما أخفيه ، فقال الوسيط بعد تردد : إن في يدي شيئا معدنيا ، وطلبت منه أن يوضح أكثر ، فذكر مفتاحا أو نقودا ، وعندئذ فتحت يدي ، وعرضتها على الجميع .

لقد أخفق الرجل ووسيطه في أول اختبار . . . إذ لم أكن قد أخرجت من جيبي شيئا ، وعرضت يدي ، فإذا هي خاوية !

وسمعت من بعض أصدقائي تعليقا ليس له ما يبرره ، إذ قال لي معاتبا : إنك متعسف فيما ذهبت إليه ، وعولت عليه ، وطلب مني المنوم أن

أجرب شيئا حقيقيا ، ووضعت يدي مرة أخرى في جيبي ، وأخرجتها هذه المرة مطوية على شيء ، وعاد الوسيط فذكر ـ وبناء على إيحاء من منومه ـ أن في يدي عملة فضية أو برونزية !

وأخفق المنوم ووسيطه للمرة الثانية ، إذ كانت يدي تنطوي على «نوتة» أو مفكرة صغيرة استخدمها في تدوين أرقام التليفونات وأسماء الناس وعناوينهم .

وعاد المنوم وطلب إليَّ أن آخذ ورقة وأكتب فيها شيئا ، ثم أطويها ، وأضمها إلى راحة يدي ، وأدعي أنه يستطيع أن يقرأ ما كتبت .

وقدم إلي ورقة وقلما ، وأفسح لي مكانا على مكتبه ، إلا أنني رفضت أن أكتب شيئا في الحجرة التي نجلس فيها جميعا ، واستأذنت أن أكتب في حجرة مجاورة معزولة ، وعدت بما كتبت ، وفشل الرجل في معرفة حرف واحد مما خطته يميني .

ووجم الحاضرون ، وأحسست بحرج ، خاصة بعد أن بدأ المنوم يتصبب عرقا ، فأيقظ وسيطه ، ونوم نفسه ذاتيا (كما يزعم) بعد أن قال إنه سيحاول بنفسه قراءة ما كتبت ، وظل يهذي ويتمتم ، وكأنما هو يستجمع قوة خفية أو ذاتية ، وتقلص وجهه ، وتصبب عرقه ، وبدأنا نتعاطف معه ، أو نرثي لحاله ، لست أدري ، وبعد حوالي دقائق خمس عاد الرجل من غيبوبته المصطنعة ، واعتذر من عدم تمكنه من إحراز نجاح في تلك الليلة لإرهاق طويل حل به من جراء مشاكل عائلية . . . هذا الذي يزعم أنه يحل مشاكل الناس ، ويعرف من الأسرار ما لا يستطيع أحد معرفته ، وهونا عليه الأمر . وانصرفنا على أن نلتقي في محاولة أخرى ، وسار الأصدقاء بجواري واجمين ، بعد أن اتفقوا على ألا يعودوا إلى مثل هذا أبدا ، ويبدو أنهم قد اقتنعوا أنني كنت على حق . . . وهم على باطل .

ما نود أن نرمي إليه هنا أن منهج البحث العلمي الذي نمارسه في معاملنا وجامعاتنا يحتم علينا أن نتحرى الدقة في كل ما يقال ، خاصة

إذا كان خارجا عن نطاق العقل ، ثم إننا لا ندعي القدرة على كشف كل خداع الحواة ، فكثيرا ما يكونون على درجة من حسن التصرف ، أو خفة اليد ، أو التهرب ـ في حالة الفشل ـ بطريقة تحفظ عليهم ماء وجوههم . وطبيعي أن هذا المنوم أو الحاوي له وسيلته في تلقين وسيطه بما يريد من معلومات حاضرة بين يديه ، كأن يحرك شفتيه بطريقة لا يلحظها الحاضرون (لقد كان الرجل يدير لنا ظهره ، ويواجه وسيطه) ، أو أن هناك شفرة أو رموزا متفقا عليها بين الاثنين ، أو ربما كان هنا خيط رفيع يصل بين هذا وذاك ، وعن طريق شد هذا الخيط بإيقاع محدد (كما يحدث مثلا في شفرة إرسال التلغراف) ، يعرف الوسيط ما يريده منومه من أرقام وحروف . . . الخ ، والواقع أنني لم أتحر الأمر لكي أعرف السر ، وإلا لكنا قد أفسدنا الجلسة من أولها .

وكم من مرة أردنا أن نتحرى حقيقة من يدعون تحضير الأرواح ، أو الإتيان بأي شيء يطلبه الناس منهم ، أو الذين يقرأون الغيب ، أو يتعاملون مع الجن . . . الخ ، إلا أن محاولاتنا معهم قد فشلت ، خاصة عندما نبدأ في إملاء شروطنا ، أو تحري حقيقة ما يجري أمامنا ، وعندئذ قد يثورون ويعتذرون عن عدم الاستمرار في نشاطهم ، بدعوى أنني لست من المعتقدين ، ووجودي يفسد العمل (هكذا !!) .

والحكايات التي يرددها الناس عن معجزات الآخرين كثيرة جدا ، لكن أحدا لم يكلف نفسه ولو مرة واحدة ، بتحري الحقيقة ، ولو فعل بشيء من ذكاء ، لعرف مواطن الخداع !

على أن قصة يوري جيللر قد تهون بجوار ما قدمه أنيس منصور مثلا في كتابه «القوى الخفية» ، عن ناس طيبين من أمثال الحاج ميرغني ، والشيخ المنياوي ، والشيخ طنطاوي جوهري . فمنهم من كان يحضر النبيذ والطيور المحمرة من الهواء ، ومنهم من كان يمد يده من نافذة القطار خالية ، فتعود بأرنب ، ومنهم من يقرأ الغيب . . . الخ ، (ورحمهم

الله أجمعين ، فلقد كنت تواقا حقا لمقابلتهم) ، وكل هذه أمور تميت الدين والعقل والعلم ، لكن حسبنا هنا أنها حكايات تتداول بين الناس ، فتسعدهم وتثير خيالهم ، وحمدا لله على أن كاتبها لم يذكر أن العلم قد حققها ، واعترف بصحتها ، وعجز عن فهمها ، وإلا لكان لنا مع تلك الحكايات شأن آخر!

جيللر جديد في فرنسا !

لم يكن يوري جيللر هو الشخص الوحيد الذي ظهر على مسرح أحداث تلك القوى الخفية ، بل ظهر له في فرنسا مثيل ، ويدعى جين بيير جيرارد ، ولهذا الفرنسي سند يقف وراء ظهره ، ويمده بالتشجيع المادي والأدبي والعلمي (تماما كما كان د. بوهاريش يساند جيللر) . فيجيء تشارلز كروسارد ليضع كل الإمكانيات المتاحة لدراسة ظاهرة القوى الخفية عند جيرارد . وكروسارد هذا يشغل وظيفة مدير البحوث في واحدة من أكبر الشركات الفرنسية (شركة بيشيني للكيماويات والمعادن ، وهي تحتل المركز الخامس بين الشركات الضخمة هناك) ، كما يرأس أكثر من ثلاثة آلاف عالم وموظف وباحث ينتشرون في معامل بحوث الشركة في طول البلاد وعرضها ، ولقد وافقت الشركة على أن يقوم علماؤها وباحثوها على تحري حقيقة جيرارد ، ووضع كل الإمكانات المادية والمعملية تحت تصرفهم ، وأن يشرف على هذا البحث مدير البحوث تشارلز كروسارد .

ولقد تقدم كروسارد ومعاونوه بنتيجة بحوثهم في عام ١٩٧٦ إلى مجلة «نيتشر» ، لنشرها فيها (على غرار ما حدث مع مجموعة معهد ستانفورد للبحوث) ، وفيها تقارير عن ١١٦ حالة ثني معادن بقوة جيرارد الخفية ، وأن بعض هذه الحالات الناجحة قد تم تحت رقابة صارمة . لكن البحث يذكر أيضا أنه «في بعض الحالات قد غم الأمر

علينا ، وربما قد ينتج عن ذلك خدع لم نتنبه إليها ، لكننا لم نلحظ هذه الخدع» !

وفي هذا البحث (الذي لم ينشر لأسباب سنتناولها فيما بعد) ذكر كروسارد أن من ضمن الأشياء التي نجح جيرارد في ثنيها بقواه الغامضة عدة مفاتيح ، وأن مفتاحين منها قد تقوسا قليلا في أثناء وجودهما في يد أحد المساعدين ، وأن صفيحة من الألومونيوم المفرطح قد التوت في موضعين عندما قرعها جيرارد بأصبعه في أثناء وجودها في كف أحد الباحثين ، كما أن بعض القطع المعدنية قد ثنيت ثم استقامت في أثناء تحقيق هذه الظاهرة . هذا بالإضافة إلى ٢٥ قضيبا معدنيا مستديرا ظهر عليها اعوجاج ، وفي واحدة منها كان قضيب من الصلب موضوعا داخل أنبوبة مغلقة ، وأمكن ثنيه ومغنطته ! . . . الخ ، (أي أن جيرارد هذا يمتلك موهبة مغناطيسية شديدة تمغنط الحديد) .

وعندما عرضت ورقة البحث على هيئة النشر ، تخوفوا من نشرها ، فبعض ما جاء فيها قد يثير العديد من النقد والشك ، وقد يضعف ذلك من شأن هذه المجلة العلمية الجادة ، فكان أن اقترح كروسارد أن ترسل المجلة من تراه متشككا في هذا الأمر ، لكي يرى بعينيه بعض هذه التجارب ، ووافقت هيئة تحرير المجلة على ذلك (وهذه قد تكون أول مرة ترسل هيئة المجلة من يراقب بحثا في معمل) ، وأرسلت اثنين من هيئتها : دافيد دافيز ، وكريس إيفانز (ولقد كان هذا الأخير من المتشككين ، وهو في الوقت ذاته من المقيِّمين للبحث الذي نشر قبل ذلك لمجموعة معهد ستانفورد للبحوث) ، وأجرى جيرارد أمامهما - بحضور آخرين - تجارب ثني المعادن ، كما شهدا بعض الأفلام التي صورت أحداث التجارب السابقة ، ولكن دافيز وإيفانز قد أبديا بعض الملاحظات ، وتشككا في بعض الشروط الموضوعة من قبل ، وأنهما غير مقتنعين - تماما - لا بما جاء في الأفلام ، ولا بما رأياه . وقد ساء هذا النقد كروسارد كثيرا ، لكنه عاد وذكر أنه يوافق على النقد الذي

أبداه كل من دافيز وإيفانز ، ولا بد من وضع شروط أكثر حرصا ، خاصة في مثل هذا المجال .

وعادت مجموعة البحث ودعت الساحر العالمي جيمس راندي ، وكانت المجموعة قد قرأت كتابه «سحر يوري جيللر» ، وفيه وضع راندي «بروتوكولا» (طريقة البحث) يمنع من الغش أو الخداع ، واستعانت المجموعة بما فيه من ملاحظات لها وزنها ، وقبل راندي الدعوة ، كما عاد كل من دافيز وإيفانز من لندن إلى جرينوبل (بفرنسا) ليشهدا التجارب مرة أخرى ، وبشروط أكثر حرصا ، هذا بالإضافة إلى وجود الساحر العالمي راندي الذي يستطيع أن يقع على مواطن الغش أكثر مما يقع عليه العلماء ، وبدأت التجارب بالفعل ، واستمرت ثلاث ساعات ، وبعدها تخلى جيرارد عن محاولاته ، وأعلن فشله . ويرجع هذا الفشل إلى بأن راندي كان له بالمرصاد . وعلى هذا يعلق كروسارد قائلا : «إنني أعترف بأن البروتوكول الذي اختاره راندي كان عظيما جدا» ! . . . رغم أنه قبل ذلك كان قد وقع مع راندي في معركة كلامية تبادلا فيها كثيرا من عبارات العنف والتوبيخ ، ويضيف كروسارد أنه «متأكد من أن جيرارد سوف ينجح في المحاولات القليلة القادمة» .

ولم ينجح جيرارد ، ولم يقبل البحث للنشر في مجلة فيتشر .

والواقع أن هذا الهذيان قد بلغ أشده في كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة . ففي بريطانيا مثلا ادعى عشرات من الصبيان والبنات أنهم قادرون على ثني الملاعق والشوك وما شابه ذلك ، ولهذا أطلق بعض العلماء على تلك الظاهرة اسم الهذيان أو الهوس الجيللرياني (نسبة إلى جيللر) . ولقد تأكد لعامة الناس أن هؤلاء الصغار قد امتلكوا قوة خفية ، وهنا اعتمدت الحكومة البريطانية مبلغا من المال لدراسة هذه الظاهرة في الصغار . . . صحيح أنهم كانوا

يخدعون الناس ، ويظهرون أمامهم وكأنما هم بالفعل يقومون بإنجاز م
يطلب منهم من تلك «المعجزات» ، لكن الأمر اختلف تماما عندم
وضعهم بعض العلماء تحت قيود صارمة ، فتبخرت عندهم تلك
الملكات الخادعة !

وعن هذا الهوس ظهرت كتب كثيرة ، بعضها يؤيد ذلك الهوس (معظمها لكتاب غير علميين) ، والبعض الآخر يدحضها (كتاب علميون) . ونحن لانستطيع أن نتعرض لهذه القضية أكثر من ذلك ، فالكتابة فيها بالتفصيل لا يكفيها مجلد كامل ، لكن يكفي أن نذكر أن الساحر العالمي راندي قد أعلن عن جائزة قدرها عشرة آلاف دولار ، لمن يستطيع أن ينجح في أي ظاهرة من هذه الظواهر الخارقة . . . ولم يحصل أحد على الجائزة حتى الآن . . . وفي هذا الكفاية لقوم يفقهون فيدركون القول الفصل فيما قدمنا فأوجزنا .

لكن من قبيل المصادفات الغريبة أننا في الوقت الذي كنا قد وصلنا فيه إلى هذه المرحلة من الكتاب[*] ، ظهرت دراسة في مجلة «طبيبك الخاص» القاهرية (عدد أكتوبر ١٩٧٨) ، وفيها أيضا يقدم دكتور وسيم شندي الطبيب الاستشاري بالمستشفيات التعليمية مبلغ ألف جنيه لمن يستطيع أن يجري له جراحة روحية بسيطة ، وفي هذه الدراسة القيمة يذكر : «طالما سألت نفسي : هل هم مخدوعين (صحتها مخدوعون) أم مخادعون» . . . ويستطرد قائلا : «ويحدثونك عن وليم روي وكيف أنه أبرع وسيط معاصر يجسد الأرواح ويستخدم الصوت المباشر للمتوفى ، ولا يذكرون لك كيف ضبط متلبسا سنة ١٩٥٧ بخداعه للجماهير ، ثم نشر وليم روي نفسه سلسلة من المقالات أماط فيها اللثام عن طرق خداعه وكيف كان يستخدم أحدث الأجهزة العلمية في خداعه ، لهم» . . . الخ . . . الخ .

(*) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في مارس (آذار) ١٩٧٩م .

فإذا كان راندي قد قدم عشرة آلاف دولار ، وإذا كان د . شندي قد قدم ألف جنيه لمن يستطيع «إجراء عملية جراحية له في فتق أربي أيمن صغير يحتاج إلى جراحة صغيرة لا تستغرق أكثر من نصف ساعة» . . . فإننا بدورنا نقدم ألفي جنيه لمن يستطيع أن يثبت حقيقة بسيطة عن خبايا الهرم الأكبر . . . ونحن نتحدى كما تحدى هؤلاء .

لكن . . . ما هي قصة الهرم الأكبر أو الأصغر؟

دعنا نفتح لذلك صفحة جديدة ـ في نهاية هذا الكتاب ـ لنرى كيف تكون أنماط التفكير العصري الخرافي !



الفصل السادس

هل الشجر أرقّ إحساسا من البشر ؟

سألني أحد المزارعين الطيبين سؤالا غريبا مؤداه : هل أستطيع حقا أن أزيد محاصيل أرضي زيادة تسعدني ، إذا أسعدت نباتات حقلي بسماع الألحان الموسيقية ؟ . . . وأي نوع من الموسيقى تستجيب لها النباتات أكثر ، لتعطيني محصولا أوفر ، فتقر به عيني ، ويزيد دخلي ؟

عرفت وقتها أن هذا المزارع لابد أن يكون قد سمع أو قرأ شيئا عن هذه الأنباء التي تنشرها الصحافة والإذاعة عن حياة النباتات الغامضة ، والتي تظهرها لنا وكأنما هي مخلوقات ذكية ، ذات عواطف قوية . . . فهي تفرح وتكتئب ، وتحزن وترتعد ، وتستجيب بسرعة للمديح ، أو قد تستاء من سلوك الإنسان «الهمجي» الذي يقتل ويدمر ، فتنفعل وتبكي دما !

أي أن هذه النباتات لابد أن تكون أرق عاطفة ، وأسمى إحساسا من الإنسان سيد المخلوقات . فلو أنك ذبحت ديكا تحت شجرة ، فإن الشجرة تنفعل وتستاء أشد الاستياء ، أو لو أنك ألقيت بسمكة حية على النار ، وكان بجوارك إصيص به زرع ، فإن النبات يرتعد ويهتز من هذه الوحشية ، وقد تفقده عقله ـ على حسب ما جاء في أحد العناوين الكبيرة المثيرة في مجلة «المصور» القاهرية لكاتب لا يعرف شيئا عن أساسيات العلوم ، ولا حتى عن هوامشها . . . إذ تراه يتخذ لدراساته

المنقولة عن كتب رديئة عناوين تقول «الحاسة السادسة عند النبات» . . . «آلام البشر . . . تفقد النبات عقله» . . . «النبات كالحيوان . . . له جهاز عصبي وجهاز دوري» . . . «الطماطم والكرنب والبطاطس تستجيب بسرعة للمديح» . . . «زهور نباتية عصبية ذات مزاج متقلب» . . . «النباتات تستجيب للموسيقى وتزيد إنتاجها» . . . الخ . . . الخ . وربما كان هذا العنوان الأخير هو الذي جذب انتباه مزارعنا ، ليسأل مستفسرا عن إمكان زيادة محاصيله لو أسمع نباتاته بعض الموسيقى !

والمزارع ـ أو غيره ـ لا شك معذور ، فقد وقر في أذهان الناس أن أجهزة الإعلام لا يمكن أن تضلل الناس أو تخدعهم فيما تنشر ، خاصة إذا كان كاتب هذه المقالات يتمتع بشهرة واسعة . . . أضف إلى ذلك أن هؤلاء الكتاب يحاولون ـ بشتى الوسائل ـ أن يلبسوا هذه الخرافات ثوب العلم حينا ، وثوب الدين حينا آخر ، وبحيث تظهر أمام الناس وكأنما هي علوم حقيقية ، وما هي بعلوم ، بل هي من ذلك النوع الذي نطلق عليه أشباه العلوم أو العلوم الكاذبة Polygraph .

لكن الشيء الخطير أن هذه البحوث الزائفة ، أو العلوم الكاذبة قد استعان بها بعض الكتاب الذين يكتبون عن الدين الإسلامي ، فترى أحدهم مثلا يسترشد بهذه الخزعبلات ليدلل بها على بعض أحداث حدثت للنبي محمد عليه الصلاة والسلام .

فلقد وقع بين يديَّ كتاب حديث في سلسلة «كتاب اليوم» التي تصدرها «أخبار اليوم» القاهرية لكاتب إسلامي معروف ، والكتاب بعنوان «صنع الله» . . . ولقد حسبنا أن الكاتب سوف يعرض علينا بعض ما كشفه العلماء حديثا من بديع صنع الله في كل ما خلق فقدر فسوى ، إلا أننا قد فوجئنا بأن الكتاب محشو بكثير من التضليل العلمي والديني . صحيح أن الكتاب ـ من وجهة نظر القارئ العادي ـ

مثير وجذاب ، وأن ظاهره علم مطعم بدين ، أو دين مطعم بعلم ، إلا أن باطنه خيالات وأوهام وخرافات وتصورات غريبة تميت الدين والعقل والعلم جميعا !

وأنا رجل علم في المقام الأول ، وبحكم صلتي وعملي في حقل العلوم التجريبية ـ خاصة في علم النبات والكائنات الدقيقة وعملياتها الكيميائية والفسيولوجية ، فقد أصبح من الميسور علينا أن نكتشف عشرات الأخطاء العلمية ، وبهذه الأخطاء والأوهام حاول مؤلف كتاب «صنع الله» أن يدلل على معجزات نسبها إلى الخالق تارة ، وإلى الرسول تارة أخرى!

وما بني على خطأ . . . فهو خطأ .

كما أن «الساكت عن الحق شيطان أخرس» .

وطبيعي أننا لا نستطيع أن نتعرض هنا لكل الأخطاء التي وردت في هذا الكتاب أو غيره من مقالات تناولتها صحفنا ومجلاتنا ، فذلك قد يحتاج إلى مجلد كامل ، لكن يكفي أن نتعرض هنا لبضع حالات ، لنعرف كم من خطايا ترتكب باسم العلم ، وباسم الدين أيضا !

النخلة التي انحنت وقبلت الرسول !

ففي فصل كامل من فصول الكتاب يسوق المؤلف معلومات ينسبها إلى العلم تارة ، وإلى الدين تارة أخرى ، فهو بطريقة أو بأخرى يريد أن يقنع الناس بإن للنبات عواطف ، وأن هذه العواطف قد حققها العلم أخيرا واعترف بها ، ولهذا نراه يؤسس على هذا الزعم الباطل حكاية شعبية ليس لها من مصدر حقيقي موثوق به . فهو يقول بالحرف الواحد : «إن النخلة قد طأطأت رأسها أمام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحنت هامتها له ، في محاولة منها لتقبيل يده الكريمة

(هكذا !) ، وأنه في اليوم العابس الحزين - يوم أن قبض صلى الله عليه وسلم وتوفاه ربه - شاهد الناس على سعف النخل الذي كان يجاور المنبر الشريف الذي تشرف بالوقوف عليه ، ومخاطبة الناس من فوقه . . . شاهدوا أمرا مذهلا ، وشيئا عجيبا . . . لقد تغير شكل السعف . . . تقوست عروقه في أسف مبين ، وتهدلت أوراقه وتهطلت في منظر حزين ، ويقطع من حضروا أنهم رأوا من السعف البكاء ، وسمعوا الأنين» ! . . . إلى آخر هذه الجمل الإنشائية التي تشغف القلوب !

والمؤلف يعرف - أو عليه أن يعرف ، إن كان لا يعرف - أن الإسلام هو دين العقل والحكمة ، لا دين الخرافة والسفسطة ، والنبي محمد قد تنزه عن ذلك في حياته ، فكيف تكون بعد مماته !

لكن المؤلف يريد أن يربط بين عاطفة النخل والسعف وحزنه على موت الرسول الكريم ، وبين ما يزعمه من تحقيق العلم لهذه العواطف في عصرنا الحاضر ، ولهذا نراه يذكر «أن للنبات إحساساته التي بها يستجيب لكل ما هو ومن هو حوله . . . وأنهم وضعوا أجهزة القياس ، وآلات المتابعة والتسجيل في النبات . . . في داخله . . . وحوله ، وعاملوه بمختلف الانفعالات ، وشتى المعاملات . . . لقد انقبض النبات وحزن وأصابه الأسف كلما أحس بالعنف يقع من حوله ، بل إنه احتفظ لنفسه ببعض المجالات الكهرومغناطيسية لمن كانوا يعيشون معه ، أو يشفقون عليه ، أو حتى يسخرون منه ، أو يوقعون الأذى به . . . وأن هذه المجالات تظل عالقة بالنبات لفترة تطول أو تقصر - حسب رغبة النبات نفسه - على ما يبدو ، وأن النبات قد استجاب حتى لما يسمعه من حقله ، ويشاهده حتى ولو كان على بعد منه . . . لقد أمكن تسجيل زيادة إنتاج النبات للثمار إذ كان بجوار الحقل موسيقى ، وتختلف درجة الزيادة في الإنتاج باختلاف نوع الموسيقى ورتابتها مما سبق الإشارة إليه في بعض الكتب السابقة (أي كتبه التي ألفها هو) . . . وفي الولايات المتحدة أجرى عالم النبات الكبير كليف

باكستر تجاربه على نباتات مختلفة باستخدام أجهزة قياس الانفعالات، وسجل بالقياس والدرجات فرحة النبات عند حضور العالم ليرويه، وأسفه وحزنه وخوفه عندما كان يقترب بشعلة نار منه . . . وأن النبات قادر على التفكير (هكذا !!) . . . ويغمى عليه عندما يهدده بالعنف (!!)» . . . الخ . . . الخ .

فإذا كان العلم الحديث أثبت أن النبات ـ على حد زعم هذا الكاتب أو غيره ـ يحس وينفعل ويحزن ويأسف ويفرح ويتخوف ويفكر ويغمى عليه . . . الخ . . . إلخ، فلماذا ننكر عليه أنه كان يحن للرسول الكريم، وينثني ليقبل يده، أو يبكي لفراقه، ويحزن لموته؟

لو صح أن للنبات خصالا مثل هذه الخصال، لأمكن تصديق حكاية النخل والسعف مع رسول الإسلام، رغم أن ذلك لم يثبت حدوثه على الإطلاق .

لكن . . . ما هي حقيقة كل ما يثار عن النبات ويقال ؟ . . . وهل حقق العلم من ذلك شيئا ؟

باسم العلم يؤلفون الخرافات !

إن التضليل أو الغفلة قد تصل ببعض الكتاب إلى حد إلصاق الألقاب العلمية بمن هم ليسوا علماء على الإطلاق، ليوهموا الناس بجدية ما يكتبون . فكليف باكستر الذي سبق ذكره على أنه «عالم النبات الكبير»، ليس بعالم على الإطلاق، كما أنه لا يعرف عن علم النبات شيئا . . . فهو ضابط شرطة سابق، وواحد من الذين كانوا يعملون لحساب وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة، وكان عمله ينصب على تسجيل الانفعالات النفسية في أثناء استجواب المشكوك في أمرهم بواسطة أجهزة حساسة تعرف باسم

«بوليجراف» Polygraph ، (والمعروفة بين العامة باسم أجهزة كشف الكذب) . . . المهم أن باكستر ـ بعد إحالته إلى الاستيداع ـ أراد أن يشغل نفسه بدراسات غريبة على النبات ، فلقد طاف بعقله أن النباتات كائنات حية ، وأنها ربما تستجيب للانفعالات كما يستجيب لها البشر ذوو العقول ، ومن هذا المنطلق بدأ في إجراء تجاربه الغريبة والمثيرة ، وخرج منها بنتائج أكثر غرابة وإثارة ، فكان أن ضمنها كتابا أطلق عليه «حياة النبات الغامضة» !

ولطرافة المعلومات التي جاءت في هذا الكتاب ، لاقى رواجا عظيما ، وانتشرت أخباره بين العامة والخاصة ، وكان ذلك بداية لعديد من المؤلفات والمقالات التي كتبها ونشرها كتاب يميلون إلى إثارة القراء ، وإظهار أن النباتات تمتلك حواسٌ أرقى من حواسنا ، وعواطف أرق من عواطفنا .

فمن ضمن التجارب المثيرة التي أوردها باكستر في كتابه ، أنه أراد أن يعذب النبات عن طريق غمس إحدى أوراقه في فنجان به قهوة ساخنة ، إلا أن النبات لم يستجب أو ينفعل بهذه المعاملة ، ولم تسجل الأجهزة المتصلة به شيئا ذا بال ، وعندما فكر ـ مجرد تفكير ـ في حرق إحدى أوراق النبات ، وأخرج من جيبه عود ثقاب ليشعله ، عند ذلك ، وقبل أن يشعل العود ، سجلت الأجهزة خطوطا فجائية ، وهذا يعني أن النبات يستطيع أن يقرأ الأفكار ، وإلا فماذا تعني هذه الخطوط الغريبة التي ظهرت فجأة قبل إشعال عود الثقاب ؟!

وكانت هذه النتيجة الغريبة بداية لسلسلة من التجارب التي يريد باكستر أن يثبت بها أن النباتات تنفعل بالأحداث الكائنة حولها ، وأنها قد تدرك ما لا يستطيع البشر إدراكه (لاحظ أن الإدراك من صفات الإنسان وحده ، ولا يعرف ذلك نبات أو حيوان) ، فكان أن أحضر عددا من حيوان «الجمبري» الحي ، وأخذ يسقط الواحد تلو

الآخر في ماء يغلي ، وفي كل مرة كان النبات ينفعل لهذا السلوك الوحشي من الإنسان نحو الحيوان ، ويسجل تعاطفه أو استياءه على هيئة خطوط ترتفع وتنخفض .

وذهبت هذه التجارب الغريبة إلى أبعد من ذلك عندما أوضح لنا باكستر أن لبعض النباتات عواطف وتجاوبا مع أشخاص بذاتهم ، في حين أنها لا تتعاطف مع آخرين ، فهو يحكي لنا مثلا كيف كانت النباتات تطمئن لوجوده ، أو تهدأ لمجرد «سماعها» صوته وهو يتحدث مثلا في حجرة مجاورة ، في حين أن هذه النباتات قد تظهر امتعاضها أو استياءها عندما يحضر شخص مثل بوب هنسون الذي يساعد باكستر في تجاربه ، وسبب عدم الاستلطاف أن هنسون كان يعامل هذه النباتات معاملة غير طيبة !

وتجارب أخرى كثيرة تشير إلى ظواهر نباتية غريبة ومثيرة . . . ظواهر لم يعرفها العلماء الحقيقيون الذين يتعاملون مع النباتات ليل نهار من خلال تجارب مقننة وهادفة ، ولا يمكن ، بطبيعة الحال ، أن تجد شيئا ـ ولو عابرا ـ في مراجعهم العلمية عن هذه الأمور الغامضة التي يقول أدعياء العلم : إنهم ـ أي العلماء ـ قد عاينوها وأثبتوها وتأكدوا منها أن الشجر أرق إحساسا من البشر !

لقد فجر باكستر بتجاربه الغامضة على النبات قنبلة كان لها في عقول الناس استجابة وهوى ، تماما كما فجر المدعو كينيث آرنولد قنبلة الأطباق الطائرة التي رآها بالقرب من جبل رينيير في واشنطن في عام ١٩٤٧ (كما سنوضح ذلك في باب آت مستقل) ومن يومها لم يتوقف هوس الناس بالأطباق الطائرة ، وكذلك لم يتوقف الهوس منذ أن نشر باكستر كتابه «حياة النبات الغامضة» في عام ١٩٦٨ .

تجارب أخرى من الاتحاد السوفييتي

في العدد الأول من مجلة حديثة ذات اسم براق هو «النظم ذات الطاقات النفسية النشطة» ، وتحت عنوان مثير «تجارب أولية في التجاوب والاتصالات بين الإنسان والنبات» يذكر ف . ن . بوشكين - صاحب هذه الدراسة ، وواحد من أساتذة علم أصول التدريس بأكاديمية في موسكو تحمل اسمه ، يقول إن الفضل في دراسته المنشورة في تلك المجلة يرجع إلى الاكتشاف المذهل الذي توصل إليه كليف باكستر ، واستنتج منه أن النباتات ذات عواطف وأحاسيس كالبشر !

ولا ندري لماذا ذكر بوشكين الروسي تجارب باكستر الأمريكي دون أن يعيد إجراءها ليتأكد من صحتها ، خاصة أن مثل هذه النتائج لمن الأمور المثيرة التي تدفع الإنسان دفعا لكي يتحقق بنفسه من مثل هذه الظواهر التي لم يسمع بها أحد من قبل .

لكن يبدو أن العالم الروسي كان أرق شعورا ، وأرهف حسا من زميله الأمريكي ، فلم يلجأ في تجاربه إلى كائن مائي حي ليلقيه في ماء يغلي ، بل لجأ إلى فتاة ذات فتنة وإغراء ، وعلى هذه الفتاة - وتدعى تانيا - أجرى بوشكين تجاربه بالاشتراك أيضا مع أحد زملائه المدعو ف . م . فيتسوف ، واستعانا بنبات «إبرة الراعي» (يعرف باسم الجارونيا أو الجيرانيوم) ، وأوصلاه بجهاز حساس يستخدم في دراسة المؤثرات الكهربية في جسم الإنسان ، وجاءا بالفتاة الجذابة ونوماها ، ولقد فعلا ذلك - كما يقولان - حتى يستطيعا إثارة عواطفها بسهولة وهي على هذا الحال ، وبدأت التجربة والمسافة بين النبات والفتاة المنومة لا تتعدى ٨٠ سنتيمترا ، وأجريت سلسلة من الاختبارات بدأها بأن أسرا إلى الفتاة بأنها رائعة الحسن ، ممشوقة القوام ، فأثر فيها هذا الإطراء ، واحمر وجهها ، وانفرجت أساريرها ، لكن الغريب - كما

يدّعيان ـ أن النبات بدأ يسجل أيضا أحاسيسه في اللحظة ذاتها التي سرى فيها السرور في نفس تانيا، إذ تموج الخط المسجل تموجات منفرجة، لكنهما لم يستطيعا ـ على حد قولهما ـ أن يترجما معنى هذه التموجات، فهل النبات سعد حقا لسعادة الفتاة، أو هل استاء لمثل هذا الغزل المكشوف، وكأنما لسان حاله يقول: ذئبان بشريان مع فتنة نائمة، ولا خير فيهما للعلم والحياة ؟! . . . هذا إن كان النبات قد تأثر حقا بما يجري في الخفاء أو العلن!

ولقد ظل بوشكين وفيتيسوف يثيران الفتاة بإيحاءات مختلفة، وأفكار بعضها وقح، وبعضها طيب، ومع تغلغل هذه الأفكار في عقلها أثناء تنويمها، وانفعالها بها، كان النبات أيضا يبعث «بانفعالاته» من خلال أقطاب خاصة ليرسم الجهاز خطوطا متعرجة، وحمدا لله أنه لم يقتلع نفسه من أصيصه ليهجم على الرجلين، ويخلص الفتاة من أفكارهما السيئة!

القصد . . . أن بوشكين ذكر في بحثه المنشور أن النبات قد أظهر أمرا مثيرا للغاية، فعندما طلب الحاضرون من الفتاة أن تختار رقما يقع بين واحد وعشرة، وأنها بالفعل اختارت الرقم نفسه الذي كانوا قد احتفظوا به سرا، عندئذ فرح النبات، وانسابت تهنئته الحارة على هيئة موجات خاصة . . . أي كأنما النبات يشارك الناس أفكارهم، أو يقرأ أسرارهم، ويعرف أرقامهم، أو كأنما هو يمتلك ظاهرة التخاطر، أو قراءة الأفكار.

وطبيعي أن هذه البحوث ليست من ذلك النوع الذي يرقى إلى النشر في المجلات العلمية الجادة والمتخصصة، بل مجالها مجلات مغمورة تلبس شيئا من ثوب علم زائف، أو مجلات من ذلك النوع الذي يتمسح بالعلم، إذ من غير المعقول أن تأتي مجلة علمية لها وزنها لتنشر بحثا يقول «إن العالم النفساني أروين جريف (وهو ليس بعالم على أي حال)

قد دون ملاحظاته حول حياة النبات ، وتبين أن للنبات مشاعر كالإنسان» (هكذا !!) . . . وكان جريف من أولئك الذين يتمتعون بقدرات نفسية غير عادية تسمح له بإجراء الاتصالات التخاطرية مع الأحياء والأشياء من حوله ، وهو يصف رحلة قام بها إلى لونج أيلاند لإلقاء محاضرة ، فيقول إنه كان يتطلع إلى ما حوله في الحجرة التي جلس فيها قبل إلقاء المحاضرة ، وبدأ ممارسة هوايته في الاتصال التخاطري بما حوله كوسيلة لتمضية الوقت ، فاسترعى انتباهه نباتان بالحجرة ، وعندما قام بالتركيز على النباتين ، أدرك على الفور أن أحد النباتين في حالة طبيعية عادية ، أما النبات الآخر فكان مريضا مختل القوى ، وعندما أقبلت صاحبة البيت ، نقل إليها جريف إحساسه بالنسبة للنباتين ، فأخبرته أن النبات الأول طبيعي ، وأنه قد مضى على وجوده في منزلها مدة طويلة ، أما النبات الثاني فقد جاء به إلى منزلها حديثا أحد الأصدقاء ، وقال إنه كان في حجرة بأحد المستشفيات مع مريض يعاني من آلام السرطان قبل أن يموت ، ومن أجل هذا تحقق من أن النبات الثاني قد مرض وأصابه الجنون (هكذا !!) لطول ما عاناه من آلام وهو يعايش آلام المريض المتوفى» !

مثل هذا الخيال السقيم لا يمكن أن تجد له أثرا في مجلاتنا العلمية لسبب بسيط ، ذلك أن النبات لا يمتلك جهازا عصبيا ، ولا مخا متطورا ليدرك به ما يدركه الإنسان ، ودعك إذن من الحيوان ، فرغم أن للحيوان مخا ، وبه مراكز للمس والبصر والسمع والتذوق والشم ، وله شيء من ذاكرة ، إلا أننا لم نستطع أن نثبت أن حمارا أو قطا أو خروفا قد مرض وأصابه الجنون حزنا على مرض إنسان . فما بالنا بنبات لا يملك شيئا مما يملكه الحيوان . . . ومع ذلك نرى الذين يتحدثون عن هذه البحوث الخادعة يؤكدون «أن للنبات جهازا عصبيا حساسا ، وحياة شعورية خصبة متنوعة ، والنبات شأنه شأن الإنسان ، فيستجيب بمشاعر متباينة فيها الحب والكراهية والفرح والألم والإثارة والإغماء . . . إلى آخر هذه الاستجابات» !!

والذين درسوا العلوم الطبيعية في المدارس والمعاهد والجامعات لم يجدوا في كتبهم ما يشير من قريب أو بعيد إلى وجود جهاز عصبي للنبات ، أو أنه يختزن الذكريات ، أو يعي عالمه بدرجات أكفأ من الإنسان سيد المخلوقات !

إلا أن هذا السخف والغث من القول يصل إلى منتهاه عندما يذكر أحد الصحفيين في واحدة من المجلات الأسبوعية الواسعة الانتشار ، «أن رجلا موهوبا يدعى «بيربانك» استطاع بما قدمه من حب إلى النبات أن يحصل على سلالات غريبة ، وأن يقنع زهور الزنبق بأن تتخلص من رائحتها القبيحة ، وتشع من حولها رائحة ذكية ، ويقنع نبات الصبار بأن يتنازل عن أشواكه بعد أن بثه الحب ، ووعده بالحماية الكاملة» . . . إلى آخر هذه الأوهام والخزعبلات التي يلصقونها بالعلم لصقا . . . أي كأنما موهبة بيربانك تستطيع أن تغير سنة الله في خلقه . . . هكذا بمنتهى البساطة . . . أو الحماقة ، لست أدري !

العلم يتدخل ويدحض تلك المزاعم

وإلى هنا تتدخل الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم لتفند هذه الخزعبلات وترشد الناس ، وتوضح لهم الغث من السمين ، والحق أن هذه الجمعية تتحمل مشكورة أعباء فوق أعبائها ، فما أكثر الأعباء التي يلقيها المضللون باسم العلم على عاتقها .

ويجيء البروفيسور أرثر جالستون عالم فسيولوجيا النبات الشهير بجامعة ييل الأمريكية ، وهذا الأستاذ نفسه هو الذي وقف ضد حكومته ، وتزعم معارضة استخدام مبيدات النباتات والغابات في حرب فيتنام ، وقال إن هذه جريمة شنعاء في حق البيئة والأحياء - يجيء بكتاب كليف باكستر الذي بدأ به هذه الضجة الجوفاء ، وألقى الطعم للكتاب الخياليين ليثروا المكتبات بكتب رديئة من ذلك النوع ،

وناقش مع أعضاء الجمعية أثر هذه الكتب في عقول الناس عامة ، وفي طلبته في الجامعة خاصة ، فيذكر أن حوالي ٣٠٪ من طلبته يعتقدون أن التحدث إلى النباتات ، ومخاطبتها بأسلوب خاص ، يزيد من نموها ، ويكثر من إنتاجها .

ودارت مناقشات طويلة حول المعلومات الغريبة التي ذكرها باكستر أو غيره في كتبهم ، واعترض بعض أعضاء الجمعية على تبني مثل هذه الخزعبلات وتحقيقها ، فهي لا تستحق أن يضيعوا فيها وقتهم وجهدهم ، وعليهم أن ينصرفوا إلى ما هو أنفع وأجدى ، لكن البروفيسور جالستون قد أقنع معظم الأعضاء بأنه من واجب هذه الجمعية الموقرة أن تحسم ذلك الموضوع ، وتضع حدا لهذا الهوس الذي يضلل الشباب ، حتى لا ينجرفوا مع تيار الخرافات التي أخذت تنتشر كالطوفان ، فإذا لم تتصد هذه الجمعية العلمية لذلك ، فمن ذا الذي يتصدى له إذن ؟

وأخيرا اتفق الأعضاء على تكليف لجنة علمية لتدعو باكستر كي تناقشه في كيفية التوصل إلى نتائجه ، ثم إعادة التجارب التي ذكرها باكستر في كتابه ، وتكونت اللجنة بالفعل ، وكلفت بعض المشتغلين في العلوم البيولوجية من تحقيق هذا الأمر ، ليس لأنهم يعتقدون في جدواها ، بل هم يريدون أن يبرهنوا بالتجربة على أن كل هذه المزاعم باطلة .

وكلفت اللجنة دكتور إدجار جاستيجر أحد علماء النبات في جامعة كورنيل ، بإعادة التجارب ذاتها التي أجراها باكستر على نباتاته ، وبنفس الأجهزة والتكنيك الذي ادعى باكستر أنه اكتشف به استجابة النباتات للانفعالات ، كما أسندت إلى دكتور جون كيمبتز عالم فسيولوجيا الحيوان شقا آخر من هذه التجارب .

وعاد الركب بنتائجه ، ويقف جاستيجر ليعلن أن ثلاثة من مساعديه في الجامعة ممن كانوا يتحمسون لأفكار باكستر قد أعادوا تجاربه مرات

ومرات ، واستخدموا فيها كل ما طلبوه من أجهزة وإمكانيات ، ولكنهم أعلنوا في النهاية فشلهم في الحصول على أي نتيجة إيجابية ، ولم تظهر على النباتات أي انفعالات يمكن أن تسجلها الأجهزة .

ويجلس جاستيجر ، ويتقدم كيمبتز ليعلن أنه كان من المتحمسين لما جاء في كتاب باكستر ، وأنه استعان بهذا الأخير في تصميم الأجهزة التي يمكن أن يعيد بها التجارب ليتأكد من صحتها ، إلا أن النتائج ـ للأسف الشديد ـ لم تسفر عن شيء يذكر ، ولقد تقدم كيمبتز بالشكر لباكستر لأنه أتاح له وللحاضرين فرصة المشاركة ، في مناقشة تمنى لو أنها كانت ذات أثر يذكر في مجال البحوث !

لكن باكستر ـ رغم وقوعه في المصيدة ـ لم يجد أمامه إلا أن يهاجم الذين أعادوا تجاربه ، فوصفهم بعدم الدقة والأمانة ، فيكظم الحاضرون غيظهم ، ويسألونه إن كان قد أعاد تجاربه ليتأكد من صحتها ، فقال إنه لا حاجة به إلى إعادة تجاربه ، ففي الإعادة مضيعة للوقت والجهد ، وظل باكستر يماطل ويراوغ ويتملص من أسئلة وقعت على رأسه كالصاعقة ، وأخيرا أراد أن يخرج من هذا المأزق بأن وجه النصيحة إلى دكتور كيمبتز ، بإعادة التجربة على طبقين بهما لبن متخمر (زبادي) ، ويعني ذلك أن كل طبق يحتوي على بلايين فوق بلايين من الميكروبات التي خمرت اللبن ، فإذا وضع سلكا في أحد الطبقين وأوصله بجهاز قياس الانفعالات ، ثم أمد الطبق الآخر المعزول بلبن طازج ، فإن الميكروبات في الطبق الموصول بالجهاز (والتي لم تأخذ نصيبا من اللبن الطازج) سوف تنفعل ، وتسجل انفعالها على الجهاز ، وكأنما هي تغار ، وتطالب بنصيبها من لبن مدرار !

وإلى هنا امتعض أعضاء اللجنة العلمية ، ولامتعاضهم هذا معنى ، فإذا كانت التجارب السابقة قد فشلت في إظهار الانفعالات مع نباتات راقية ،

فهل يمكن أن تنجح مع نباتات دنيئة تتمثل في ميكروبات تخمر لبنا ، أو تعطي خمرا ، أو تقدم مخللا ؟!

ومع ذلك أعيدت هذه التجربة في حضوره ، وتحت إشرافه ، حتى لا يكون له بعد ذلك حجة ، وجاءت النتيجة سلبية !

إن العلم هنا أشبه بالدين ، فأحيانا ما ترتكب الموبقات والخطايا باسم الدين ، أو تحت ستار الدين ، وعلى أيدي أدعياء الدين . . . وقد ينحشر أيضا في زمرة أهل العلم من ليسوا منهم ، وباسم العلم قد يمتهنون محراب العلم ، ويدنسون مقدساته ، ثم يأتي بعض الكتاب والصحافيين ويضفون على هؤلاء المخادعين صفة كبار علماء النبات ، برغم أنهم أدعياء علم ليس إلا !

التعليل خاطئ من أساسه

بعد أن أوضحنا موقف العلم من مثل هذه الخرافات التي يهلل لها بعض الكتاب ، كان لزاما علينا أن نعود إلى مؤلف كتاب «صنع الله» ، فربطه بين هذه الخزعبلات وبين حكاية النخل مع الرسول الكريم قد لا يخفى مغزاه على لبيب ، فباسم الدجل الذي يلصق بالعلم لصقا ، يريد المؤلف أن ينبه الأذهان إلى أن الذين ينكرون انحناء النخلة وبكاءها وأنينها ، مردود عليهم إنكارهم بأدلة دامغة من العلم الحديث الذي أوضح لنا أن النبات يمتلك قدرات ومشاعر ، وما دام الأمر كذلك ، فليس هناك ما يمنع النخيل أن تنفعل وتحزن وتتأوه وتبكي وترتعد لموت رسول الله .

لكننا نعود لنردد «أن كل ما بني على باطل فهو باطل» .

فلا النخلة برأسها طأطأت ، ولا بكى جريدها ، ولا أثبت العلم الحقيقي أن للنبات عواطف وحنينا ، بل هي خرافات تلصق بالدين والعلم معا ، وتصبح عامل تلوث لهذا وذاك !

ثم إذا كانت النباتات تستمتع حقا بالموسيقى ، ويعتدل بها مزاجها ، فيزيد تبعا لذلك إنتاجها بمقدار ١٠ ، أو ١٥ أو حتى ٢٥٪ على حسب ما تشير به هذه الأفكار الساذجة ، فلماذا إذن لا نطبق هذا الاكتشاف في بساتيننا ومزارعنا ، فنذيع على النباتات برامج موسيقية مما تهواها ، لتجود علينا بزيادة محاصيلها ، فتوفر علينا بعض معاناتنا ، خاصة أننا نعيش في عالم يسكنه مئات الملايين من الجياع ؟ . . . لماذا لم نجرب ذلك حقا ؟

الواقع أن استمتاع النباتات بالموسيقى خرافة وتضليل ، ولو وجد العلماء فيها ما يبشر بجزء ، ولو طفيفا ، من أمل ، لكانوا قد درسوها دراسة وافية ، ليس على النبات فقط ، بل على الحيوان أيضا ، ليزيد ذلك من شحمه ولحمه ولبنه وذريته ، فالحيوان على الأقل له أذن يسمع بها ، ومخ يستقبل به أحداث عالمه ، وما نظن أن الحيوان يهتز للألحان ، أو يدرك ما يدركه الإنسان .

لكن الحيوان يهتز للموسيقى !

وقد يطرأ على الذهن تساؤل : وما يدرينا أن الحيوان لا يتمايل مع الألحان ، أو يرقص على دقات الطبول ، خاصة أن الحيّات مثلا تتمايل مع أرغول الفقير الهندي ، وأن الخيول العربية الأصيلة ترقص على نغمات الموسيقى ، والقرود تهتز على دقات الدفوف التي يمارسها أصحابها طلبا للرزق من الناس ؟

ليس ذلك صحيحا تماما ، فالتجارب التي قام بها العلماء في عصرنا الحالي قد وضعت حدا لمثل هذه الخزعبلات ، وأثبتت ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أن الحيّات مثلا لا تهتم على الإطلاق بالموسيقى ـ هندية كانت هذه الموسيقى ، أو عربية أو غربية ـ فالحيات في واقع الأمر صماء ، أي أنها لا تسمع أصوات عالمنا كما نسمعها ، وذلك لسبب بسيط ، فالحيّات

والثعابين ليس لها آذان لتسمع بها الألحان أو الأصوات ، كما أنها لا تمتلك مجرد فتحة ولا طبلة أذن لتستقبل بها الموجات الصوتية ، والغريب أن بعض العرب القدامى قد عرفوا هذه الحقيقة عن الحيات ، وهي التي لا يزال معظم الناس ـ شرقا وغربا ، متعلمين كانوا أو جاهلين ـ لا يعرفونها ، وفي هذا المعنى يقول شاعر منهم :

ذات قرنين من الأفاعي   صماء لا تسمع صوت الداعي

ويقول آخر محتجا على هؤلاء الذين يدعون أن الحيات تسمع الرقية أو التعويذة أو الصفير ، وتخرج من مكمنها ، يقول :

أنعت نضناضا من الحيات   أصم لا يسمع للرقات

وقول ثالث في قصيدة طويلة :

قد كاد يقتلني أصم مرقش   من حبكم والخطب غير كبير

والأصم المرقش مقصود به الثعبان المنقط أو المخطط ، وهو أصم لا يسمع ، والسؤال الذي يفرض نفسه الآن : لماذا ـ إذن ـ تتمايل الحيات ذات اليمين وذات اليسار ، كلما أطلق الفقير الهندي ألحانه من المزمار ؟

الواقع أن الذي يحركها ليس النغم أو الموسيقى ، لكنها تتمايل مع أي شيء يتحرك أمام عينيها ، فلو أنك لاحظت حركة الفقير الهندي وهو يلوح بمزماره يمنة ويسرة ، أو يموه بجسمه ورأسه ، ثم قارنت هذه الحركات بحركات الحية أو الكوبرا ، لأدركت سر الخدعة ، ولعرفت أن حركتها مرتبطة بحركته أو حركة مزماره ، وليست بموسيقاه أو أنغامه . ويكفي أن تدلل على ذلك بإحضار كل الحيات ـ التي يظنون خطأ أنها تسمع الموسيقى ، وتطرب لها ـ وتغطي لها عيونها ، وتصدح أمامها بمزمار ، أو تسمعها كل ألحان عالمنا ، عندئذ لن تتمايل حية ، ولن يتلوى ثعبان ، ولا ترقص كوبرا على الألحان ، مهما طال الزمان !

إن التجارب التي أجراها العلماء قد أوضحت أن الحيات تستقبل الاهتزازات الأرضية الضئيلة للغاية على بطونها ، وبها تعرف ما يجري حولها ، فلو أنك أحدثت ضوضاء جد عالية ، فلن تتأثر بها ولن تتحرك ، لكنك لو لمست السلة التي يسكن فيها ثعبان أو حية لمسة خفيفة ، فسرعان ما يؤدي ذلك إلى انتباهها وشعورها بتلك الهزات الطفيفة ، كما أن الحية تستطيع أن تشعر بقدم إنسان يمس الأرض ، حتى لو كان يبعد عنها خمسة أمتار أو يزيد .

لهذا إذا سمعت «رفاعيا» (وهم مجموعة من الناس يزعمون أنهم تخصصوا في استخراج الثعابين والحيات من مخابئها) ينادي على ثعبان بصفيره ، فلابد أن تعرف أن ذلك خدعة ، فالثعبان لا يسمع الصفير ، كما أن الرفاعي يخدع الناس خدعة أخرى عندما يزعم أنه قد أخرج الثعابين من مخابئها ، فهي لم تكن هناك بالمرة ، بل إن ما سعى إليه منها ، إنما هي ثعابينه التي دربها تدريبا حسنا ، بعد أن يكون قد نزع أنيابها ، حتى يتقي ضررها ، وطبيعي أنه يخفي هذه الثعابين في جيوب سرية ، وقد يلقيها على الأرض أو في مكان مهجور ، وبعدها يتمتم بالعزائم ، ويطلق الصفير ، ويطرق الجدران بيديه ، أو يضرب الأرض بقدميه ، وهنا تستجيب ثعابينه لدعوته (عن طريق الاهتزازات الأرضية) ، وتقبل نحوه ، فيلتقطها حيث كانت ، مدعيا أنها تستجيب «لعزيمته» وسحره ، والناس لكل ما يقول مصدقون ، وكأنهم لا يميزون بين الحقيقة أو الخرافة ، ولهذا تجوز عليهم أمثال هذه الخزعبلات التي عششت في عقولهم من قديم الزمن .

وقد يتشكك البعض فيما نقول ، لكن إثبات ذلك لا يحتاج إلى لف أو دوران ، فلو أنك طلبت من الرفاعي الثعابين التي أخرجها من مخابئها ، والتي ادعى أنها ثعابينك ، فلن يمكّنك منها على الإطلاق ، حتى لو دفعت له قدر أجر استخراجها أضعافا مضاعفة ، ذلك أن

تدريب الثعبان أو الثعبانين اللذين يحملهما معه يحتاج إلى جهد كبير ، وهما ـ في الواقع ـ يمثلان رأس ماله ، وأكل عيشه ، ثم إذا كان استخراج الثعابين من البيوت بمثل هذه السهولة ، فإن حصيلته منها قد تصل إلى العشرات في اليوم الواحد (لأنه يدخل البيوت عشرات المرات ، وفي كل مرة يدعي استخراج ثعبان أو اثنين أو أكثر) ، ولا شك في أن ذلك العدد سيكون عبئا عليه ، فلماذا ـ إذن ـ لا يفرط إطلاقا في واحد منها أو اثنين ؟

الجواب : أن الثعبان أو الثعبانين أو الثلاثة هي ثعابينه المدربة ، لكنه يخدع بها الناس ، وما أكثر المخدوعين ، حتى لو كان ذلك في إخراج الثعابين !

هل الخيول تهتز للموسيقى ؟!

لكن الحصان غير الثعبان ، فللحصان أذنان مرهفتان ، ولا أحد يستطيع أن ينكر أنهما تسمعان ، ولهذا نراه رؤية العين وهو يرقص على الألحان !

وهذا صحيح . . . لكن الحصان لا يدرك ما يفعل ، ولا يعرف للموسيقى طعما ، ولا للرقص معنى ، كل ما هنالك أنه قد درب على ذلك تدريبا حسنا . . . مثله في ذلك كمثل القرد الذي يرقص ويعجن ويؤدي التحية . . . الخ ، أو كمثل الثعبان المدرب ، أو حيوانات السيرك التي تأتي بحركات تثير إعجابنا وتصفيقنا ، وهي قطعا لا تدرك معنى تصفيق أو إعجاب ، أو لماذا تقوم أساسا بهذه الحركات ، اللهم إلا إذا دربت عليها ، ووعتها في ذاكرتها البدائية ، وكلما نجحت في استيعاب حركة من الحركات ، شجعها مدربها بما تهواه من طعام ومعاملة حسنة !

فلو أننا أتينا مثلا بقطيع هائل من الخيول أو القرود أو الحمير أو البط . . . الخ ، وعزفنا لها ألحانا من ذلك النوع الذي يثير مشاعرنا ،

ويحرك وجداننا ، ويدفعنا أحيانا لتحريك أرجلنا أو أصابعنا مع نغماتها ، أو قد نقوم لنرقص على إيقاعها ، لو أننا عزفنا تلك الموسيقى أمام هذه الحيوانات ليل نهار ، فلن نشهد حصانا واحدا وهو يرقص «سامبا» ، ولا حمارا يؤدي «الرومبا» ، ولا قردا يهتز كما تهتز راقصات الزار من البشر ، ولو فعل الحيوان ذلك ، لكان معنى هذا أنه يدرك معاني الجمال كما يدركها الإنسان !

إذن فالحيوان من دون تدريبات طويلة لا يستطيع أن يأتي بحركة واحدة لها في عقولنا مغزى ، فالحصان الذي نراه يرقص على الأرغول ، ودقات الطبول ، لن يترك طعامه ، أو يبرح مكانه ليرقص تلقائيا على هذا الإيقاع ، بل لابد من حضور صاحبه ليؤثر فيه ، فيستجيب الحصان ، ويؤدي حركاته دون عاطفة أو سعادة أو إحساس بفن أو أنغام ، وبعدها سوف يحصل من صاحبه على قطعة من سكر أو أي شيء يهواه ، ومن هذه العلاقات المتبادلة بين الإنسان والحيوان ، قد تظهر أمور لنا فيها تأويلات شتى ، وكثيرا ما يجنح بالناس الخيال والأوهام ، فيتصورون أمورا لا يقرها عقل ناضج ، ولا فكر صائب ، ولا منطق قويم !

وللعلماء في معاملهم مع الحيوانات وسلوكها تدريبات كثيرة وشاقة ، لكنهم لا يفعلون ذلك من أجل تسلية أو إثارة أو بيعها لحلقات السيرك ، بل هم - في الواقع - يبحثون بحثا جادا في أسرار المخ والذاكرة والجهاز العصبي عموما . لكن الأمر يختلف مع النبات ، فلم نسمع أن للنبات جهازا عصبيا يجعله أكثر استجابة للمؤثرات التي تؤثر في الحيوان ، هذا برغم أن علم تشريح النبات الذي بدأ منذ مئات السنوات قد عاين كل صغيرة وكبيرة في خلاياه وأنسجته وأعضائه ، وأنه قد استعان على ذلك بالميكروسكوبات الضوئية والإليكترونية ، فلم يكتشف فيه آثارا لجهاز دوري أو عصبي أو ليمفاوي أو حسي ، كما هو الحال في الحيوان . وهذا يعني أن النبات أبسط بناء وأيسر تكوينا

من الحيوان ، ودعك من الإنسان سيد المخلوقات جميعا ، فهو الوحيد بين ملايين الأنواع الذي يعرف معنى الإدراك ، وبه ميز بين الأضداد ، وعرف النقائض في خيرها وشرها ، وجمالها وقبحها ، وفضيلتها ورذيلتها ، وماضيها ومستقبلها ، وثوابها وعقابها ، ولا يعرف ذلك قرد أو خروف أو حصان أو نبات .

وقد يقول قائل : لكن هناك نباتات تحس وتشعر وتستجيب للمسة من أصبع ، وعندئذ تراها وقد بدأت تضم وريقاتها ، وتدلي أوراقها ، وتنكمش على نفسها ، وكأنما هي تستحي من لمسة أصابتها ، ثم تعود بعد فترة قصيرة - ربما دقيقة - إلى سابق وضعها ، فإذا لمست مرة أخرى عادت إلى الظاهرة ذاتها . . . أليس ذلك دليلا على إحساس وشعور ؟!

ليس ذلك تماما ، وإن كانت الظواهر تشير إلى ذلك ، فإحساس النبات لا يعني أنه يمتلك جهازا عصبيا كما أشارت المعلومات المضللة التي سبق أن أوردناها ، إذ لو ألمّ هؤلاء الكتاب ببعض أساسيات علم النبات ، لعرفوا أن حركة أوراقه ووريقاته تتم بميكانيكية أخرى تختلف في الطبيعة والتفاصيل عما يجري في عالم الحيوان .

ففي عائلة البقوليات توجد عدة نباتات قليلة تمتلك هذه الظاهرة المثيرة ، ومن هذه النباتات نأخذ الميموزا Mimosa كمثال (وهو نوع من أنواع السنط) ، فلقد قام علماء النبات بدراسته وتشريحه ، فوجدوا عند موقع اتصال نصل الورقة بالساق انتفاخا ظاهرا ، وكذلك عند اتصال الوريقات بالنصل الأساسي ، وتعرف هذه الانتفاخات باسم الوثارة أو الوسادة (Pulvinus) . وعند تشريحها وجدوا فيها خلايا رقيقة دائرية أو بيضاوية ذات جدر رقيقة نسبيا (وهي التي يعرفها طلبة المدارس والجامعات في كتبهم الدراسية باسم الخلايا البرانشيمية Parenchyma Cells) . تلك الخلايا تتميز عن الخلايا البرانشيمية الأخرى باتساع المسافات

البينية التي تحيط بها من كل جانب ، كما أن جدر الخلايا في النصف الأعلى من الوسادة أسمك من جدر خلايا النصف الأسفل ، (وكل هذا قد جاء لحكمة سنوردها فيما بعد) ومن القياسات التي أجريت على تلك الخلايا تبين أنها منتفخة بالعصير الخلوي ، ولهذا فهي دائما واقعة تحت قوة شد أو توتر Tension . وبمجرد لمسها أو الضغط الخفيف عليها يهرب الماء من داخل الخلايا إلى المسافات البينية خارجها ، وعندئذ تقل قوة الشد أو التوتر الكائن في داخل الخلايا ، إلا أن التوتر يكون أقل في النصف الأسفل (لأن جدر خلاياه أرق نسبيا من جدر خلايا النصف الأعلى ، ولهذا يفقد ماء أكثر ، ويقل التوتر فيه بدرجات أكبر) ، ومن شأن هذه الميكانيكية أن تؤدي إلى تغير في تكوين الوسادة ، فتفقد بعض صلابتها ، وينعكس ذلك على حركة الورقة والوريقات ، فتتدلى بطريقة توحي إلينا بأن النبات يستجيب للإحساس .

لقد ذكرنا ذلك ، ليتبين لنا أن كل شيء يتم حسب خطط موضوعة في النظم البيولوجية التي تكمن في عالم النبات والحيوان ، وذكرناه أيضا لنصحح تلك المزاعم الخاطئة التي هي أقرب إلى الخزعبلات منها إلى علم له أساس .

والواقع أن هناك مؤثرات كثيرة تؤثر في النبات ، فحركته مع حركة الشمس ، أو سعي الجذر نحو الجاذبية الأرضية ، أو تغيير مساره نحو مصدر مائي ، أو انطوائه على نفسه ليلا ، أو انكماش أوراقه إذا اشتدت الحرارة . . . الخ . . .الخ ، كل هذا مدروس ومعروفة أسبابه ، وتتحكم فيه عوامل كثيرة ، ليسير كل شيء وفق برنامج بديع من لدن حكيم خبير ، لكننا لن نتعرض لذلك هنا ، فليس هذا مجاله . . . إذ يكفي ما قدمنا فأوجزنا .

***

الفصل السابع

الأطباق الطائرة . . . وهم أم حقيقة؟

في مساء يوم ٣ مارس عام ١٩٦٨ ، حل بالناس القاطنين في تسع ولايات أمريكية هوس غريب ، ورعب شديد ، إذ تجلى لهم في تلك الليلة المثيرة «طبق طائر» يحلق فوق رؤوسهم في الفضاء ، وعندئذ انهالت المكالمات الهاتفية على الجهات المعنية ، وراحت تصف للمسؤولين ما رأوه وشاهدوه بأنفسهم ، وفي اليوم التالي نشرت الصحف والمجلات ما رآه الناس رؤية العين ، ثم راحت أجهزة الإذاعة والتليفزيون في تقديم أخبار مثيرة عن ذلك «الغزو» الذي يأتينا من الفضاء على هيئة أطباق طائرة تحمل مخلوقات غريبة .

ولقد اهتمت الجهات العلمية والحكومية بهذه الأنباء ، وبدأت في تجميع كل المعلومات التي رآها الناس في مساء ذلك اليوم ، وانبثق منها تقرير كبير يقع في أكثر من ٤٠٠ صفحة «فولسكاب» ، وطبيعي أننا لا نستطيع أن نعرض ما جاء في ذلك التقرير أو بعضه ، بل يكفي أن نلتقط منه أدق وصف لتلك الظاهرة .

في خطاب طويل ومزود برسومات لذلك الطبق الطائر الذي ظهر في ليلة ٣ مارس ، راحت سيدة تصف هذا الحدث العجيب فتقول : «في تمام الساعة التاسعة إلا ربعا بتوقيت تينيسي ، خرجت أنا وزوجي والعمدة بعد العشاء إلى الخلاء لنتمشى ونتحدث ، وفي هذه الأثناء رنوت ببصري إلى

الأفق الواقع إلى الجنوب الغربي ، فرأيت جسما مضيئا ينطلق في السماء ، لكن ضوءه كان أكبر وأوضح من أي نجم لامع .

وعندما أشرت إلى زوجي وإلى العمدة برؤية ما رأيت ، بدأ الضوء يكبر ويتضح ويلمع أكثر ، وكان يسير في مسار يشبه القوس ، ثم بدأ يغير ألوانه ، ويقترب منا . إنه الآن أكبر وأقرب ، وهو يشبه سيجارا ضخما ، أو جسم طائرة عملاقة ، وعلى هذا الجسم تتراص نوافذ مربعة ، فأثار ذلك دهشتنا البالغة ، لكننا تماسكنا وحبسنا أنفاسنا ، وأخذنا نرقب هذا المشهد بحذر شديد ، ثم بدأ الجسم الطائر يتجه إلى الزاوية التي يقع فيها بيت العمدة ، ولقد وقفنا وقتها صامتين . . . لا حركة ولا كلمة ولا همسة ، لكن حلت بي بعد ذلك صدمة ، إذ اختفى هذا الجسم هنيهة عن أنظارنا بسبب وجود بعض الأشجار ، ثم إذا به يظهر فوق رؤوسنا فجأة !

ولقد دفعني فضولي لكي أعد نوافذ هذا الجسم الغريب ، لكنني طردت هذه الفكرة بعد أن تطلعت عيناي إلى ظواهر أعجب وأغرب ، فشدت إليها اهتمامي ، من ذلك مثلا أن الجسم الطائر كان ذا بريق معدني غريب ، ولقد أعطاني ذلك شعورا بأنه أقرب إلينا مما نتصور ، ثم ظهر لنا ضوء خافت ينعكس على السطح السفلي من هذا الجسم ، وقد يرجع انعكاس هذا الضوء - على حد اعتقادي - إلى أضواء المدينة القريبة ، أو ربما كان من الجسم ذاته ، فلست متأكدة من ذلك .

ولقد كانت دهشتي بالغة عندما رنوت بعيني إلى النوافذ الكثيرة التي بدأت تبعث بضوء ساطع ، أو هو أشبه بالضوء المنبعث من منازلنا المضاءة من الداخل ، ولقد حاولت أن أتبين وجود مخلوقات أو أشياء أخرى داخل هذا الجسم ، لكنني لم أستطع لضيق الوقت» . ثم تضيف السيدة إلى ذلك فتقول : «إن تقديري المبدئي للجزء المضاء من هذا الجسم يقع في حدود ٧٥٪ من طوله ، في حين أن حوالي ربعه الخلفي يبدو مظلما ، وأود أن أؤكد أن الضوء الصادر من هذا الجسم لا يشبه الأضواء المتقطعة والمنبعثة من

طائراتنا أثناء تحليقها ، ثم إن الجزء الخلفي منه كان ينفث وراءه ذيلا من نار ضعيفة ، وكان هذا الذيل بعرض مؤخرة هذا الشيء الطائر ، أما لون النار فمزيج من أحمر وبرتقالي وأصفر ، وهو أضعف في ضوئه من الضوء المنبعث من نوافذنا» .

وتقول السيدة في جزء آخر : «لقد أصغيت تماما في سكون الليل علني أسمع صوتا أو همسا ، فلم أسمع شيئا على الإطلاق ، ولقد كانت هذه أكثر اللحظات رهبة في حياتي ، فالجسم تأكيدا لم يكن طائرة ، ولو كان ، لسمعنا أزيزا واضحا ، خاصة أنه كان قريبا منا ، إذ لم يكن يفصل بيننا وبينه إلا مسافة لا تزيد على ألف قدم (وخداع النظر قد جعلها تخطئ هنا خطأ فاحشا كما سيتبين لنا فيما بعد) ، يضاف إلى ذلك أن الطائرة تنطلق في خط مستقيم ، في حين كان مسار هذا الجسم ملتويا كقوس . ولقد ظهر واضحا ـ بعد ذلك ـ أن هذه المركبة الغريبة قد أخذت تبتعد عنا شيئا فشيئا ، وعندئذ تعلقت عيناي بالشريط الناري الذي يتركه هذا الجسم وراءه ، ولقد كنت أتوقع أن أرى في مؤخرته لهيبا من نار مندفعة ، لكنني لم ألاحظ ذلك ، كل ما لاحظناه أن الأثر الناري قد زاد لمعانا ، وربما كانت زيادة اللمعان نتيجة رؤيتنا لعمق النيران المندفعة من الذيل ونحن ننظر إليها من الخلف ، (لاحظ أن السيدة تحاول أن تعلل كل شيء وكأنما هي عليمة بكل الأمور ، لكن كل تعليلاتها كانت خاطئة كما سيتضح لنا بعد ذلك) .

وفي النهاية أخذ هذا الجسم النفاث المضيء ينطلق ويبتعد عن أبصارنا شيئا فشيئا ، حتى هيئ إلينا وكأنما هو يلاصق الأشجار البعيدة الواقعة في الشمال الشرقي ، وبعدها اختفى للأبد عن الأنظار» !

لقد بدا أن السيدة في خطابها ووصفها لما رأت كانت دقيقة وأمينة ، ثم ذهبت إلى أبعد من ذلك وذكرت في التقرير أنها كانت في صحة جيدة ، وحالة نفسية طيبة ، وأنها تناولت طعاما قليلا مع بعض مشروبات كحولية خفيفة ، ثم إنها لم تأخذ حبوب هلوسة ، ولم تتناول دواء من الأدوية التي

تؤثر في العقل ، أو تزيغ البصر ، وأوضحت مركزها الاجتماعي ، وكيف أنها تتمتع بثقة الناس واحترامهم ، وأكدت أنها كانت متيقظة ومنتبهة تماما عندما راقبت بحذر واهتمام شديدين تلك الظاهرة التي لم تشهد لها من قبل مثيلا .

ولقد تضمن خطابها رسما توضيحيا لهذا الجسم ـ كما رأته ، فجاء كمنطاد مستطيل ، وعلى أحد جانبيه تتراص نوافذ عشرة ، وتحت الرسم كتبت معلقة : لقد انصب اهتمامي على النظر خلال هذه النوافذ ، وليس على شكل النوافذ ذاتها ، إلا أنني أكاد أجزم ـ رغم ذلك ـ بأن النوافذ كانت متناسقة ومتراصة بنظام وفي وضع أفقي مستو ، مع تأكيدي أن النوافذ كانت واضحة تماما ، وذات شكل محدد ، وأنها أكبر من النوافذ التي تتراص على جوانب طائراتنا . وأخيرا تستنتج من كل ذلك أن هذا الشيء ربما كان من النوع «السري جدا» (تقصد قمرا صناعيا للتجسس) أو ربما كانت سفينة قادمة من الفضاء الخارجي !

وصف آخر لسيدة حاصلة على درجة دكتوراه في العلوم

لكن تلك السيدة (واسمها المستعار في التقرير «ماري») لم تكن هي الوحيدة التي وصفت مثل هذا الوصف الدقيق والمطول ، بل هناك عشرات غيرها ، فها هي «إليزابيث» الحاصلة على درجة الدكتوراه في العلوم ، والتي تقوم بالتدريس في فرع تخصصها تكتب بدورها عن هذه الظاهرة فتقول : إن لها اهتمامات خاصة بهذه «الأشياء الطائرة غير المعروفة» ، والتي يطلق عليها العامة اسم الأطباق الطائرة ، وأن ما رأته في هذه الليلة لا يمكن أن يكون ظاهرة طبيعية ، بل كان حقيقة واحدا من الأطباء الطائرة !

وبعد أن قدمت د . إليزابيث رسما توضيحيا لما رأت ، بدأت تسرد في خطابها أنها تطلعت إلى هذا الجسم المحلق من خلال منظار مقرب ، ثم راحت بعد ذلك ترقبه بعينيها المجردتين ، فظهر لها ـ بادئ ذي بدء ـ على

هيئة أقرب إلى الشهاب أو المذنب ، لكنها استبعدت أن يكون هذا أو ذاك ، فمظهره وحركته وألوانه تنفي ذلك ، كما أن هذا الجسم قد صار أجساما ثلاثة بعد أن اقترب من الأفق ، وأبطأ من سرعته ، ولقد تراوحت ألوانها ما بين البرتقالي ثم الأبيض ثم الأحمر . ومن الغريب ـ كما تقول ـ أن الأجسام الثلاثة كانت تحلق في تشكيل جوي متقن ، وأنها كانت تتحرك ببطء شديد في اتجاه الشمال الشرقي .

ولقد دفع حب الاستطلاع إليزابيث لكي تطلق للجسم المحلق شفرة ضوئية محددة من بطارية قوية كانت معها ، ولقد تكررت الشفرة مرات أربعة ، لكن أحدا في هذا الجسم لم يجاوبها بشفرة مماثلة ، ولقد أكدت هي بدورها أيضا أنها لم تسمع من الجسم صوتا على الإطلاق ، لكن كلبها البالغ من العمر سنة وخمسة أشهر قد نظر إلى هذا الجسم ، ثم تمدد وتكوم على نفسه ، وكأنما هو يرتعد من الخوف حتى الموت . (وهذا ظن خاطئ ، لأن الكلاب كثيرا ما تفعل هذه الحركة ، وقد تكون المصادفة هنا لعبت دورها) .

ووصف من إنديانا للظاهرة نفسها

وتأتي رسالة أخرى من إنديانا ، وفيها يقول صاحبها «في حوالي الساعة العاشرة إلا الربع بتوقيت إنديانا نظرت من النافذة لتقع عيناي على جسم طائر عبر الوادي ، وبعد دقيقتين أو ثلاث ، رأيت عمي وعمتي وابن عمي يندفعون إلى منزلي وهم يتصايحون ويخبرونني عن الطبق الطائر الذي رأوه ، وقالوا إنهم وجيرانهم قد شاهدوه وهو يمرق من الأفق إلى الأفق في وقت جد قصير .

ولقد أكدوا جميعا أن هذا الشيء المحلق كان يطير فوق قمم الأشجار ، وأنهم رأوه بوضوح ، لأنه كان يبعد عنهم أمتارا قليلة (وهذا خطأ كبير كما يتضح فيما بعد) ، وهو يشبه إلى حد بعيد جسم طائرة نفاثة لكن من دون أجنحة ، ولقد كان يطلق ألسنة من نيران تندفع من الأمام ومن الخلف ، واتفق جميع هؤلاء المشاهدين على أن الجسم كان مزودا بعدة نوافذ .

ويضيف كاتب تلك الرسالة قائلا «إن ابن عمه قد ذكر له أنه كان في إمكانه أن يرى ركاب هذا الجسم من خلال النوافذ لو أنهم جلسوا بجوارها ، وأخيرا تستنتج الرسالة أن هذا الجسم العجيب لابد أن يكون طبقا طائرا» !

ومن التقارير الغريبة التي تجمعت أيضا لدى الهيئات الرسمية تقرير يقول مرسله «يجب أن ألفت النظر إلى أن النار التي اشتعلت في الحشائش والأعشاب الموجودة في المنطقة لم تكن حريقا واحدا ، بل حرائق عدة ، لأنها اشتعلت في مناطق متفرقة ، ولقد بلغ عددها ـ كما علمت ـ ٧٢ حريقا حتى صباح اليوم الذي ظهر فيه هذا الطبق الطائر ، وأظن أنه كان السبب في تلك الحرائق ، وأرجو أن ترشدوني إلى ما يمكن عمله إذا ظهر مثل هذا الجسم مرة أخرى ، ولقد تضايقت من الناس الذين شاهدوا هذه المركبة الطائرة ، ولم يحاولوا إطلاق النار عليها ، أو تتبعها وإسقاطها» . . . الخ .

والتقارير التي تصف هذه الظاهرة تعد بعد ذلك بالمئات ، ولكل من رآها وصف يختلف عن وصف الآخرين ، لكن الجميع قد اتفقوا على أمر واحد : فهذا الشيء الغريب المحلق ليس إلا طبقا طائرا به نوافذ ، ومن النوافذ تنطلق أضواء ذات ألوان شتى ، وأنه كان قريبا من الأرض .

هذا طبعا رأي بعض الناس ، ودعك إذن من الحكايات والأساطير والتعليقات والمبالغات التي تتردد على ألسنة كل الناس بعد ذلك ، أو التي تنساب من أقلام الكتاب الذين يؤلفون المقالات والكتب عن الأطباق الطائرة (وهي كتب تدر عليهم دخلا يسيل له لعاب المؤلف) ، بل كل همهم أن يعرضوا بضاعتهم المشوقة كما يصورها لهم خيالهم ، وبهذا تروج كتبهم ، ويأكلون خبزهم .

العلم يكشف الحقيقة

لقد تجمعت أحداث هذه الظاهرة المحيرة ـ التي أكد الناس أنها كانت من «فصيلة» الأطباق الطائرة ـ في سجل بلغت عدد صفحاته أكثر من

أربعمائة ، كما سبق أن قدمنا . وجدير بالذكر هنا أن لدى الحكومة الأمريكية (بما في ذلك السلاح الجوي وأجهزة الدفاع الرادارية وملفات البحرية وإدارة المخابرات المركزية) والهيئات العلمية ـ لديها من هذه السجلات ما لو جمع ، لصار مجلدات من فوق مجلدات تنوء بحملها الخيل والجمال ، وهي جميعا تتعرض لمثل هذه الظواهر التي يرجعها الناس إلى ما يسمونه خطأ بالأطباق الطائرة .

وعلينا الآن أن نقدم رأي العلم بعد أن اختلفت آراء الناس ، وتعددت أوصافهم وتقديراتهم . وهذا الاختلاف قد يشكل عبئا على العلماء عند بحثها وتعليلها . . . إذ إن العلماء هنا كخبراء الجريمة أو رجال الشرطة الذين يحققون حادثة ، فإذا بأقوال الشهود تختلف في التقدير والوصف ، مما يشتت الجهود ، أو يضلل العقول الباحثة عن الحقيقة . . . لكن ما أكثر اختلاف الناس في تقديراتهم للظواهر غير المألوفة ، خاصة عندما يشهدونها لأول مرة ، ولا يعرفون عن أسرارها شيئا مذكورا . . . أضف إلى ذلك أن الظاهرة المثيرة أو المخيفة أو المدهشة قد تغير نفسية المشاهد ، وقد يترتب على ذلك خلط في أحاسيسه ، أو ارتباك في رؤيته وتقديراته . . . إلى آخر هذه الأمور التي يحسب لها العلماء ألف حساب وحساب .

إذن . . . فما هو هذا «الطبق الطائر» الذي يشبه سيجارا ضخما ، وبه نوافذ مضاءة ، ويطلق الحرائق الأرضية ، ويحلق فوق قمم الأشجار دون صوت ، ويسبب خوف الكلاب ورعدتها حتى الموت ـ كما جاء في أحد أقوال شهود العيان ؟

الواقع أن تعليل هذ الظاهرة أو الحادثة التي أرعبت الناس في تسع ولايات أمريكية ، وسببت للمسؤولين في أجهزة الأمن والدفاع متاعب وهوسا لا حدود له ، تعليل أبسط مما نتصور . . . صحيح أن الناس قد أجمعت على أنها لطبق طائر ، لكن الحقيقة أنها كانت لـ زوند!

وما هو زوند هذا ؟

إنه زوند الرابع . . . زوند الروسي الذي انطلق من الاتحاد السوفييتي في صبيحة ذلك اليوم المشهود ـ أي يوم ٣ مارس عام ١٩٦٨ ، ثم تجلى للناس في مساء اليوم نفسه على هيئة مثيرة ، وما كان له أن يظهر بتلك الهيئة لولا خطأ قاتل سوف نتعرض له بعد قليل .

فزوند الرابع واحد من سلسلة الأقمار الصناعية التي يطلقها الاتحاد السوفييتي لاكتشاف الكون الخارجي ، ولقد أعلنت موسكو ـ في صبيحة هذا اليوم ذاته ـ أنها أطلقت قمرا صناعيا ليتخذ له حول الأرض مدارا . وكان من المقرر أن تشتغل الصواريخ الحاملة للقمر الصناعي في فترة ما بعد إطلاقه من الأرض ، لكن يبدو أن خطأ فنيا قد حل بالتجربة ، فلم تنجز الهدف الذي أطلقت من أجله ، وتبع ذلك أن دخل القمر منطقة جاذبية الأرض مرة أخرى ، واندفع خلال الغلاف الهوائي في طبقات الجو العليا بسرعة رهيبة ، وهنا حدث ما ليس منه بد ، إذ نتج عن ذلك احتكاك جبار بين زوند الرابع ، وبين جزيئات الهواء ، فأدى ذلك إلى ارتفاع هائل في درجة حرارته إلى الحدود التي تسببت في توهجه ، ثم ما تبع ذلك أيضا من انطلاق شرر كثيف يشبه النار الموقدة التي تتلون بألوان عدة ، فأدى إلى انفصال القمر إلى أجزاء متعددة ، فسبحت في الفضاء الواحدة بجوار الأخرى ، فهيئ للناس أن تلك الأجزاء المتوهجة ليست إلا نوافذ مضاءة في سيجار أو «طبق» طائر !

ولقد لعب خداع البصر ، وحالات الناس النفسية ، وتهيؤهم ذهنيا للدعايات التي يسمعونها ليل نهار عن غزو الأرض بأطباق طائرة ، لعب هذا وغيره دورا مهما في اختلاف الأوصاف وتقدير المسافات في الظاهرة الواحدة . . . فمنهم من قال إنه رأى «الطبق الطائر» فوق قمم الأشجار ، ومنهم من أكد أنه كان ينطلق على ارتفاع ألف قدم أو ألفين أو خمسة آلاف ، لكن الحقيقة أن زوند الرابع كان يسبح على ارتفاع ١٢٠ كيلو مترا من سطح الأرض ، أو حوالي ٤٠٠ ألف قدم!

وهكذا فقد قدم لنا العلم الحل الصحيح لظاهرة جوية من صنع الإنسان نفسه ، ولو لم يتوصل العلماء لشرحها وتوضيحها للناس ، لكان لزوند الرابع شأن آخر ، ولأصبح له في أفواه الناس وأجهزة الإعلام والكتاب الذين يحبون الأخبار المثيرة ، مادة دسمة لنسج مزيد من الخزعبلات والأساطير التي قد تترسب في الأذهان بمرور الزمن ، وعندئذ قد يرجعون كل ظاهرة طبيعية أو صناعية إلى ما يسمونه بالأطباق الطائرة ، وهي ظاهرة - كما يصفها لنا دكتور دونالد مينزل أستاذ الفلك والفيزياء الكونية بجامعة هارفارد بقوله : «إنها أسطورة من الأساطير الحديثة التي توافق العصر الذي نعيش فيه» !

بداية الأسطورة !

وطبيعي أن لكل أسطورة بداية ، ولقد بدأت أساطير الأطباق من مشاهدة عابرة لرجل أعمال أمريكي يدعى كينث آرنولد ، إذ بينما كان يحلق بطائرته الخاصة في يوم ٢٤ يونيو عام ١٩٤٧ بالقرب من جبل رينيير في واشنطن ، إذ به يكتشف وجود ظاهرة غريبة قال عنها : «لقد كانت تطير قريبة جدا من قمم الجبل على هيئة طابور يمتد لأميال خمسة ، وبدت لي وكأنما كل واحدة تلتصق بالأخرى ، ولقد كان عددها تسعة من أجسام تشبه الأطباق ، وكانت تنحرف ببراعة كلما قابلت في طريقها قمة من قمم الجبل ، ثم تهبط ببراعة في المنخفضات ، ثم ترتفع . . . وهكذا ، ثم إنها كانت ذات سطوح مستوية ولامعة لدرجة أنها كانت تعكس أشعة الشمس ، وكأنما هي مرايا مصقولة . . . إنني أقرر أنني لم أشهد ما هو أسرع منها في حياتي» !

وعندما نشر السيد آرنولد هذا الكلام وأذاعه بين الناس ، ثم تناولته الصحافة بنوع من الإثارة ، وعلى طريقتها الدعائية الإعلانية الخاصة ، أطلقت على هذه الأجسام اسم «الأطباق الطائرة» Flying Saucers ، وما هي بأطباق ، ولا هي بطائرة ، إنما هي نوع من السراب الخادع الذي ظهر

نتيجة لظروف جوية خاصة هيأت ظهوره ، وهذه الظروف الجوية يعرفها العلماء باسم الانقلاب أو الانعكاس الحراري Temperature inversion ، إذ كان الهواء في ذلك اليوم ـ وعلى الارتفاع الذي كان يطير عليه آرنولد (٩٥٠٠ قدم) ـ ساكنا وصافيا ، وهذه الشروط من شأنها أن تساعد على مثل ذلك الانعكاس ، وتكوين خداع ضوئي ظنه آرنولد أجساما لامعة كالأطباق .

والذين يرجعون إلى ملفات القوات الجوية الأمريكية سوف يجدون تقريرا مفصلا عن حالة آرنولد وأطباقه (وهو أول تقرير ظهر في هذا المجال) ، ويشير هذا التقرير إلى أن تقديرات آرنولد كانت متضاربة ومتناقضة وليس فيها نوع من الترابط الذي يمكن أن نخرج منه بنتيجة لها معنى ، ثم إن الالتباس أو الخداع البصري قد ظهر في تقديره لحجم هذه الظاهرة أو حركتها أو بعدها عنه . . . الخ ، فحيث ظنها هو بعيدة عنه ، وسريعة جدا في حركتها ، إلا أن تصريحاته للمسؤولين جعلتهم يوقنون أنها كانت قريبة منه ، وأبطأ مما كان يتصور ، مثلها في ذلك كمثل خدعة زوند الرابع ، إذ أكد شاهدو العيان أن «طبقهم» الخيالي كان قريبا جدا ، في حين أنه كان بعيدا جدا ، ثم إن أقوالهم تضاربت في كثير من تفاصيلها . . . والنتيجة أن التقرير قد استخلص أن السيد آرنولد وقع ضحية خدعة الانعكاس الحراري ، كما يقع مسافرو الصحراء مثلا في خدعة السراب الذي عبر عنه القرآن الكريم **«كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا»** . . . وكذلك لم تكن الأطباق شيئا !

لكن . . . ماذا نعني بالانعكاس الحراري . . .؟ وما هي ظاهرة السراب التي يمكن أن تظهر معلقة في الهواء ، فتخدع الناس ، وتثير ثائرتهم ؟

الواقع أن حرارة الشمس تؤثر في الكتل الهوائية الساكنة ، فتجعل منها طبقات من فوق طبقات ، ولكل طبقة منها حرارتها وكثافتها ، فيحدث انكسار أو انعكاس ضوئي خلال تلك الطبقات لصور أشياء في الهواء أو على الأرض ، والماء السراب ليس إلا حالة من هذه الحالات . لكن هناك

حالات أخرى قد ترى فيها مدينة أو جزيرة أو غابة ـ أو أصغر من ذلك أو أكبر ـ معلقة في الهواء ، وليس التعبير الشائع «قصور أو قلاع في الهواء» وصفا خياليا محضا ، بل إنه من الممكن ـ وتحت ظروف جوية خاصة ـ أن نشهد قلعة أو سفينة أو شجرة معلقة في الهواء(*) ، ولهذا تعرف باسم السراب الهوائي ، ولذلك شروط تختلف في تفاصيلها عن السراب الأرضي .

وصور هذا السراب كثيرة جدا ، لكن ليس ذلك مجالها ، ومع ذلك ، فيكفي أن نشير إلى أن أي ظاهرة طبيعية غير مفهومة عند الناس ، تراهم يرجعونها إلى أسباب غير منطقية ولا معقولة ، وغالبا ما يفسرونها بما يلائم بيئتهم ومستوى تفكيرهم ، والحقبة التاريخية التي يعيشون فيها ، فإذا رأوا مثلا سرابا لقلعة أو قرية أو غابة في الهواء ، صاغوا لها أسطورة من أساطير الجن والعفاريت التي كانت تنتشر في العصور القديمة ، وإذا ظهرت لهم هالة ضوئية ، أو كرة نارية ، أو انعكاسات جوية ، أرجعوها إلى كرامات وقداسات ومعجزات وما شابه ذلك ، وطبيعي أن عصر الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية تناسبه أساطير الأطباق الطائرة التي روجت لها الصحافة كثيرا ، وهيأت الناس لتفكير معوج ، بدلا من أن تأخذ بأيديهم ، وتفسر لهم الظاهرة أو الظواهر التي غمت حقيقتها على مداركهم ، وكان لابد من الرجوع إلى العلماء المتخصصين ، فهم أقدر من غيرهم على كشف أسرارها .

على أنه يكفي أن نقدم حادثة واحدة من الحوادث الكثيرة التي توضح لنا كيف يتصرف البشر على حسب الظروف المحيطة بهم ، ففي أثناء الحرب العالمية الثانية رصدت أجهزة الرادار المثبتة في إحدى مدمرات سفن الحلفاء هدفا بحريا ، وعندئذ أطلقوا عليه قذائف مكثفة دون أن يغرقوه ، ودون أن يطلق عليهم هذا الهدف قذيفة واحدة مضادة ، وعندما استبدت بهم حيرة شديدة ، ساروا بمدمرتهم إلى حيث يكون هذا الهدف ،

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع المثير انظر كتابنا «الضوء والخدعة» ـ دار الفتى العربي ـ بيروت .

ولما وصلوا إليه لم يجدوه شيئا ، لكنهم ـ في موقعهم الجديد ـ رصدوا هدفا آخر قريب الشبه من هدفهم الأول ، لكن هذا الهدف الجديد كان ـ في الحقيقة ـ جزيرة مالطة ، أما الهدف الأول الذي أصْلَوه نار قذائفهم وقنابلهم فلم يكن إلا انعكاسا للجزيرة ذاتها فوق سطح الماء . . . ، ولقد لعب هذا الانعكاس خدعا كثيرة يضيق بها هذا المجال ، لكن القوات المحاربة لم تعامله بالأساطير ، بل عاملته بما يلائم حالها . . . عاملته بنيران حارقة ، وغارات مكثفة ، دون أن يفطنوا إلى الخدعة إلا بعد فوات الأوان .

وهذا يعني بوضوح أن الظروف الجوية السائدة قد لا تخدع العين وحدها ، فتريها ظواهر ليس لها من وجود ، بل قد تخدع الأجهزة الرادارية ذاتها ، فبدلا من أن تنطلق موجات الرادار في خط مستقيم إلى طبقات الجو العليا ، نراها ـ تحت ظروف جوية خاصة ـ تنعكس على طبقات من الهواء ذات تكوين معروف ، فترتد إلى الأرض أو البحر ، وقد تنعكس من الأرض أو البحر ، وتعود إلى الهواء ، فتنعكس وترتد مرة أخرى إلى الأرض . . . وهكذا . وهذا ما حدث بالضبط مع حادثتنا الخداعية التي قدمناها ، إذ ارتدت موجات الرادار على جزيرة مالطة ، ورصدتها وعكستها على شاشة الرادار ، وأظهرتها في مكان آخر غير مكانها ، فحسبها الحلفاء هدفا معاديا ، فكان ما كان !

والواقع أن ملفات الهيئات الحكومية والحربية والعلمية مليئة بمثل هذه الخدع الجوية والبصرية والرادارية ، ولا يعرف حقيقتها إلا كل من عاينها ودرسها وعرف أسرارها ، فكم أبلغ المشرفون على أجهزة الرادار ـ خاصة في بدايات استخدامه وتشغيله ـ عن أهداف غريبة ، حتى لقد ذهب بعضهم إلى اعتبارها نوعا من الأطباق الطائرة التي جاءت إلى الأرض من أرجاء الكون ، وطبيعي أن الصحافة غير الرشيدة تجد في مثل هذه الأمور أخبارا جد مثيرة ، وكثيرا ما تضعها في عناوين كبيرة ، حتى تجذب العامة ، فيزيد التوزيع تبعا لذلك ، وعندما تتجلى الحقيقة فيما بعد ، ويقدم العلماء التفسير العلمي الصحيح لما ظهر وخدع ، تغمض الصحافة عيونها ، إذ ليس

في التفسير العلمي ما يثير ، إنما المثير حقا هو ذلك التفسير الخيالي الذي يقع تحت دائرة الخزعبلات والأساطير .

خدعة مطاردة طبق طائر

لكن مما زاد الطين بلة ، وضاعف من اهتمام العامة والخاصة بحكايات الأطباق الطائرة ، أن تقع حادثة غريبة في يوم ٧ يناير عام ١٩٤٨ - أي بعد حوالي نصف عام فقط من رؤية آرنولد ، لظاهرته الجوية المثيرة . . . لكن حادثة يوم ٧ يناير جعلت الخرافة تختمر أكثر ، وأجهزة الإعلام تدق الطبول أعظم .

بعد ظهر ذلك اليوم شاهد بعض الأفراد في قاعدة «جودمان» الجوية ، بكنتوكي بالولايات المتحدة شيئا غريبا معلقا فوق رؤوسهم وبعيدا في الهواء ، ولقد وصفوه بقولهم : «كان يشبه مخروطا من الآيس كريم وعلى قمته شيء أحمر» !

وفي الحال صدر الأمر إلى ثلاثة من الطيارين بقيادة الكابتن توماس مانتل لتتبع هذه الحالة ورصدها ، ومعرفة طبيعتها ، وبعد دقائق قليلة انطلق الطيارون بثلاث طائرات من طراز «ف ٥١ س» ، ولقد اتصل مانتل ببرج المراقبة وأبلغ الذين يعملون فيه أنه لا يزال يتابع هذا الجسم الغريب الذي يبدو له وكأنما هو يزيد وضوحا ، هذا في الوقت الذي قرر فيه مساعداه أنهما لم يريا شيئا ذا بال .

ويعود مانتل فيتصل ببرج المراقبة ويقول : «إنني الآن أتجه إلى أعلى بسرعة ٣٦٠ ميلا في الساعة ، وهي نفس سرعة هذا الجسم الطائر . . . وارتفاعي الآن ٢٠ ألف قدم ، وإذا لم أستطع أن أقترب منه ، فسوف ألغي المطاردة وأعود» !

وكان هذا آخر تقرير تلقاه برج المراقبة من مانتل (أما مساعداه فقد عادا إلى قاعدتهما سالمين) ثم انقطع الاتصال ، وبعدها وجدوا حطام الطائرة وبداخلها مانتل ميتا !

وانطلقت الإشاعات ، وظهرت العناوين الكبيرة لكي تؤكد أن الأطباق الطائرة تحمل العداء لأهل الأرض . . . وأن مخلوقات كونية قد أسقطت طائرة مانتل عندما تجرأ واقترب منها . . . إلى آخر هذه الأخبار المثيرة التي شدت انتباه الناس ، وجعلتهم يرقبون السماء ، علهم يكشفون بدورهم عن طبق طائر . . . فكانت النتيجة أن انهالت آلاف الأخبار التي تشير إلى رؤية أطباق من كل شكل وحجم ولون ، بل لقد ذهب بعض من شاهد هذه الظواهر إلى حد التصريح بأنه قد تحدث إلى هذه المخلوقات ، واستضافهم واستضافوه . . . الخ . . . الخ .

لكن الحقيقة كانت غير ذلك ، إذ إن ما ظنه الناس طبقا طائرا لم يكن في الواقع إلا بالونا ضخما أطلقه بعض العلماء صباح ذلك اليوم في تلك المنطقة لدراسة طبقات الجو العليا ، ولما انعكست عليه أشعة الشمس في المساء وهو على ارتفاع يقدر بحوالي ٦٠ ألف قدم ، حسبه الناس مركبة قادمة من الفضاء ، وعندما قدم المسؤولون التعليل الصحيح لهذه الظاهرة ، ثار المتحمسون للأطباق الطائرة ، ورموا العلماء بالجهل والغباء ، وقالوا : «إذا كان ذلك صحيحا ، فمن الذي قتل مانتل ؟ . . . وأين جثته ؟

الواقع أن الذي قتله كان تهوره واندفاعه ، إذ لم تكن طائرته مزودة بالأوكسجين ، ولم تكن أيضا مهيأة للتحليق على مثل هذا الارتفاع الكبير ، وعندئذ فقد وعيه ، مما ترتب عليه عدم تحكمه في طائرته ، فهوت به ، ولقي حتفه ، ووجدوا في الحطام جثته ، رغم الإشاعات الكاذبة التي انتشرت عن اختطافه من طائرته بمن كانوا في طبقهم الطائر !

مخلوقات كونية تعاشر أهل الأرض!

وتجمعت بعد ذلك آلاف الحالات من الظواهر الطبيعية والجوية والصناعية والبيولوجية ، والتي أرجعها الناس إلى غزو الأرض بالأطباق الطائرة بواسطة مخلوقات من حضارات متقدمة ، وبدأت الجهات المعنية

في تصنيف هذه الظواهر وتقديمها للعلماء والمتخصصين ، علهم يتوصلون إلى حل ألغازها . لكن معظم العلماء نفضوا أيديهم من دراستها لأنها لا تسفر عن شيء ذي بال ، خاصة أن الموضوع أصبح مجالا للدجل والكذب والخداع والقصص الخيالية وما شابه ذلك .

فها هو السيد ترومان بيتورام يتقدم بتقرير يذكر فيه أنه تقابل مع سيدة اسمها أورا - رانز - وهي سيدة جميلة ومثقفة وأكثر علما من أهل الأرض أجمعين ، ثم إنها ذكية غاية الذكاء ، وتستطيع أن تستشف ما يدور في نفسك من أحاسيس ، كما أنها تقرأ أفكارك من أول نظرة ، ثم يذهب ليؤكد أن هذه السيدة جاءت من طبق طائر كان قد هبط لتوه في منطقة خلوية ، وأنها تحدثت معه ، وتحدث معها (ويبدو أن مخلوقات الفضاء تتكلم الإنجليزية !!) ، وأعجبته وأعجبها ، وصحبته إلى طبقها الطائر ، وتعلم منها أشياء كثيرة ، وأخبرته أنها جاءت من كوكب «كلاريون» (وطبيعي أن أحدا لا يعرف كوكبا بهذا الاسم ، بل هو - بلا شك - كوكب خيالي يعيش في دماغ صاحب تلك الرواية) ، ثم رحلت بعد أن قضى معها وقتا ممتعا ومفيدا . . . ولقد وجدت هذه الرواية الخيالية إقبالا ، لأن الناس تهيأت نفسيا لتقبل مثل تلك الخزعبلات من كثرة ما يقال وينشر ويحقق فيه ، وعندئذ لم يبخل السيد ترومان على البشرية بكتاب وضع فيه كل ما تعلمه وعرفه من هذه «الكلاريونية» الحسناء (نسبة إلى كوكب كلاريون المزعوم) ، ثم نراه يمعن في الكذب والخداع ويكتب على الغلاف أنها «قصة واقعية من خبرة شخصية مع الأطباق الطائرة» . . . وطبيعي أن الكتاب لاقى رواجا عظيما ، واهتم الكتاب والصحفيون بهذه الأنباء الخادعة ، فتقابلوا مع مؤلفها ، وحصلوا منه على مزيد من المعلومات الخيالية لينشروها وليزيدوا من هوس الناس ورعبهم .

وسرت العدوى بين الكتاب ، فالمناخ مهيأ حقا لمثل تلك الأوهام ، فيأتي المدعو جورج آدامسكي ليكتب هو الآخر قصته مع طبق طائر ، فيذكر أنه عقد عدة اجتماعات ، ليس هذه المرة مع سيدة واحدة ، بل مع

سيدات وسادة زهرانيين (أي من سكان كوكب الزهرة !!) . إذ هبطوا بطبقهم الطائر بجوار بيته المقام بسفح جبل بالومار الشهير بكاليفورنيا ، وسبب شهرة هذا الجبل ترجع إلى أنه يوجد فيه واحد من أعظم المراصد الفلكية في العالم ، والغريب أن السيد آدامسكي لم يكلف نفسه بالاتصال بواحد من علماء الفلك المقيمين في المرصد القريب ، ولا كان لهؤلاء الزهرانيين اهتمامات بعلوم أرضية ، أو تكنولوجيا بشرية ، إنما كانت كل اهتماماتهم منصبة على السيد آدامسكي وكرمه الأرضي الذي لا يجارى !

ثم يذهب آدامسكي إلى أبعد وأبعد ، ويصف لنا رحلاته في أطباق طائرة هبطت على الأرض ، وانطلقت عائدة إلى السماء ، فذهبت به إلى كوكب الزهرة والمريخ وزحل ، وهذا يعني أنه عاشر الزهرانيين والمريخيين والزحلاويين أكثر مما عاشر أهل الأرض ، ولا ينسى «سفير» الأرض إلى هذه الكواكب أن ينشر صور الأطباق الطائرة التي هبطت ، واختصته بعنايتها دون خلق الله أجمعين ، فيدخل الوهم على الناس أن رحلاته ليست خيالا ، بل حقيقة لا ريب فيها .

ويظهر كتاب ثالث بعنوان «أطباق طائرة من المريخ» ، وفيه يزعم مؤلفه المدعو سيدريك ألينجهام أنه قابل فرقا من علماء المريخ الذين هبطوا في منطقة خلوية على ساحل إسكتلندا ، ويصف لنا كيف أنه عقد معهم اجتماعا ، ثم يشرح في كتابه ما تم في ذلك الاجتماع ، ثم نراه يقدم صورا لأهل المريخ ، والغريب أنهم لا يتكلمون الإنجليزية فحسب ، بل نراهم يلبسون «بنطلونات» بحمالات ، وعلى رؤوسهم يضعون القبعات !!

وتتوالى أمثال هذه الكتب وتنتشر بالعشرات ، وكلها مزودة بصور عجيبة ، ومخلوقات عادية أو غريبة . . . بعضها قصير لا يزيد طوله على ٧٠ سنتيمترا ، وبعضها عملاق ويبلغ من الطول ثلاثة أمتار ، ومنها ما تمتد من رؤوسها زوائد حية تشبه الهوائيات التي نزود بها أجهزة

الاستقبال ، ومنها ما تأتي أصابعها كالمقابض أو الكماشات . . . إلى آخر هذه الأمور التي أبعدت العلماء عن فحص مثل هذه الخزعبلات سنين عدة .

وأخيرا . . . تدخلت الهيئات العلمية للترشيد!

ومع دخول الإنسان عصر الفضاء في عام ١٩٥٧ ، وهو العام الذي أطلق فيه الاتحاد السوفييتي قمره الصناعي «سبوتنيك ١» ، ثم ما تبع ذلك من عشرات الأقمار الأمريكية والسوفييتية ، ثم انطلاق أول إنسان (يوري جاجارين الروسي) في قمر صناعي يدور حول الأرض في عام ١٩٦١ ، ثم رحلات الإنسان إلى القمر ، وهبوطه عليه ، ثم إرسال كثير من البعثات الاستكشافية للكواكب القريبة والبعيدة ، وحديث العلماء عن إمكان وجود صور من الحياة البدائية أو المتطورة أو الأكثر تقدما وذكاء وحضارة من أهل الأرض ، ثم محاولتهم ـ أي العلماء ـ البحث عن هذه الحياة ـ عاقلة أو غير عاقلة ـ بوسائلهم العلمية المتاحة . . . كل هذا وغيره قد أعطى زادا فكريا للمعتقدين في مسألة الأطباق الطائرة لدرجة أنهم تسببوا في إصابة العلماء بصداع مزمن !

وكان لابد من حل يضع الأمور في نصابها ، خاصة أن التقارير التي تجمعت في العالم حتى السنة الماضية قد بلغت أكثر من مائة ألف تقرير أو مشاهدة سجلها الناس لما أطلقوا عليه اسم الأطباق الطائرة ، أو مخلوقات فضائية تختبئ عن عيون البشر في أماكن مجهولة من هذا الكوكب ، أو ظواهر غريبة تخيف الناس وتزعجهم . . . الخ .

والواقع أن بؤرة هذا الهوس تقع أساسا في الولايات المتحدة الأمريكية ، فهناك جمعيات ونواد وندوات ومجلات متخصصة (غير علمية) قد كرست جهودها لتسجيل هذه الظواهر ، أو البحث عنها ، أو شرحها أو تقديم التقارير للجهات المسؤولة لتتخذ فيها أمرا ، وطبيعي أن إدارة المخابرات المركزية

والمخابرات الحربية ، ودوائر البنتاجون لم تغمض عيونها عما يتردد على ألسنة الناس ، أو فيما تنشره أجهزة الإعلام ، إذ هـم يعتقـدون أنه لا دخان بغير نار ، وليس مستبعدا أن تكون بعض هـذه الظـواهـر الطبيعية أو الجوية أو الأرضية وسائل تجسسية من السوفييت ، ولابد من الحذر ، حتى يمكن تجنب الخطر !

ولقد انعقدت لذلك بالفعل عدة مؤتمرات علمية محدودة ، وقدمت دوائر البنتاجون والمخابرات وإدارات القوات البحرية والجوية . . . الخ ، ما لديها من آلاف الحالات التي بعث بها شهود عيان ، وبعضها كان مزودا بصور فوتوغرافية ، أو رسوم توضيحية . . . الخ . ومن أهم هذه التقارير الجادة التقرير العلمي الضخم الذي يعرف باسم تقرير «كوندون» ، وهذا التقرير الوافي ظهر بتكليف من الحكومة الأمريكية للبروفيسور إدوارد كوندون ، ولقد شارك في تحقيقه وكتابته ٣٦ عالما من كل التخصصات ، وظهرت منه طبعة شعبية لتناسب مدارك العامة ، وعنوانها «دراسة علمية لظاهرة الأجسام المحلقة غير المعروفة» ، وهي في ألف صفحة ، وتتناول معظم ما قيل وظهر وسجل في هذا الموضوع طوال عشرين عاما .

ويتبع ذلك تقرير علمي آخر يعرف باسم «مشروع الكتاب الأزرق» ، وهو يضم ملفات تحتوي على ١٣ ألف قصة ومشاهدة ووصف من أفواه من ليست لهم دراية بالظواهر الطبيعية ، إلا أن هذا المشروع الذي كانت ترعاه وتشرف عليه دوائر القوات الجوية الأمريكية قد توقف ، بعد أن تبين أن معظم الحالات التي وردت فيه قد أصابت العلماء بالغثيان ، لأن الناس يتصورون أن كل ظاهرة طبيعية يمكن أن تتحول في خيالهم إلى أطباق طائرة . فأكثر من ٩٠٪ من الـ ١٣ ألف حالة يمكن تعليلها بسهولة بواسطة أشخاص عاديين تلقوا مبادئ أولية في علم الفلك أو الظواهر الجوية ، وعلى مستوى المدارس والمعاهد .

الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم تتبنى القضية !

لكن آخر هذه الدراسات العلمية الدقيقة تأتي على هيئة ندوة أو مؤتمر محدود تحت إشراف الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم ، لكن عقد هذا المؤتمر قد اصطدم بمعارضة ضخمة من بعض أعضاء الجمعية ، وسبب اعتراضهم أنه يجب على هذه الجمعية المحترمة ألا تتردى في مناقشة تصورات خاطئة ، حاك حولها عامة الناس وخيال الكتاب كثيرا من الأساطير . . . تماما كما اعترضت قبل ذلك على تبني ودراسة المشاعر الرقيقة للنبات !

وللمعترضين على مناقشة هذا الموضوع وجهة نظر جديرة بأخذها في الاعتبار ، فلو أن الجمعية قد وافقت على عقد هذه الندوة ، ووضعتها تحت رعايتها ، وسهلت لها مهامها ، فلا يستبعد - بعد ذلك - أن يسعى المنجمون ومحضرو الأرواح والسحرة وقارئو الكف المشعوذون والمعالجون الروحيون . . . الخ ، إلى جمعية تقدم العلوم طالبين منها أن تعقد لهم ندوات أو مؤتمرات خاصة ليناقشوا فيها خزعبلاتهم ، وبهذا يؤكد المشعوذون للناس أن مثل هذه الأباطيل تدخل ضمن مجالات العلوم التي تقوم على أسس وقواعد ، ويكفي تدليلا على ذلك أن تلك الجمعية الموقرة قد احتضنت «علومهم» (وهي ليست علوما على أي حال) ، ويسرت أمورهم ، وأن ما يدعون ليس خرافات ، بل علم له مقومات !

كل هذا وغيره جعل بعض أعضاء جمعية تقدم العلوم يعترضون على مناقشة هذه الظواهرة تحت إشرافها ، لأن مسألة الأطباق الطائرة ليست إلا من أساطير النصف الثاني من القرن العشرين ، ومع ذلك ، وبعد مناقشات واعتراضات حادة استمرت أكثر من عام ونصف عام ، وافقت الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم على رعاية هذه الندوة والإشراف عليها ، آخذة بعين الاعتبار أن مناقشة الأطباق الطائرة لا تعني أنهم يصدقون ما يجول في عقول الناس ، بل إن القصد منها هو ترشيدهم بحقيقة هذه الظواهر ، كما أن من واجب العلماء ألا يتركوا الناس لهوسهم ، وبهذا قد يريحون ويستريحون !

ولقد تحدث في هذه الندوة ١٦ عالما من كل التخصصات ، بداية من علماء في العلوم الإحصائية ، إلى الفيزياء الجوية ، إلى الطبيعة الكونية ، إلى العلوم الفلكية والنفسية والبيولوجية والاجتماعية ، إلى خبراء في الظواهر الطبيعية ، والأرصاد الجوية ، والطب النفسي . . . الخ . ولقد قاد هذه المناقشات وأشرف عليها أربعة من ألمع علماء الولايات المتحدة الذين لهم صلة وثيقة بهذا الموضوع ، وكان أن تمخضت هذه الندوة عن كتاب قيم حوى الدراسات والمناقشات والآراء العلمية ، في ظاهرة «الأجسام المحلقة غير المعروفة Unidentified flying objects أو باختصار UFO'S» .

وطبيعي أننا لا نستطيع أن نتعرض لكل أو بعض ما جاء في هذه الدراسة العميقة ، لكن يكفي أن نشير إشارات عابرة إلى أمور ذات مغزى خاص . . . من ذلك مثلا أن اثنين من أعضاء هذه الندوة العلمية قد اعترضا على تسمية ما يراه الناس باسم «الأجسام المحلقة غير المعروفة» . . . فالتسمية نفسها خاطئة ، كما أنها قد تترك في الذهن انطباعا قد يؤدي إلى تصديقها . فالأجسام تعني أشياء ملموسة ، وقد تكون الظاهرة التي رآها الناس خداعا أو سرابا أو انعكاسا ضوئيا أو موجيا غير ملموس ولا محسوس . . . يضاف إلى ذلك أن كلمة «المحلقة» تعني شيئا ميكانيكيا أو آليا يندفع أو يحلق أو يطير ، ومعظم الظواهر التي يصفها الناس لا تقع تحت هذا الوصف ، كما أن «غير المعروفة» تعبير خاطئ أيضا ، فمعظم الظواهر التي يصفها الناس معروفة لدينا ، أو أننا نستطيع تعليلها ، فكيف نصفها بأنها غير معروفة ، وهي بالفعل معروفة ؟ . . . أي أن مثل هذه الأوصاف قد تعني على مستوى التفكير العام أننا لا نعرف حقيقتها ، ومن هنا قد ينشأ سوء الفهم عند الناس .

لكن مما لا شك فيه أن معظم الظواهر التي شوهدت ووصفت قد أمكن تعليلها ، لكن القليل منها قد استعصى على الحل ، إلا أن ذلك لا يعني - من وجهة نظر العلماء على الأقل - أن عدم معرفة الحل أو التعليل الصحيح قد يؤدي بنا إلى استنتاج خاطئ ، فنسارع باعتبار الظاهرة غير المعروفة طبقا

أو أطباقا طائرة جاءت لتحلق في جو الأرض ، أو تحط على سطحها ، بل يعني أن ما لا نستطيع تعليله اليوم ، قد نعلله غدا ، ذلك أن الإنسان لم يعرف كل شيء على كوكبه أو في أجوائه ، بل إن المعارف والعلوم تتطور مع الزمن باستمرار .

أضف إلى ذلك أن وصف الإنسان العادي لأي ظاهرة محيرة قد تختلف بين راو وراو ، وهذا الاختلاف قد يضلل العلماء ، كما أن كثيرا من المشاهدين للظاهرة قد رسخت في عقولهم بعض اعتقادات عن غزو الأرض بأطباق طائرة ، ولهذا ينطلق خيالهم دائما في هذا الاتجاه ، فتصبح الظاهرة الصغيرة أمامهم كبيرة ، وفي عقولهم مثيرة ، فيضيفون إليها أوصافا ليست موجودة في الواقع ، وطبيعي أن الدقة في الوصف ضرورية ولازمة ، حتى يستطيع العلماء تعليل الظاهرة .

دليل دامغ على الهلوسة !

والواقعة التي نسوقها هنا تؤيد هذا الكلام ، ولقد جاء ذكرها في المرجع الذي أشرفت عليه الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم ، وكانت إحدى الصحف الأمريكية قد نشرتها عام ١٩٦٨ بعنوان «ثلاثون مواطنا يرون طبقا طائرا» ، وتذهب الواقعة إلى القول بأن واحدة من أوضح المشاهدات المحققة في رصد أحد الأطباق الطائرة ، قد ثبتت رؤيتها في «كاسيل روك» التي تبعد ٣٠ ميلا جنوب دينفر ، إذ يذكر عمدة القرية «ويمر» أن ١٢ مواطنا موثوقا بهم قد أقروا بأنهم شاهدوا جسما كبيرا مستديرا ، يشبه فقاعة لامعة ، وهو يحلق فوق المنطقة ، فيما بين الساعة السادسة وعشر دقائق والسادسة و ٢٤ دقيقة مساء . . . ومن جهة أخرى يذكر «موريس فليمنج» مدير إدارة الدفاع المدني لمقاطعة دوجلاس بأن ثلاثين شخصا قد شاهدوا هذا الجسم . ويضيف «هوارد إيليس» أن اثني عشر إشعاعا ضوئيا قد تسلطت عليه فجأة من هذا المصدر ، وأن هذا الضوء يشبه الضوء

المنطلق من فوانيس سيارة عليها غبار كثيف . . . على حين يذكر مواطن آخر يدعى «فيلبس» أنه لم يشهد شكلا على هيئة فقاعة كبيرة ، بل رأى «ضوءا حقيقيا كبيرا لامعا» ، وأن هذا الضوء ـ الذي كان يتحرك بسرعات مختلفة ـ كان على ارتفاع ٦٠٠ قدم تقريبا ، في خين أن قطره كان على الأقل ٢٥ قدما ، لكن هوارد إيليس قدر أن طول هذا الجسم حوالي ٥٠ قدما ، وعرضه ٢٠ قدما وارتفاعه ٢٠ قدما كذلك ، وفي رواية أخرى يقول شاهد عيان إن الجسم انطلق فجأة إلى أعلى وهو يطلق زوجا من كور نارية ثم اختفى ، وتضيف الصحيفة أن موريس فليمنج ذكر أن إدارة الدفاع المدني ، سوف تحصل على عينة من دم إيليس لتقرير ما إذا كان قد أصيب بإشعاع أو أي تغيرات في دورته الدموية !

هذا هو ملخص تلك الواقعة كما رواها بعض المشاهدين «الموثوق فيهم» . ولا شك في أنها ـ بدورها ـ قدمت مادة دسمة للمعتقدين في ظواهر الأطباق الطائرة ، وكان من الممكن أن تبقى دون حل أو تعليل ، وعندئذ تنطلق الاتهامات على العلماء بعجزهم عن معرفة الحقيقة الكامنة وراء هذه الأجسام الغريبة التي يصفها كل مشاهد على هواه ، فتضيع الحقيقة بين الأوصاف المتناقضة والمبالغ فيها إلى أبعد الحدود .

لكن حل لغز هذا الطبق الطائر كان أبسط مما نتصور ، إذ تقدمت سيدة متواضعة تدعى مسز ديتريش (وتقطن في المنطقة التي ظهر فيها هذا الجسم اللامع الكبير الذي تنطلق منه الأضواء وكور النار) ، وأوضحت حقيقة الطبق الطائر الذي فاحت رائحته ، وتعددت أوصافه ، وذكرت أن هذا الشيء هو من صنع ولديها توم (١٤ سنة) وجاك (١٦ سنة) . . . إذ إنهما تلقيا في مدرستهما درسا في العلوم عن تجهيز هذا الشيء ، ومن ثم فقد حضرا إلى المنزل ليوضحا لنا كيف يقومان بالتجربة ، ومدى نجاحها ، ولا يتطلب ذلك إلا كيسا كبيرا من البلاستيك الرقيق الشفاف ، وعددا قليلا من الشموع الصغيرة التي تستخدم في أعياد الميلاد ، وتوضع تلك الشموع داخل ذاك الكيس بعد تحويرات قليلة ، فيرتفع الكيس تلقائيا بفعل الحرارة المنطلقة من الشموع .

أي أن هذا الكيس الصغير قد تحول بقدرة قادر إلى جسم ضخم أطنب الناس في وصفه وبالغوا ، ولولا أن السيدة قد أوضحت الحقيقة لبقي سره مدثرا بالألغاز .

وكم أضاعت هذه التفاهات من جهود العلماء ووقتهم ما لا يقع تحت حصر ، إذ إن هناك من هذا القبيل آلاف المشاهدات التي رويت وسجلت وقفز فيها الناس إلى استنتاجات خاطئة بفضل المروجين لهذا التضليل .

حتى الصبيان يخترعون أطباقا طائرة !

ومما يزيد الأمر تعقيدا أن تأتي مشاهدات مدعمة بصور غريبة ومثيرة ، وبهذه الصور الفوتوغرافية يؤكد ملتقطوها أنها كانت لأطباق طائرة ، وقد لا يجد لها العلماء تعليلا ، فتدرج تحت قائمة الظواهر غير المعروفة .

لكن مثالا واحدا يوضح لنا إلى أي مدى يمكن أن يصل الخداع والتضليل في هذا المجال . إذ تقدم صبي يبلغ من العمر ١٣ عاما بثلاث صور محيرة للغاية ، ويذكر أنه التقطها لجسم غريب يبلغ قطره ما بين قدمين وثلاثة أقدام ، وأنه يشبه قرصا لامعا من معدن قريب من الفضة أو الألومنيوم ، وكان يصدر منه طنين يشبه طنين الذباب ، لكنه كان طنينا متذبذبا (أي يرتفع وينخفض في شدته) ، ولقد بلغت سرعته حوالي ٢٠ ميلا في الساعة ، وقد عرف ذلك من حركة الجسم بجوار صف من الأشجار ، وعندئذ جرى نحوه ، والتقط له صورا ثلاثا ، ثم اندفع الجسم بعد ذلك إلى أعلى واختفى عن الأنظار .

ولقد عجز معظم العلماء عن حل هذا «اللغز العويص» ، إلا أن البروفيسور فرانك دريك أستاذ ومدير المركز القومي للعلوم الفلكية وطبقات الجو العليا بجامعة كورنيل الأمريكية كان أكثر صبرا ، وأعظم دقة ، فعندما عرضت عليه هذه الحالة ، اتصل بالصبي وأجرى معه حوارا طويلا ، ولقد

تبين وقتذاك أن والديه كانا لا يشكان لحظة في أقواله ، كما أن أصدقاءه قد شهدوا له بالصدق في أقواله وأفعاله ، وكما يقول البروفيسور دريك : «لقد وجدته واثقا مما رأى ، ولقد ظهرت لي ـ عندما كنت أتحدث معه ـ نواياه الطيبة ، فتحيزت كلية لتصديقه ، فلقد كان ذكيا لماحا بارعا في الحديث وجديرا بالثقة ، كما كانت روايته محبوكة ، مما وضعني في موقف صعب ومعقد ، لكن ما أثار بعض شكوكي هو موقع الصورة بالنسبة لبعض الأغصان ، والزاوية التي التقطت منها الصورة ، ولهذا طلبت من الصبي أن يصحبني إلى المكان الذي حصل منه على لقطاته المصورة ، وعندئذ وافق على ذلك ، وأمهلني حتى عصر اليوم التالي ، إلا أنني فوجئت في المساء برنين الهاتف في منزلي ، وعلى الطرف الآخر كان الصبي في حالة انفعال بالغ ، وأخبرني أن القصة كلها ليست إلا كذبة ملفقة ، وأنني ـ لا شك ـ سأكتشف أن الشيء كان لا يتحرك على الإطلاق إذا ما قارنت وضع الصور بالنسبة لغصن شجرة متفرع» !

والواقع أن المناخ الأسطوري السائد عن الأطباق الطائرة حول هذا الصبي أو غيره ، ثم اهتمام الناس بكل من يرى هذه الظاهرة ، وحبه في الظهور على مسرح الأحداث ، كل ذلك وغيره قد دفعه إلى اختلاق خدعة متقنة ، فكان أن صنع نموذجا لطبق طائر من الورق المقوى ، ثم علقه في غصن شجرة ، والتقط له ثلاث صور من زوايا مختلفة ، ثم اخترع لذلك قصة محبوكة ، وبها حصل على الاهتمام الذي كان يهواه ، وأخذ اسمه «واكتشافه» يترددان في الصحف والمجلات وفي سجلات الجمعيات والدوائر الرسمية المهتمة بمثل هذه الظواهر ، لكن كل هذا قد انهار على يدي أحد العلماء الأوفياء ، ولولا ذلك لكانت هذه القصة ـ مع آلاف غيرها ـ من الدوافع التي تعمق هذه الخزعبلات في أذهان الناس .

وأحيانا ما يتقدم المعتقدون في غزو الأرض بأطباق طائرة بصور غريبة تظهر فيها أشكال تدل على ما يشبه الأجسام اللامعة المحلقة في الهواء ،

وعندما يفحصها العلماء فحصا دقيقا ، يدركون فيها خدعة من خدع التصوير الضوئي ، أو من خدع الإنسان ذاته ، ففي واحدة من هذه الصور - على سبيل المثال لا الحصر - يبدو منظران لطبقين طائرين كما يتخيلهما الناس ، إلا أن ذلك لا يعني شيئا ، إذ كان من نتيجة انعكاس الضوء على عدسات الكاميرا ، أن ظهرت بقعتان ضوئيتان متعامدتان على الفيلم الحساس ، فأعطتا إحساسا بما يشبه الطبق الطائر .

غير أن الخداع قد يصل إلى منتهاه عندما تنشر الصحف أو الكتب التي يكتبها كتاب يميلون إلى الخيال والإثارة ، صورا متقنة لأطباق طائرة تتوهج بأضواء غريبة ، وأحيانا ما تأتي هذه الأضواء بألوان مختلفة ، إذا كان الفيلم ملونا ، وكثيرا ما وضعت تلك الصور العلماء في حيص بيص ، لكنهم - أحيانا - يكتشفون الخدعة . . . ومن ضمن الصور المضللة أيضا تلك التي تقدم بها أوجست روبرتس ، وأشار إلى أنها لطبق طائر ، ثم ثبت بعد ذلك أنها لنموذج خيالي عليه طبقة من دهان إذا تعرض لضوء قوي ، فإنه يشع هذا الضوء مرة أخرى في مكان مظلم ، فإذا التقطت له صورة بطيئة ، ظهرت الصورة مضيئة ، وهيئ إليك أن ما تراه ليس إلا جسما محلقا في ظلمات السماء .

اختلفت الظنون والظاهرة واحدة

والواقع أن هناك ظواهر طبيعية كثيرة تتراءى للناس بصور شتى ، وهم لجهلهم بحقيقتها وطبيعتها لا يستطيعون تعليلها ، أو قد يعللونها بخزعبلات وأساطير ، وقد يختلف التعليل من بيئة لأخرى ، أو بين عصر وعصر . فالظاهرة الطبيعية ذاتها قد تتجلى لإنسان على أنها نذير شؤم قادم ، لكن غيره يراها على أنها باب من أبواب السماء ، أو كرامة من كرامات الرسل والقديسين ، أو قد يظنها إنسان آخر يعيش في عصرنا هذا طبقا طائرا . . . تعددت الأوصاف ، واختلفت التعليلات ، لكن الظاهرة واحدة !

أذكر مثلا ـ وأنا صبي صغير ـ أنني كنت أتطلع دائما إلى السماء في الليالي العشرة الأخيرة من شهر رمضان ، علني أحظى بدعوة تستجاب عندما يفتح باب في السماء في ليلة القدر الموعودة ، فلقد تواترت حكايات شعبية عن ظهور كوة أو فتحة في السماء «الدنيا» ، فيدخل فيها ، ويخرج منها الملائكة والدعوات وأرزاق الناس وما شابه ذلك ، ثم لا تلبث إلا لحظة أو لحظات وتغلق ، والسعيد من رآها ، ولقد سعدت برؤيتها ، ودعوت بما طرأ على فكري وقتذاك ، إذ إنني كنت أوقن أن للسماء سقفا وبابا يغلق ويفتح مرة واحدة في كل عام !

وعندما كبرت ، وكبر عقلي ، واتسعت بعض مداركي ، رأيت الظاهرة ذاتها ، لكن تعليلي لها الآن يختلف عن تعليلي لها وأنا صبي صغير ، أو غير تعليل الرجل البدائي ، أو من كان يعيش في العصور الخالية ، فما تجلى لي على أنه كوة أو فتحة أو باب في السماء ، لم يكن في حقيقته إلا واحدا من الشهب التي تندفع نحو الغلاف الهوائي ، فتحترق لشدة احتكاكها بجزيئاته ، وعندئذ يحيط بها وهج شديد ، فيتجلى لي في ظلمة الليل وكأنما أرى فتحة في السماء وهي تشع بالضياء .

لكن هذه الظاهرة ذاتها ـ ظاهرة احتراق الشهاب في طبقات الجو العليا ـ قد يراها أناس آخرون على أنها مقذوفات نارية تقتل الشياطين ، أو قد يرجعها إنسان العصر الذي نعيش فيه إلى أطباق طائرة تتوهج بألوان مختلفة ، وتندفع بصور متباينة ، وعندما يحقق العلماء فيما يرى الناس ، وفيما يعتقدون ويصفون ، يتبين زيف ما يعللون !

وقد تتخذ الظاهرة الطبيعية شكلا معقدا ، أو قد تبدو بأوضاع غريبة ومثيرة ، فتجذب فكر الناس ، وتقدح خيالهم ، وتوسع دائرة تصوراتهم ، ولهذا تراهم ينسجون حولها أساطير شتى . لكن الغريب أن ما رآه الإنسان منها قديما ، ووصفها على قدر علمه ، وعللها على قدر إمكانياته ، قد أمكن في عصرنا هذا إرجاع نفس هذه الظاهرة إلى خزعبلات الأطباق الطائرة .

أو قد يجنح الخيال ببعض المفسرين العصريين ، ويلصقون بالقرآن الكريم أوصافا ليست فيه ، ولا هي تتماشى مع معانيه ، ويقولون لك إن الأطباق الطائرة قد ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وهذا يعني أنه لم يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها ، ثم يستشهدون بقوله تعالى ﴿والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركبن طبقا عن طبق﴾ . . . والطبق الذي يقصدونه هو طبق العصر الحديث الطائر ، رغم أن ما قيل عنه ليس من وجهة نظر العلم إلا خرافة ، ولا يصح أن نلصق بكتاب الله مثل هذه التصورات الضالة ، لأن المقصود بالطبق هنا هو الحال ، أي لتركبن حالا بعد حال مطابقة لها في الشدة .

لكن الأمر قذ ذهب ببعض أصحاب التصورات الغريبة إلى أبعد من ذلك ، إذ يدعون أن النبي إدريس أو حزقيال قد صعد إلى السماء أو هبط منها بطبق طائر ، وهذه القصة لا تزال منتشرة حتى يومنا هذا بين الناس ، لكن العلم له رأي آخر . . . فما هي حقيقة هذه القصة الأسطورية التي تناسب زماننا؟

لم يصعد إدريس ولم يهبط في طبق طائر!

لنبدأ هنا بتقديم عدة فقرات قليلة مما تضمنه كتاب «الذين هبطوا من السماء» لأنيس منصور . ففي هذه الفقرات صلة وثيقة بموضوعنا ، كما أنها ستوضح لنا الفرق بين التفسير الأسطوري أو الخرافي لبعض الظواهر الطبيعية ، وبين التفسير العلمي الجاد لهذه الظواهر ذاتها .

يقول أنيس منصور تحت عنوان «سفينة الفضاء التي هبطت في بغداد منذ ٢٥ قرنا» : إن النبي حزقيال كان لابد أن يشغل مكانا مهما في التاريخ الفلكي ، ربما لأول مرة ، وذلك لأن سفن الفضاء والرحلات بين الكواكب هي التي جعلت لنبوءاته الغريبة العجيبة معنى جديدا . . . يقول حزقيال : إنه في يوم ٥ تموز سنة ٥٩٧ ق . م عندما كان يمشي

بالقرب من بغداد رأى شيئا باهرا في السماء ، وسمع من يطلب إليه أن يكون نبيا إلى قومه ، وأن ينذرهم ويحذرهم ، وأن هذا الشيء كما يرويه حزقيال «ريح عاصفة جاءت من الشمال . سحابة عظيمة ونار متواصلة . . . وحولها لمعان ، ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار . . . ومن النار كان يخرج برق . . . الخ» .

ويعلق أنيس منصور على ذلك فيقول : «إنها صفات تنطبق على طائرة نفاثة ، أو سفينة فضاء» . . . هكذا وببساطة شديدة ، وهو في الاستنتاج معذور، لأن استنتاجه هذا منقول عن كتب مثيرة ورخيصة ، ولم يكتبها علماء ، بل كتبها كتاب يميلون إلى الخيال والإثارة ، أو أنهم لا يهتمون بشرح الظاهرة على أساس علمي سليم .

ويستمر حزقيال في وصف الظاهرة التي تجلت له في سحابة عظيمة وريح عاصفة ، فيقول : «ومنظرها وصنعتها كأنها بكرة وسط بكرة ، وإذا ارتفعت الحيوانات عن الأرض ، ارتفعت البكرات ، ولها لمعان من حولها كمنظر القوس التي في السحاب يوم مطر» !

(وهي فقرة منقولة عن مقال كتبه أيضا في جريدة «الأهرام» القاهرية ، ثم ضمنها كتابا بعنوان : الذين صعدوا إلى السماء) .

ويذهب حزقيال إلى أبعد من ذلك ويقول : «ومن وسطها شبه أربعة حيوانات . . . وهذا منظرها ، لها شبه إنسان ، ولكل واحد أربعة أوجه ، ولكل واحد أربعة أجنحة ، وأرجلها أرجل قائمة ، وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل ، وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة . . .» الخ . . . الخ .

والسؤال الآن : هل يمكن أن تأتي سفينة الفضاء أو الطبق الطائر بهذه الأوصاف الساذجة حقا ؟ . . . وهل يمكن أن تتم الرحلات الفضائية ذات الأبعاد الشاسعة بحيوانات ترتفع وتنخفض ، وتجر بكرات داخل بكرات ، أو عجلات داخل عجلات ؟ . . . وهل هناك طريق ممهد ومجسد يربط الأرض بالسماء ، وعليه تتحرك سفينة حزقيال الأسطورية ؟ . . . أو هل

يمكن أن تطير سفينة الفضاء بأجنحة؟ . . . ثم لماذا جاءت بأجنحة أساسا ؟ إلى آخر هذه الأسئلة الحائرة التي يفسرها البعض على هواهم .

والآن : كيف يعلل العلم سفينة حزقيال الأسطورية ؟

يجيب دكتور دونالد مينزل عن ذلك بأن ما رآه حزقيال كان وصفا دقيقا ـ رغم جنوحه إلى الرمزية والشاعرية ـ لظاهرة معروفة تمام المعرفة لعلماء الأرصاد الجوية ، والتي يطلقون عليها اسم الشموسة أو الشمسية أو الشمس الكاذبة Parhelid ، والواقع أن تلك الظاهرة قد تتخذ صورا شتى ، لكنها في كل الحالات تنتج من مرور أشعة الشمس خلال طبقة رقيقة من بلورات الثلج الموجودة عادة في السحب المرتفعة ، والتي تعرف باسم الطخرور أو الطخاف ، وهو نوع من السحاب الرقيق الشبيه بالصوف ، وعادة ما ينتج عن ذلك بقعتان ضوئيتان تقعان على جانبي الشمس وعلى مسافة منها تقدر بحوالي ٢٣ درجة ، وأكثر ما تكون هاتان الشمسان الكاذبتان واضحتين ، عندما تكون الشمس الحقيقية منخفضة في السماء (أي قريبة من الشروق أو الغروب) .

لكن قد يحدث انعكاس آخر مضاعفا ، فتظهر في داخل البقعة أو الدائرة الضوئية بقعة أو دائرة أخرى ، وأحيانا ما يتعامد على الدائرتين خطان ضوئيان يشبهان برامق العجلة ، وهذا ما عبر عنه حزقيال بقوله «ومنظرها وصنعتها كأنها بكرة وسط بكرة» (أي عجلة وسط عجلة ، أو دائرة داخل دائرة) .

ورغم أن البكرتين أو العجلتين قد لا تتلونان بأي لون ، عدا مسحة من لون يشبه الكهرمان على الحافة الداخلية للدائرة الصغرى ، إلا أن هناك قوسا ـ مقلوبا كقوس قزح ، ومتوجا على قمته بلون الياقوت الأزرق ـ يمتد فوق العجلة الكبيرة . . . وبالاختصار فإن الأثر الإجمالي لهذه الظاهرة النادرة والفريدة على العقل البشري هي عربة ضخمة ، مع استثناء واحد ـ كما عبر عنه حزقيال أيضا ـ فحيث تدور العجلات في اتجاه ، فإن العربة تتحرك في

اتجاه معاكس (لأنها تتبع حركة الشمس في شروقها أو غروبها) ، أو كما عبر عنها حزقيال «لما سارت ، سارت على جوانبها الأربعة . لم تدر عند سيرها . بل إلى الموضع الذي توجه إليه الرأس ذهبت وراءه» !

ويضيف دكتور مينزل إلى هذا التحليل العلمي الممتع قوله : «ولقد كانت عادة الناس في الزمن القديم أن يزينوا برامق العجلات بمخلوقات مختلفة ، ولهذا فليس من المستغرب أن يتصور حزقيال وجود مخلوقات حية في الدائرة الضوئية الداخلية ، لكنها في الواقع أربع بقع ضوئية مكثفة ولامعة ، وهو ما عبر عنها بقوله «ومن وسطها شبه أربعة حيوانات . . .» الخ ، يضاف إلى ذلك أن وجود مثل تلك الظاهرة وسط سحاب مرتفع خفيف يشبه ندف الصوف ، يعطي الرائي انطباعا بأن «القطع» البيضاء (أي السحب) حول «العجلات» تبدو له كالأجنحة التي وردت في وصف حزقيال . . . الخ . . . الخ .

الرسول ينفي أن الظواهر الطبيعية معجزات !

والواقع أن مثل هذه الظواهر الطبيعية التي تجلت للناس قديما وحديثا لا تزال تشكل إرثا ثقيلا على العقل البشري ، ولهذا تراهم يربطون بينها وبين أحداث خاصة لتؤكد قدسيتها وأهميتها ، أو أنها لا شك معجزة أو خارقة من الخوارق التي لا تظهر إلا بأمر الله كعلامة دالة على جلال الحدث ومكانته بين أهل الأرض ، وربما يكون حزقيال قد أعطى هذه الظاهرة فوق ما تستحقه ، ليجذب بها اهتمام الناس ، ويؤكد مكانته بينهم .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك أيضا أن «النجمة» التي ظهرت في الشرق فجأة ، وصاحبت مولد المسيح كان لها بين الناس شأن عظيم . . . صحيح أن هذا النجم اللامع البراق لم يظهر للعين البشرية قبل ذلك في السماء ، لكن يتصادف أن يظهر حقا قرب مولد المسيح ، وظل هكذا في لمعانه أثناء مولده ، ثم اختفى بعد ذلك .

لكن العلماء في تعليلهم لمثل هذه الأمور يرون رأيا آخر، فهم لا ينكرون ظهور أمثال هذه النجوم، لكنهم ينكرون ارتباطها بالأحداث الأرضية، مهما كانت مكانة هذه الأحداث . . . ففي الوقت الذي كنا نعد فيه هذه الدراسة، ظهر في مجلة علمية بريطانية تعليل معقول لهذا الحدث الذي يطلق الناس عليه اسم «نجمة بيت لحم»، وأرجعته ـ على حسب ما يقول ثلاثة من علماء الفلك ـ إلى نجم انفجر وقتذاك في السماء، وهو ما يعرف علميا باسم «نوفا» Nova . والنوفا تسمية قديمة أطلقها القدماء على كل نجم يظهر ويلمع فجأة في السماء . لكن النجوم ـ كما يعرف علماء الفلك والفيزياء الكونية جيدا ـ لا يمكن أن تظهر هكذا فجأة بين يوم وليلة، فمولد النجوم أو تكوُّنها يحتاج إلى عمر يقدر بمئات الملايين من السنين .

لقد كانت هناك نظريات تقول : إن نجمة بيت لحم التي صاحبت مولد المسيح ليست معجزة ولا استثناء من القوانين الصارمة لهذا الكون العظيم، بل قد يرجع ظهور هذا الجسم اللامع إلى وقوع كل من المشتري وزحل في خط واحد بالنسبة لعين راصد على كوكب الأرض، وهناك من يعيد هذا الحدث إلى تجمع الكواكب الأربعة اللامعة في خط واحد، فيتراءى للناس وقتها ظهور جسم واضح الضياء، وثمة نظرية ثالثة ترجعه إلى مذنب مر قريبا من الأرض . . . الخ .

إلا أن كلا من دافيد كلارك، وجون باركنسون عالمي الفلك بجامعة لندن، بالاشتراك مع ريتشارد ستيفينسون الفلكي بجامعة نيوكاسل، قد أرجعوا هذا الحدث في بحثهم المنشور إلى انفجار نجم في ذلك الوقت، ولقد تأكدوا من ذلك بفحص ما دونه علماء الفلك القدامى من الأحداث غير العادية التي كانوا يسجلونها عن السماء، إذ أشاروا إلى ظهور نجمين جديدين في الفترة ما بين ١٠ ق . م و١٣ بعد الميلاد، وأن واحدا من هذين النجمين قد انفجر في الفترة التي ولد فيها المسيح، ولقد تحقق العلماء الثلاثة من ذلك بعد إجراء عمليات حسابية وفلكية عويصة . . . وطبيعي أن العلماء لا يزالون حتى اليوم يسجلون انفجار أمثال هذه النجوم ولمعانها ثم

خفوتها (دلالة على موتها) ، دون أن يكون لتلك الانفجارات الكونية دلالات على ما يجري في الأرض من أمور وأحداث .

على أنه من الأوفق أن نذكر هنا تلك الظاهرة التي تجلت للرسول الكريم عندما كان يدفن فلذة كبده إبراهيم ، إذ حدث أن انكسفت الشمس وقتذاك ، وعندئذ هلل الصحابة وكبروا ، واعتبروا أن ما حدث معجزة من المعجزات ، أو أن الشمس قد حزنت لموت الابن الوحيد للرسول ، فكان أن خبا ضياؤها ، ولقد كان من الممكن أن يستغل النبي هذه الظاهرة الطبيعية لتكون سندا له في دعوته التي كانت تلقى معارضة شديدة ، لكنه أبى واستنكر ذلك من صحابته ، وبعقلية متفتحة ناضجة لم يشأ أن يربط بين هذه الظواهر وبين الأحداث الأرضية ، فقال ما معناه : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته .

لقد حدث ذلك منذ ١٤ قرنا ، ورغم ذلك فلا يزال الناس يحاولون ربط حياتهم ومستقبلهم بالكواكب والبروج والنجوم ، وهو ما نفاه الرسول الكريم ، وحذر أمته من الولوج فيه ، وصدق حينما قال «كذب المنجمون ولو صادفوا» . . . من المصادفة لا من الصدق ، لأن المنجمين يصادفون ولا يصدقون ، فليس في التنجيم صدق على أي حال ، إنما قد يذكرون بعض التنبؤات الصحيحة مصادفة (هناك من يقرأون الحديث هكذا : كذب المنجمون ولو صدقوا ، وصحتها : ولو صادفوا) .

وهناك ظواهر طبيعية كثيرة ارتبطت بالخوارق والكرامات والقداسات ، كما أن الناس قد اعتبروا بعض هذه الظواهر فاتحة خير وبركة ، أو نذير شؤم ، لكن العلم لا يرى فيها شيئا من ذلك ، بل إن ظهورها يرتبط بحلول ظروف جوية خاصة تساعد على تكوينها .

ظواهر جوية وفلكية خادعة

وفي وسط هذا الهوس الكثير الذي انتشر بين الناس كالطاعون، فهيألهم أن كل شاردة وواردة في الفضاء ليست إلا طبقا طائرا، في وسط هذا الهوس المجنون يحاول العلماء أن يقوموا بترشيد الناس وتوضيح ما قد غم على عقولهم.

والواقع أن العلماء قد قدموا ما في وسعهم للقضاء على هذه المزاعم التي جعلت الأرض وكأنما هي تكتظ بالأطباق الطائرة، ولكي تدرك المهام الثقال الملقاة على عاتقهم من جراء التخيلات التي تتراءى لعيون البشر، كان علينا أن نقدم الحالات التي ظنها الناس أطباقا طائرة، ثم ظهر أنها ظواهر طبيعية أو جوية أو فلكية أو أرضية أو بيولوجية . . . الخ.

أولا : أشياء مادية توجد في طبقات الجو العليا أو في الطبقات التي تليها، أو في طبقات الجو الدنيا، أو قرب سطح الأرض أو عليها.

أ ـ ففي طبقات الجو العليا قد تظهر الشهب المحترقة، أو قد تدخل الأقمار الصناعية إلى الغلاف الهوائي، أو قد تطلق صواريخها، أو قد تسبح فيها بالونات لعمل تجارب استكشافية على الطبقات الأيونية للهواء (الأيونوسفير)، ولقد انهالت البلاغات من الناس لتؤكد أن هذه الأشياء ليست إلا أطباقا طائرة، لكن العلماء أرشدوهم إلى حقيقتها.

ب ـ وفي الطبقات الجوية التي تليها (إلى أسفل) قد يرصد الناس الطائرات التي تومض وتطفىء، أو التي ينعكس عليها ضوء الشمس، أو قد يشهدون البالونات التي تدرس حالة الطقس (وقد تكون البالونات مضيئة أو مظلمة، أو فرادى، أو في تجمعات)، أو قد يرصدون بعض تكوينات غريبة من سحب، أو يرقبون مناطيد أو بالونات مضيئة للإعلان، أو طائرات حربية للاستكشاف أو تجارب حربية تستخدم فيها أضواء الماغنسيوم، أو أسراب الطيور المهاجرة في طبقات الجو العليا . . . الخ.

ج ـ وفي الطبقات الدنيا من الغلاف الهوائي حسب بعض الناس الأوراق المتطايرة وطائرات الورق المقوى ، أو أوراق الأشجار ، أو أسراب الحشرات والفراشات ونسيج العناكب أو البذور ذات الزغب أو الباراشوت أو الألعاب النارية . . . الخ ، حسبوا كل هذا وغيره أطباقا طائرة ، ثم ثبت زيغ أبصارهم ، أو تهيؤات تضخمت في خيالهم !

د ـ وبالقرب من الأرض أبلغ الناس عن وجود أطباق طائرة ، فتبين أن ما رأوه ليس إلا زوبعة ترابية بعيدة ، أو أضواء مصابيح كهربية معلقة على البعد ، أو مانعات للصواعق ، أو هوائيات للتليفزيون ، أو مصابيح سيارات منطلقة ، أو أضواء فنارات ، أو قبابا مستديرة وعالية ، أو هوائيات رادارات أو مراصد فلكية ، أو أسراب حشرية ، أو نيرانا مشتعلة ، أو مراوح هوائية لقياس سرعة الريح ، أو انعكاسات ضوئية من زجاج النوافذ ، أو خطوط التيار الكهربي ، أو خزانات مائية فوق البيوت والتلال ، أو شعلات من معامل تكرير البترول ، أو حتى من أعقاب سجائر مشتعلة تندفع بسرعة عبر الهواء . . . الخ . . . الخ .

ثانيا : أشياء غير مادية وهذه توجد في :

أ ـ طبقات الجو العليا : الشفق القطبي .

ب ـ طبقات الجو السفلى : انعكاسات ضوئية للكشافات ، وظواهر البرق ، بما في ذلك الكور النارية وظاهرة الهواء المتأين (البلازما) ، ونار القديس أيلمو والشمس الكاذبة ، والقمر الكاذب ، والانعكاسات الضوئية في الشابورة والضباب وما ينتج عنها من هالات وأشباح (ليست في الواقع أشباحا كالتي وقرت في عقول الناس) ، والسراب الأرضي والهوائي . . . الخ .

ثالثا : ظواهر فلكية يحسبها الناس أطباقا طائرة ، وعندئذ يتبين أنها لكواكب أو نجوم أو أقمار صناعية ، أو الشمس أو القمر أو الشهب أو المذنبات . . . الخ .

رابعا : ظواهر فسيولوجية تنتج من اضطرابات أو تحويرات أو نقص في وظيفة العينين .

خامسا : آثار نفسية تعبر عن نفسها بحالات هلوسة وتهيؤات كاذبة .

سادسا : أخطاء في التصوير الفوتوغرافي (سواء في التحميض أو الطبع أو انعكاسات داخلية في عدسات الكاميرا ذاتها) .

سابعا : تسجيلات خاطئة في شبكات الرادار نتيجة لانكسارات ضوئية شاذة ، أو تشتيت الموجات أو اصطدام الأشعة بأسراب الطيور والحشرات . . . الخ .

ثامنا : قصص أو صور غير واقعية للخداع والتضليل (كما أوضحنا في حالات قليلة) . والواقع أن هذه القائمة لا تمثل إلا قليلا من كثير ، ففي ملفات الهيئات الحكومية أو العلمية ترى العجب العجاب ، ومن أجل هذا لم يرحب بعض أعضاء الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم في تبني بحث هذا الموضوع ، لعلمهم أن الموضوع برمته غير جاد ، خاصة بعد أن دخلت فيه عناصر الإثارة والدجل والخداع والتضليل ، أضف إلى ذلك أن وصف الناس للظاهرة ذاتها يختلف اختلافا واضحا ، بحيث يصعب على العلماء أحيانا أن يتبينوا الغث من السمين ، ولهذا فإن هناك حالات قليلة (حوالي ١٪) لم يصل العلماء فيها إلى قرار ، لكن ذلك لا يعني أن تلك الحالات لأطباق طائرة ، بل يعني أكثر أن هناك خطأ وقع فيه الراوي أو المشاهد ، فلم يستطع أن يتبين الظاهرة على حقيقتها ، أو أن الظاهرة ذاتها جديدة على العلم ، أو أنها تحتوي على شيء من التضليل والخداع . . . الخ .

فرصة وصول كائنات فضائية ضئيلةٌ للغاية !

وطبيعي أن العلم ينكر حكايات الأطباق الطائرة كما ترتسم في عقول الناس وخيالهم ، وهو ـ أي العلم ـ يرى فيها خزعبلات ومزاحا

رخيصا لا يجوز إلا على أصحاب العقول الضعيفة . فالسفر بين الأجرام السماوية يحتاج إلى عقول على درجة فائقة من التطور والذكاء ، وبحيث تستطيع أن تتغلب على المسائل الشائكة جدا التي تجابه علماء الأرض ، وتجعلهم بمنزلة أطفال يلعبون على شاطئ محيط فضائي ليس له من نهاية أو قرار . . .

فوصول سفينة فضائية بمخلوقات ذكية إلى أرضنا يعتبر حدثا نادرا غاية الندرة ، أي أنه قد لا يحدث إلا مرة واحدة كل عشرة آلاف أو مائة ألف عام ، أو قد لا يحدث ، وطبيعي أن هبوط السفينة في جو الأرض أو على سطحها يعتبر مصادفة جد موفقة ، لأن الأرض هي الكوكب الوحيد المعمور بين تسعة كواكب تطوف حول الشمس . وهذا يعني أن تلك المخلوقات الذكية لابد أن تكون آتية من كواكب أخرى تطوف حول بعض نجوم المجرة التي نقطن فيها ، ولكي تقطع تلك المخلوقات المسافات بين نجم ونجم ، فلابد أن تكون قد وصلت إلى تكنولوجيا قد لا تطوف بعقول علماء الأرض ، ولا حتى خيالهم ، لأن المسافات بين النجوم تقدر بالسنوات الضوئية ، لا بالثواني ولا الدقائق ولا الساعات . فالمسافة بيننا وبين القمر لا تزيد على ثانية وثلث ثانية ضوئية ، وبيننا وبين الشمس ثماني دقائق وثلث الدقيقة ، وبيننا وبين المريخ حوالي ثلاث دقائق ضوئية . . . الخ . ونحن ـ حتى الآن ورغم تقدمنا العلمي والتكنولوجي النسبي ـ لم نستطع أن نرسل بشرا إلى المريخ ، فذلك فوق طاقتنا في الوقت الحاضر ، فما بالك بمخلوقات تستطيع أن تنطلق في الكون لتقطع فيه مسافات تقدر بعشرات ومئات وربما آلاف السنوات الضوئية ، فإذا بها بعد هذه الرحلات العويصة للغاية تقع على كوكب مثل كوكبنا به بعض تكنولوجيا متقدمة ، فلا تتصل بالمراصد الفلكية ، ولا تهتم بالعلماء ، ولا تحاول إرسال إشارات موجية (نحن نتوق ونشتاق إليها أشد الاشتياق) لتخبر علماء الأرض بمقدمهم ، وهذا أبسط شيء ننتظره من مخلوقات ذات حضارات متقدمة ، وعقول متطورة .

لكن يبدو أن هذه المخلوقات ـ وعلى حسب ما يقدمها لنا عامة الناس ـ غاية في الغباء ، فهي لم تنطلق في كون الله الفسيح لتستكشف ما فيه من حضارات وأسرار وكواكب معمورة أو مهجورة ، ولكنها جاءت لتأكل مع الناس ، أو تمزح معهم ، أو تحتقرهم أو تضربهم أو تخطفهم ، أو تسرق عجلا أو حصانا لتذبحه وتأكله ، أي أنها تهتم ببطونها لا عقولها ـ هذه المخلوقات المتوحشة الغبية القادمة من الفضاء !!

لكنها قطعا ليست غبية ، إنما الغباء يتركز في بعض أنماط التفكير التي لا تزال تعشش في العقول ، أو في الأساطير التي يحكيها بعض كتاب لإثارة الناس وابتزاز أموالهم ، ثم يمتهنون عقولهم بخزعبلات ما أنزل الله بها من سلطان !

على أنه يبرز أمامنا هنا بضعة أسئلة مهمة : إذا كان علماء الأرض يقومون الآن بتطوير أجهزتهم التي يحاولون بها الاتصال بالحضارات الكونية ، بحيث تستطيع هذه الأجهزة الحساسة أن تلتقط إشارات من تلك المخلوقات التي تبعد عنا آلاف السنوات ، أو ربما ملايين السنوات الضوئية . . . فلماذا يتعبون قلوبهم ، ويضيعون وقتهم ، ويسلبون دولهم موارد مالية ضخمة ، وها هي تلك المخلوقات تطوف بأرضهم ليل نهار؟ . . . لماذا حقا نبحث عن البعيد جدا ، ونترك هؤلاء الذين جاءوا إلينا طواعية في أطباق طائرة كما يزعم الزاعمون ؟ . . . وهل ستستجيب الحضارات الكونية السحيقة البعد لنداءاتنا ، رغم أن مخلوقاتها ـ التي حلت بجوارنا ـ لا تستجيب لهذه النداءات السهلة اللينة ؟ . . . ثم أليس هناك طبق طائر واحد من بين عشرات الألوف التي يبلغ الناس عن رؤيتها ، يقدر على أن يستجيب للإشارات التي نبعث بها في أرجاء الكون ليل نهار ، فيرد عليها في لمح البصر ، فيريح ويستريح ؟

إذا كان أمر هذه المخلوقات التي جاءت إلى أرضنا بمثل هذا الغباء ، إذن فلا خير في إشارات نبعثها في أعماق الفضاء . . . فالقريب جدا لا يرد ، فما بالك بواحد يبعد عنا بلايين البلايين من الأميال ؟

إن المراصد الفلكية الجبارة تنتشر على هذا الكوكب في كل مكان ، وهي تمسح الفضاء من حولها ليل نهار ، كما أن «عيون» هذه المراصد أقوى وأكفأ من العين البشرية مئات الألوف من المرات ، وبعضها قادر على أن يرى ضوء شمعة تبعد عنه في الفضاء ما يقرب من أربعين ألف ميل . . . أليس كل ذلك كفيلا برصد طبق طائر واحد من الآلاف التي يزعم الناس أنها تهبط على الأرض كل عام ، والتي يؤكدون رؤيتها ، والتحدث أحيانا إلى مخلوقاتها ؟

وإذا كانت المخلوقات الكونية تبعث إلينا بإشاراتها ـ كما يدعون ـ وهي تبعد عنا بآلاف السنوات الضوئية ، فهل يعييهم أن يمدوا أطباقهم الطائرة بأجهزة مماثلة لتتخاطب بها ـ عن طريق الإشارات ـ كلما حانت لها فرصة الاقتراب من كوكب معمور ككوكب الأرض ، خاصة أن كوكبنا يموج بأجهزة إرسال واستقبال كونية ، ومن السهل جدا حدوث اتصال بيننا وبينهم عن قرب وليس عن بعد ؟

الحق . . . أنه فيما يدعي هؤلاء الناس تناقض واضح . لكن ذلك قد يرجع إلى جنوح العقل إلى الخيال ، وولوعه بالأساطير ، هذا برغم التقدم العلمي الجبار الذي وضع بين أيدينا إنجازات علمية ضخمة لا نستطيع لها حصرا .

والعاقبة لمن استنارت عقولهم ، واستقامت أنماط تفكيرهم .



الفصل الثامن

مثلث الموت . . . أو مثلث برمودا

يبدو أن بعض العقول البشرية سوف تبقى على طفولتها ، مهما تقدم بها العمر ، أو تطور العصر . . . مثلها في ذلك كمثل المجتمعات البدائية التي لا تزال تؤمن بالسحر والشعوذة والأشباح والأرواح وما شابه ذلك ، لكن مع اختلاف جوهري ، فهذه العقول تحاول أن تزاوج في أفكارها بين العلم والخرافة ، فتبدو الخرافة للرجل العادي ـ أو حتى المتعلم ـ وكأنما هي علم يقوم على أساس ، أو كأنما نواميس هذا الكون الراسخة تسيرها الأساطير والخزعبلات ، وتتحكم فيها قوى يقف العلم ـ على حد زعمهم ـ أمامها عاجزا ، وما هو بعاجز ، لكن العجز هو الذي يسيطر على بعض العقول !

والغريب أن هذه الكتب الأسطورية ـ التي تغلف نفسها بغلالة كاذبة من علم ـ تنتشر الآن في الأسواق ، وتعم المكتبات ، وتجد إقبالا كبيرا من عامة الناس الذين يميلون إلى الولوج في عالم غامض تسيطر عليه الخرافات .

فمنذ حوالي ثلاث سنوات خرج علينا الكاتب الأمريكي تشارلز بيرلتز بكتاب غريب أطلق عليه اسم «مثلث برمودا» ، ولقد لقي هذا الكتاب رواجا عظيما ، إذ وزعت منه في شهور قليلة أكثر من خمسة ملايين نسخة ، وسبب هذا الإقبال المنقطع النظير أن الكتاب يحتوي على حكايات غريبة ، ولو صحت هذه الحكايات ، لوضعت العلماء في حيص بيص ، وعندئذ لن

تسعفهم كل قوانينهم ومعادلاتهم ونظرياتهم وبحوثهم ، في تقديم تعليل مقنع عما يجري من أحداث في هذا المثلث المرعب الذي تتحكم فيه كائنات غير منظورة ، فتشيع في أرجائه الدمار والموت !

وعندما لقي كتاب «مثلث برمودا» هذا النجاح والرواج ، خرج المؤلف نفسه بكتاب آخر في العام الماضي أطلق عليه «من دون أثر» ، وفيه يقدم مزيدا من الظواهر المحيرة التي تحدث في ذلك المثلث القاتل ، إذ إن مئات السفن والبواخر والطائرات ، وآلاف الناس قد اختفوا جميعا دون أن يتركوا أثرا ينم عما حدث ، وكأنما هناك أيد خفية تصعق الطائرات ، وتحطم البوارج ، وتبيد الناس ، أو تخفيهم في جيوب أرضية لا يهتدي إليها إنس ولا «جان» !

ولقد أفرد بعض الصحفيين العرب في صحفهم ومجلاتهم صفحات كثيرة لنشر هذه الظواهر المثيرة ، وهي بالفعل مثيرة ، خاصة إذا كانت تتحدى العلم والعلماء !

اختفت الطائرات دون أثر !

لقد وقعت أغرب وأشهر قصة في ذلك المثلث الرهيب في ديسمبر عام ١٩٤٥ ، وتتلخص هذه الواقعة في إقلاع خمس طائرات من قاذفات القنابل التابعة للبحرية الأمريكية في يوم ٥ ديسمبر من فورت لودردال ، حيث توجد قاعدة للأسطول هناك ، ولقد كانت هذه «الطلعة» المعروفة بالرقم ١٩ واحدة من الطلعات التدريبية التي يقوم بها سلاح الطيران بين حين وآخر ، ولقد تم الطيران في جو صاف ، وكان كل شيء عاديا في المنطقة ، لكن حدث قبل أن تعود الطائرات الخمس إلى قاعدتها بربع ساعة أن استقبل برج مراقبة المطار رسالة مفزعة من الليفتنات تشارلز تيلور قائد السرب ، ولقد بدا الرعب في صوته الذي انطلق بحشرجة غريبة وهو يقول «يبدو أننا ضللنا الطريق . . . إننا لا نستطيع أن نرى أي علامة أرضية . . . إن كل

شيء فيه خطأ . . . كل شيء يبدو غريبا . . . حتى المحيط من تحتنا لا يبدو كما كان . . . إنه يبدو وكأنما نحن . . .» . . . ثم انقطعت الرسالة فجأة ، وبعدها حل سكون مطبق !

وصدرت الأوامر الفورية إلى إحدى طائرات الاستطلاع والإنقاذ بالإقلاع بحثا عن سرب الطائرات حيث يكون ، وانطلقت طائرة تحمل ١٣ رجلا ، ولكن أحدا لم يعد يسمع عنها شيئا ، لقد اختفت فجأة ، كما اختفت من قبل الطائرات الخمس ، ومع اختفائها اختفى أيضا ٢٧ رجلا دون أن يتركوا خلفهم أثرا واحدا ، رغم المجهودات الجبارة التي قام بها سلاحا الطيران والبحرية لمسح المنطقة شبرا شبرا ، ومترا مترا !

والحادثة ـ لا شك ـ حقيقية . . . لكن ماذا حدث بالضبط ؟ . . . وأين ذهبت الطائرات ؟ . . . وما مصير الرجال ؟ . . . وماذا أصابهم حتى صاروا لا يرون شيئا وكأنما كل المعالم الأرضية والبحرية قد تغيرت فجأة حولهم؟ . . . وهل هناك قوى خفية تسيطر على المنطقة ، فتصطاد الرجال ، وتخطف الطائرات ؟ . . . إلى آخر هذه الأسئلة الحائرة التي أطارت صواب الناس ، وقدمت لهم زادا فكريا يتناسب وغموض هذه الحوادث التي وقعت في ذلك المثلث المخيف ، الواقع إلى الشرق من الولايات المتحدة (في المحيط الأطلنطي) وتمتد زواياه بالتقريب بين جزيرة برمودا شمالا ، وبورتوريكو جنوبا (في المحيط) ، وفلوريدا غربا ، ويدخل في مجاله بعض جزر الباهاماس ، أو هو ما يسمى باختصار مثلث برمودا .

والسفن تبتلعها قوى خفية !

ثم يسوق بيرليتز في كتابه المثير كثيرا من الحوادث التي كان مسرحها ذلك المثلث الرهيب . . . فحاملة البترول العملاقة رايفو كومارو اليابانية ، اختفت هي أيضا بحمولتها وبحارتها دون أن تترك أثرا ينم عن مصيرها

الغامض . . . كل ما تركته قبل اختفائها رسالة نجدة لاسلكية تقول «الآن الخطر يشبه الكابوس . . . أسرعوا إلينا» . . . وبعدها صمت كل شيء إلى الأبد .

وفي ديسمبر عام ١٩٦٧ اختفت سفينة الركاب «ويتشكرافت» في ظروف أشد غموضا . فبينما كانت مربوطة في إحدى عوامات الإرشاد ، وبالتحديد العوامة رقم ٧ الموجودة على مسافة ميل واحد من شاطئ ميامي بفلوريدا ، إذ بها أيضا تغرق في يوم هادئ لا عواصف فيه ولا أحوال جوية غير عادية ، والغريب أن السفينة قد بعثت برسالة غامضة تقول «لم أشهد في حياتي مثل ذلك من قبل» !

ويتساءل مؤلف كتابي «مثلث برمودا» ، و «من دون أثر» عن معنى تلك الرسالة التي لم توضح شيئا ، بل زادت أمامنا الأمور غموضا ، وكأنما باعث تلك الرسالة الغريبة واقع تحت تأثير قوى تجعله غير قادر على توضيح ما يجري في المنطقة ، ثم يشير إلى أن العلماء يقفون أمام هذا الحادث الغامض دون أن يعرفوا تعليلا صحيحا لما يحدث .

وقبل ذلك أيضا ، وبالتحديد في عام ١٩٦٣ ، وبينما كانت الطائرتان النفاثتان من طراز «ك س ١٣٥» تحلقان فوق مثلث الموت ، إذ بهما أيضا تختفيان في ظروف غامضة ، وفي هذه المرة أمكن العثور على حطام الطائرتين ، لكن هذا الحطام قد تناثر على مساحة واسعة ، وفي دائرة يبلغ قطرها مئات الأميال . . . إذن ما الذي حدث حتى تصبح بقايا الطائرتين بمنزلة قذائف موجهة تنطلق كالصواريخ في كل اتجاه ، وتتوزع في مساحات يصعب على العقل تصديقها ؟ . . . وبأي قوة جبارة يمكن أن يحدث ذلك؟ . . . وهل هناك أيد خفية تمزق هذه القلاع الطائرة أو تخفيها ثم تذروها كما تذرو الرياح قطعا من الورق إلى مسافات بعيدة ؟

وتذهب هذه الكتب إلى حصر كل الحوادث الغامضة والرهيبة التي تمت في هذا المثلث القاتل ، فتذكر ضمن ما تذكر غرق سفينة نقل جنود

بريطانية «بريتيش يورك» ، وتحطيم طائرة نقل أمريكية تسمى «جلوب ماستر» ، واختفاء «فريبيا» وهي سفينة ألمانية . . . الخ . . . الخ ، ومع ذكر تفاصيل هذه الكوارث لا ينسى هؤلاء الكتاب أن يضعوا أمام أعيننا ظواهر غريبة تحطم العلم ونظرياته وقوانينه ، فمن رسالات استغاثة تحمل الغموض ، إلى قوى خفية تخرس أجهزة الإرسال ، إلى مجالات كونية تجعل مؤشرات البوصلات المغناطيسية تدور على غير هدى ، إلى بحار تتغير معالمها ، فلا تستطيع لها تمييزا ، إلى أجسام غريبة تحلق في سماء هذا المثلث الغامض . . . إلى غير ذلك من أمور غريبة تطيح بكل ما يعرف العلماء من نظم وتناسق ، وكأنما هذا الكون تتحكم فيه قوى أخرى ليس لها من ضابط ولا رابط !

مثلث الرعب بريء مما يدعون

والآن . . . ما هو رأي العلم في هذه الأمور الغريبة؟

الواقع أن ما أثير حول هذا المثلث المرعب فيه مبالغات ومغالطات كثيرة ، ولو أنصفناه لظهر لنا أن العالم كله أكثر رعبا من مثلث الرعب . . . فهناك إحصائيات دقيقة تشير إلى عدد الحوادث التي تتم في قطاعات مختلفة من هذا العالم ، ومن هذه الإحصائيات يتضح أن مثلث برمودا بريء من حوادث الموت والتدمير ، أو القوى الخفية التي تتسلط على مائه وأرضه وهوائه ، وأن ما يحدث فيه ـ رغم شدة الحركة فيه ـ أقل مما يحدث في أماكن كثيرة مماثلة في العالم .

فمؤسسة لويدز للمعلومات بلندن ، وكذلك تقارير إدارة حرس السواحل الأمريكية ـ وهي جهات موثوق بها وبمعلوماتها وإحصائياتها ـ تشير إلى أن ما فقد في مثلث برمودا في عام ١٩٧٥ كان أربع سفن لا غير من مجموع ما فقد حول السواحل الأمريكية جميعها ، ويقدر عددها بإحدى وعشرين سفينة مفقودة . . . أي أن نصيب مثلث برمودا من هذه الحوادث كان أقل من ٢٠٪ .

وفي عام ١٩٧٦ ـ على حسب ما تقول إدارة حرس السواحل الأمريكية ـ فإن المفقود في مثلث برمودا بلغ ست سفن من ٢٨ سفينة مفقودة حول سواحل أمريكا ، وهذا ينفي تلك اللعنة التي ألصقت لصقا بذلك المثلث البريء . . . أضف إلى ذلك أن إدارة حرس السواحل الأمريكية في دهشة من هذه المعلومات المضللة والخادعة التي تنشرها تلك الكتب غير الجادة ، والتي تستقي معلوماتها من خيال وخزعبلات تضر ولا تنفع(*) . . . فعلى حسب إحصائيات ملفات إدارة حرس السواحل فإن مثلث برمودا يعتبر من أكثر المناطق في العالم حركة وازدحاما ، إذ ينطلق على سطح مياهه أكثر من ١٥٠ ألف سفينة من كل الأنواع والأحجام ، وأنها ـ أي الإدارة ـ تتقبل من إشارات الاستغاثة سنويا حوالي عشرة آلاف استغاثة ، ومع ذلك فإن هذا العدد الضئيل للغاية من السفن التي تغرق سنويا في هذه المنطقة (ما بين ٤ ـ ٦ على حسب آخر إحصاء) ، يشير إلى عدم وجود قوى خفية مزعومة تخطف السفن ، وتستولي على المتاع ، وتسبي الناس !

وتشير إحصائيات لويدز إلى أن عدد السفن أو البواخر العملاقة التي تفقد سنويا في العالم يتراوح ما بين سفينتين وثلاث سفن ، ودون أن يكون لمثلث برمودا دخل في ذلك على الإطلاق ، أي أن هذه الحوادث تتم بعيدا عنه في مناطق بحرية أخرى . . . كما تشير الإحصائيات نفسها أيضا إلى أنه لم تسجل حالة سقوط أو تدمير أي طائرة مدنية أو تجارية في السنوات العشر الأخيرة فوق مثلث برمودا ، كما أن هذا المثلث أكثر أمانا من أي مساحة مماثلة فوق أرض الولايات المتحدة ذاتها !

ويظهر عدم دقة هؤلاء المؤلفين ، وتقديم معلومات خاطئة ، أو ذكر عبارات مثيرة مضللة ، أو أقوال ليس لها من أساس . . . يظهر هذا وغيره من التحقيقات الجادة التي تثار عادة بعد نشر هذه المعلومات الغريبة . . . فعلى

(*) الواقع أنها تنفع جيوب مؤلفيها من خلال شغف الناس بهذه الكتب وشدة الإقبال عليها ، مما يدر دخلا عظيما على أصحابها .

سبيل المثال نعود لنذكر تلك العبارة التي وردت في كتاب «مثلث برمودا» عند غرق السفينة اليابانية رايفو كومارو . إذ وردت صيغة الاستغاثة هكذا : «الآن الخطر يشبه الكابوس» . . . وصحتها كما وردت في التسجيلات الخاصة بإدارة حرس السواحل «الآن خطير جدا» ، وعندما توجهت إليها إحدى السفن القريبة ـ التي سمعت نداء الاستغاثة ـ وجدتها تتعرض لعاصفة مروعة أطاحت بها وأغرقتها . . . وهذا يعني أن هناك سببا أو تعليلا ملموسا لغرق السفينة ، ولم تغرق بسبب قوى أسطورية تسيطر على المنطقة .

أما سفينة الركاب ويتشكرافت التي قيل عنها إنها غرقت وهي مربوطة إلى عوامة في يوم هادئ ، فإن سجلات حرس الحدود تكذب هذه المزاعم . فحقيقة الأمر أن عاصفة هوجاء قد هبت وقتذاك واقتلعت السفينة من عوامة الإنقاذ ، وألقت بها في عرض البحر ، ولم تستطع السفينة أن تحدد موقعها من خلال إشارة الاستغاثة التي بعثت بها ، كما أوضحت في هذه الإشارة أن دافع السفينة (الرفاص) قد دمر ، مما جعل السفينة بمنزلة ريشة في مهب الرياح ، كما أنه لم ترد في التسجيلات أي عبارة تقول «لم أشهد في حياتي مثل ذلك من قبل» . . . بل الذي حدث أن المؤلف قد اخترعها ، ليثير الشكوك من حولها ، أو ليدفع القارئ إلى تساؤل غامض : «ما الذي كان هناك بحيث لم يشهد أحد مثله في حياته» ؟! . . . وطبيعي أن المؤلف قد علل غرق السفينة بخزعبلات تسيطر على عقله ، في حين أن الذين عاينوا غرقها ، لم يجدوا فيه شيئا غير عادي ولا مألوف ، بل إن الغرق تم تحت ظروف جوية معروفة !

ثم يذهب التضليل إلى غايته عندما ينسب إلى مثلث برمودا اتهامات هو بريء منها ومما يدعي المؤلفون ، فغرق السفينة البريطانية بريتش يورك ، والألمانية فريبيا اللتين ذكرناهما من قبل ، قد نسب غرقهما ظلما إلى ذلك المثلث ، في حين أن أولاهما قد غرقت قريبا من نيوفوندلاند المقابلة لسواحل أيرلندا ، والثانية غرقت في المحيط الهادي البعيد جدا عن المحيط الأطلنطي ، حيث يوجد مثلث برمودا . لكن خيال المؤلف أو غيره

من مؤلفين ناقلين أو مقلدين قد نقلوا هذه الأحداث ـ بقدرة قادر ـ وأرجعوها إلى هذا المثلث المسكين !

وعشرات المغالطات والافتراءات التي تمهد لسرد طوفان من الخزعبلات حول القوى الأسطورية التي تتسلط على البحار في هذه المنطقة !

توضيح لادعاءات باطلة

لكن حوادث الطائرات التي تمت فوق ذلك المثلث المفترى عليه كانت أكثر إثارة وأعظم إلغازا ـ على حد تصور من كتبوا عنها ، وألصقوا بها ما ليس فيها . . . فحادثة ظهور قوى خفية لا يستطيع العلم تفسيرها ، وتحطيمها لست طائرات ، ثم اختفاء ٢٧ رجلا دون أن يتركوا أثرا ولو طفيفا ، هذه الظاهرة الغامضة لم تكن غامضة فقط إلا على عقل من صورها وبالغ فيها .

والذين حللوا تسلسل هذه الحوادث المروعة قد أثبتوا أن كل ما ورد على لسان بيرليتز أو في كتابيه إنما هو خطأ وافتراء :

* فهذه الرسالة الغامضة والمثيرة التي أرجعها مؤلف الكتاب إلى قائد السرب المنكوب الليفتنات تيلور ، لم ترد على لسانه على الإطلاق ، ولم تتلقها أجهزة الاستقبال في القاعدة الجوية . وحتى بالرجوع إلى المصدر الأساسي الذي نقل عنه بيرليتز هذه الرواية ـ وهو الكوماندور ويرشنج ـ فقد نفى نفيا قاطعا أنه سمع مثل هذه الاستغاثة ، ولا توجد أي تسجيلات لشيء مثل هذا ، ولكن كل ما جاء في كتاب «مثلث برمودا» إنما هو منقول كلمة بكلمة من مقالة منشورة لفينسنت جاديس في مجلة قصصية شهرية (مجلة آرجوزي) ، وأن جاديس بدوره قد نقل كلام قصته من صحفي لم يستند فيها إلى أي مصدر موثوق به . . . إذن فرسالة الاستغاثة غير صحيحة ، كما أنها نبعت من الخيال ، وما بني عليها ، لابد أن يكون خيالا في خيال .

* وجاء أيضا في قصة الطائرات التي اختفت دون أن تترك أثرا أن اختفاءها كان في الساعة ٤٫٢٥ ، وهذا يعني أن الاختفاء كان في وضح النهار ، وهذا ليس صحيحا ، بل ضلت الطائرات طريقها في الظلام ، إذ دلت التقارير على أنها كانت لا تزال على اتصال بالقاعدة حتى السابعة مساء ، وفرق كبير بين طيران في النور وطيران في الظلام . . . أضف إلى ذلك أن بيرليتز قد أكد أن الطقس وقتها كان صافيا ، وهو حقا لم يكن كذلك ، إذ إن سجلات الأرصاد الجوية قد أوضحت أن الطقس كان عاصفا ، والبحر مضطربا ، كما أن الطيارين - باستثناء الليفتنانت تايلور - كانوا حديثي عهد بالطيران ، ولا شك في أن سوء الأحوال الجوية والظلام قد أضافا مزيدا من الأعباء على مهمة القائد ، وعلى الطيارين الشبان الذين كان معظمهم حديثي عهد بالطيران فوق المنطقة .

* ولقد ذهب التحليل الجاد لهذا الحدث إلى أبعد من ذلك ، وأثبت أن قائد هذا التشكيل قد ضل طريقه بسبب سوء الأحوال الجوية ، فاعتقد أنه كان يطير فوق عدة جزر قريبة من ساحل فلوريدا الجنوبي (وتسمى فلوريدا كيز أو مفاتيح فلوريدا) ، في حين أنه كان يطير - في الواقع - فوق عدة جزر تشبه جزر فلوريدا كيز ، وهذه الجزر تقع بعيدا إلى الشرق قرب جزر الباهاماس ، وهذا يعني أنه في أثناء عودته إلى القاعدة غربا ، كان يتجه شرقا فوق المحيط ، وكان من جراء هذا الخطأ أن نفد وقود الطائرات ، فلم تجد مناصا من الهبوط إلا في البحر المضطرب ، حيث غاصت فيه إلى الأبد ، ودون أن تترك أثرا ، خاصة أن البحث بعد ساعات في الظلام ، وفي الجو المضطرب ما كان ليجدي شيئا !

* وبتحليل سبب اختفاء طائرة البحث والاستطلاع «مارينر» التي أقلعت من القاعدة علها تعثر على دليل - هذه الطائرة يطلقون عليها هناك اسم «خزان الوقود الطائر» نسبة إلى الكميات الضخمة من الوقود التي تحملها والتي تمكنها من التحليق لفترات طويلة . . . وطبيعي أن أي شرارة - حتى ولو كانت ناشئة من الكهرباء الجوية الكامنة في العاصفة - قد تفجر

الطائرة بما تحمل ، وبالفعل انفجرت ، وقد شاهدت انفجارها في الجو سفينة كانت تعبر المنطقة ، ولقد أبلغت عن ذلك تماما في نفس الوقت الذي اختفت فيه طائرة الإنقاذ من على شاشات الرادار . . . ولقد وصف بيرليتز أن اختفاء هذه الطائرة كان يحوطه غموض قاتل ، ربما لأنه اعتقد أن الطائرة قد تركت القاعدة في الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة . . . أي كأنما هي انفجرت قبل أن تترك القاعدة بأكثر من ثلاث ساعات (لأن انفجارها قد تم بعد الساعة السابعة والنصف) .

* وفي كتابه الجديد « من دون أثر» يحبك بيرليتز الأسطورة ويعطيها طعما جديدا ، إذ إنه يذكر في طبعته الجديدة عبارة غريبة ترد على لسان الليفتنانت تيلور وتقول «لا تتبعني . . . كأنما هم قادمون من الفضاء» ! . . . أي أنه بهذا يريد أن يوهم الناس بأن مثلث برمودا هو المنطقة المختارة لنشاط الأطباق الطائرة التي أصبحت على كل لسان في الولايات المتحدة ، وبهذا يجد استجابة لما يكتب ، وتصديقا فيما يتخيل ، أو كأنما هو يريد أن يقول - بطريق غير مباشر - إن سبب الكوارث في هذا المثلث إنما تحدث بفعل هذه المخلوقات الشريرة التي جاءت تعلن الحرب والانتقام من أهل الأرض ، وخاصة من الأمريكان ، ونحن لا ندري - بدورنا - لماذا جاءت هذه المخلوقات الكونية العاقلة الفائقة الذكاء والتليدة الحضارة ، لكي تقتل وتدمر وتسرق ؟!

هل هناك قوى خفية تعطل الأقمار الصناعية؟

ولكي يؤكد بيرليتز للناس أمانته فيما يزعم ، تراه يذكر أن هذه العبارة مسجلة في سجلات القاعدة الجوية ، وأن هناك من يؤكدها . . . لكن الحقيقة ليست كذلك تماما ، فلقد فعل بيرليتز في عبارته ما قد يفعله بعض المضللين عندما يذكرون جزءا من آية دون أن يكملوا النص ، فكأنما بيرليتز يقول «لا تقربوا الصلاة» . . . وهذا ما فعله تماما في الشفرة

التي تلقتها القاعدة ، إذ أخذ منها جزءا ، وترك جزءا ، فجاءت الرسالة مثيرة . . . لكن حقيقة الأمر أن قائد التشكيل قال بالحرف الواحد (كما هو مسجل في القاعدة) : «إنني أعرف أين أنا الآن . . . أنا على ارتفاع ٢٣٠٠ قدما . . . لا تتبعني» . . . وهو يقصد بها قائد طائرة كانت في طريقها للبحث عنه ، وهذه العبارة تختلف في مغزاها عن العبارة التي زيفها بيرليتز وأوحى بها للقارئ أننا أمام ظاهرة محيرة ، ولا يمكن تعليلها إلا بنسبتها لقادمين من الفضاء !

ثم ينطلق بيرليتز (أو غيره من مؤلفين يسيرون على شاكلته) في كتابه «من دون أثر» إلى التعرض لحكايات أخرى أغرب وأعجب ، فيبدأ صفحات الكتاب بفرقعة شديدة ، فيذكر أن الهيئة القومية لعلوم البحار والطقس تجد صعوبات وظواهر لا يستطيع العلم تعليلها ، ذلك أن الأقمار الصناعية تتوقف عن إعطاء أي معلومات جوية للمحطات الأرضية بمجرد مرورها فوق مثلث برمودا ، وأن البروفيسور واين ميتشيجيان قد درس هذه الظاهرة المحيرة ، وقال عنها : «إننا أمام قوة لا نعرف عنها شيئا» !

وطبيعي أن الأستاذ ميتشيجيان قد أحيط علما بما جاء في كتاب «من دون أثر» ، فنفى الرجل بشدة أن تدور في رأسه مثل هذه الخزعبلات ، ولقد أكد «أن كل شيء قلته عن هذا الموضوع قد جاء مشوها وملتويا ، وأنا ـ بصراحة ـ أشعر بالغثيان من مثل هذا الافتراء ، فلقد أسيئت كلماتي وأضيرت تعليلاتي» !

والواقع أن الهيئة القومية المذكورة تشعر وكأنما هذه الافتراءات بمنزلة وباء يتسلل خلسة إلى ميدان العلوم ، وهو الميدان الذي ينكر ما يجري في أدمغة هؤلاء الناس من خزعبلات وتصورات خرافية ، فحقيقة الأمر أن هناك قمرا صناعيا كان يدور على ارتفاع ٨٠٠ ميل من سطح الأرض ، وهو ـ أثناء دورانه ـ ينقل معلومات بالأشعة العادية والأشعة تحت الحمراء عن غطاء السحب الذي يحيط بكوكب الأرض ، ولكي تتمكن الأجهزة

الحساسة من التقاط وإرسال المعلومات المسجلة على أشرطته ، كان عليها أن تدير الأشرطة التي انتهى تسجيلها إلى الخلف ، تماما كما نفعل نحن في أشرطة تسجيلنا ، وطبيعي أنه لا يمكن أن تسمع شيئا أثناء لف الشريط معكوسا لتبدأ من البداية ، وهذا ما حدث في القمر الصناعي المكلف بتسجيل حالات الطقس ، إذ كان يحدث أحيانا أن ينتهي تسجيل الشريط ، فيتوقف ، لتدور الآلة عكسيا ، حتى تصل إلى بدايته ، ثم تبدأ في صب ما سجلت في محطتين أرضيتين تقع واحدة منهما في ألاسكا ، والثانية في جزيرة والوب بفرجينيا . وعندما يمر القمر الصناعي فوق مثلث برمودا ، ويبدأ في لف الشريط إلى الخلف ، يتوقف الإرسال إلى الأرض تلقائيا ، ثم يعاود هذا الإرسال بمجرد أن يصل إلى نقطة البداية . . . أي أن هذا التوقف ليس بفعل أرواح أو أشباح أو عفاريت أو مردة أو أطباق طائرة أو أي قوى خفية .

ومرة أخرى يعود صاحب خرافات « من دون أثر» ليزج باسم الليفتنانت ويزمان ، في واحدة من تصوراته فيذكر ـ ضمن ما يذكر ـ أن العلم يقف عاجزا عن تعليل ظاهرة جديدة لم تلتقطها هذه المرة عين بشر (لأن العين قد تخدعنا فيما تلتقط) ، بل التقطتها شاشات الرادار التي تستخدمها قوات حرس السواحل وهي تتجول على واحدة من السفن الحربية المسماة «هولي هوك» . . . إذ ظهرت على الشاشة جزيرة كبيرة لم تكن موجودة على الخرائط من قبل ، وذهل المشاهدون مما رأوا ، وعندما توجهوا إليها لم يجدوها حيث كانت . . . فكيف يفسر العلم ذلك وهو يستخدم إحدى «العيون» العلمية التي لا تخدع ولا تكذب ؟!

ويذهب بيرليتز إلى استعراض عضلاته ليقدم تعليلا يدعي أن العلم قد عجز عن تقديمه ، وكأنه هو وحيد علماء زمانه ، فيرجع ما ظهر على شاشة الرادار ثم اختفى إلى جزيرة كانت موجودة في ذلك المكان ، قبل أن تذوب ثلوج العصر الجليدي الذي عم الأرض منذ ١٢ ألف عام ، وكأنما بيرليتز يريد أن يوحي للناس أن الرادار يستطيع أن يلتقط بعض

أحداث الماضي السحيق ، وهذا شيء لم يعرفه العلم من قبل ولا من بعد ، إنما هي أضغاث أحلام تطوف ببعض العقول التي لا تعرف عن نواميس الكون شيئا مذكورا .

لكن علينا أن نعود لنؤكد أن شاشات الرادارات قد تلتقط صورا لأشياء غير موجودة في أماكنها ، وهو ما يطلق عليه اسم «قراءات الرادار الزائفة» أو «الخادعة» ، وهذا ما سبق أن قدمنا جزءا منه ونحن نتحدث عن الأطباق الطائرة (مثل جزيرة مالطة المزعومة) إذ أحيانا ما تؤدي ظروف جوية ، أو اضطرابات وخلل في وظيفة الرادار ذاته ، إلى إظهار صور غريبة ، لكن الفنيين أو المتخصصين يعرفون حقيقة ما يجري ، فإما أن يصلحوا خطأ أجهزتهم ، أو لا يلقون أهمية لما يرون ، وكأنما هم لا يرون إلا سرابا خداعا ، وطبيعي أن بيرليتز وأمثاله لا يدركون عن ذلك شيئا ، «ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه» !

فرية توقف الزمن وتخفي السفن !

ومن الحكايات التي يقدمها بيرليتز في كتابه حكاية تقول : إن إحدى الطائرات التابعة لشركة طيران «إيسترن إيرلاينز» (طيران الشرق) ، قد اختفت كلية من على شاشات الرادار ، ولمدة عشر دقائق كاملة ، في أثناء قدومها من فوق مثلث برمودا لتهبط في ميامي ، وعندئذ توجست إدارة المطار شرا ، فكان أن أعلنت حالة الطوارئ ، وانطلقت سيارات المطافئ والإسعاف لتنتشر قرب ممر الهبوط ، وهبطت الطائرة بسلام ، وتعجب الذين هبطوا والذين انتظروا ، ولم يعرف هؤلاء ولا هؤلاء السر الكامن وراء كل ما حدث ، لكن عندما طلب أحدهم من طاقم الطائرة ومن ركابها أن ينظروا في ساعاتهم ، دهشوا دهشة بالغة حينما وجدوا كل الساعات التي في الطائرة قد توقفت لمدة عشر دقائق كاملة . . . فما الذي أوقف الزمن ؟ . . . وهل يمكن للزمن أن يتوقف حقا ؟!

طبيعي أن بيرليتز لم يحدد أي شيء يمكن الاستدلال منه على صحة هذه المزاعم ، فلا هو حدد لهذه الرحلة تاريخا ، ولا رقم رحلة الطيران ، ولا موعدها ، ومع ذلك فقد أجريت التحريات اللازمة ، وسئلت شركة طيران «إيسترن إيرلاينز» عن حقيقة هذا الذي ورد في كتاب «من دون أثر» ، فقال المسؤولون : «إن ذلك لو كان قد حدث ، لكنا قد تأكدنا ، من حدوثه ، كتأكدنا من حدوث الموت» ! . . . وهكذا فقد ظهر ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أن توقف الزمن كان محض تصورات رديئة !

لكن تجربة «فيلادلفيا» كانت مثيرة للغاية ، إذ تلعب المجالات المغناطيسية فيها دورا غريبا ، وبحيث تجعل العلم يدير لها خده الأيسر بعد أن تلقى صفعة قوية من بيرليتز على خده الأيمن . . . فما هي تجربة فيلادلفيا تلك ؟

يقول بيرليتز إنه في عام ١٩٤٣ قامت إدارة بحوث البحرية الأمريكية بإجراء تجربة على واحدة من مدمراتها ، واستخدمت في ذلك أجهزة لمعادلة المغناطيسية ، وعندئذ اختفت المدمرة تماما من فيلادلفيا ، وظلت تبحر دون أن يراها أحد ، حتى وصلت إلى ميناء نورفولك بولاية فيرجينيا . . . كما اختفى أيضا كثير من بحارتها ، وظل بعضهم مختفيا حتى في أثناء سيره في شوارع المدينة !

هذا هو ملخص تجربة فيلادلفيا ، لكن بيرليتز لا يكتفي بذلك ، بل يذهب إلى حد تعليل اختفاء الطائرات والسفن والناس في مثلث برمودا ، بمجالات مغناطيسية شديدة لا يقدر عليها إلا مخلوقات عاقلة ومتطورة ومختفية في أطباق طائرة تحلق فوق المنطقة ، أو ربما كانت هذه المجالات الشديدة ـ على حد قوله ـ نابعة من قاع المحيط في ذلك المثلث العجيب !

وطبيعي أن العلم لا ينفي ذلك ، فمن الممكن معادلة المغناطيسية بربط المدمرة أو لفها بسلوك يسري فيها تيار كهربي محدد ، فيخلق مجالا

مغناطيسيا ، ليعادل المجال المغناطيسي الأرضي ، وهذه التجربة معروفة وقديمة ويجريها تلاميذ المدارس على الإبر المغناطيسية ، لكن ذلك لا يعني أن الإبر تختفي من أمام عيونهم ، ولا كذلك يمكن إخفاء إنسان عندما يلف نفسه بسلوك ليعادل المغناطيسية ، ولا كذلك إخفاء حجر أو مدمرة أو أي شيء أخر على الإطلاق ، ولو كان اختفاء الأشياء بمثل هذه السهولة والليونة التي يجرى بها فكر بيرليتز أو غيره ، لما تأخر هذا الكشف الخطير كل ذلك الزمان الطويل ، ولأصبح سلاحا جبارا بين أيدي الناس أجمعين . . . أضف إلى ذلك أن البحرية الأمريكية ذاتها ، وكذلك إدارة بحوثها تنفي نفيا قاطعا أنها قامت بمثل هذه التجربة التي تمخضت عن كل تلك النتائج الباهرة ، دون أن تظهر ثمرتها في التطبيق الفعلي كل هذه السنين .

خرافة اسمها قارة أطلانطس الغارقة !

ومن المؤسف أن هذه الخزعبلات تنتشر دائما في كتب كثيرة وبعناوين مختلفة ، ولكتاب مهرة ، وكل مؤلف ينقل من غيره ، فيحذف ويضيف ويعلل ويشرح ويضلل ، وبحيث يظهر كل هذا أمام الرجل العادي أو حتى المثقف ثقافة غير علمية ، وكأنما ما يختلقه هؤلاء الكتاب من قصص وأساطير وحكايات خيالية كأنما هي حقائق علمية ، لأنها ـ في معظم الأحيان ـ تتمسح في لغة العلم ، فهي تتحدث عن الواقعة ، وتشير إلى أن عالما من العلماء قد حققها ، وأنه وجدها صحيحة ، لكنه لا يستطيع أن يقدم لها تفسيرا ، ثم ترى الكاتب ـ الذي لا يعرف عن أساسيات العلم إلا بعض قشوره ـ يعطيك تعليلا مثيرا وخياليا ودون أن ينسى مزجه ببعض تعبيرات علمية . وقد يمس هذا التعليل الأسطوري هوى في عقول الناس الذين يميلون إلى كل ما هو غيبي ومحجوب عن الإدراك والحواس ، ولا شك في أن لذلك جاذبية ملحوظة عند العامة والخاصة ، إذ يظل الأمر مثيرا ما دام غامضا ، فإذا عرفنا غموضه ، انتهت إثارته ، وتقلصت جاذبيته !

ومثل واحد أو مثلان قد يوضحان كيف يجذب هؤلاء الكتاب عقول الناس إلى مصيدة الخزعبلات المثيرة . . . ولنعد إلى كتاب بيرليتز الأخير ، لأنه أبرع الكتب على الإطلاق في التضليل شبه العلمي ، فتراه يذكر ظاهرة غريبة يطلق عليها اسم «ضباب الساحل» الذي رصدته سفينة حراسة السواحل الأمريكية «ياماكراو» فيقول عنه : «ومع أن هذا الدخان تحت المائي يمكن اعتباره انبثاقا طبيعيا تماما من مادة كامنة في جوف الأرض الملتهب . . . لكن ذلك لا يمنع من التنبيه إلى تلك النظرية التي تشير إلى ينابيع الطاقة التي امتلكتها حضارات ما قبل التاريخ . . . إذ إن هذه الحضارات لا تزال تنشط على فترات منتظمة أو متقطعة ، وبهذا تؤثر في حركة وسائل النقل الجوي والبحري الحديثة» !

أي أن هذا الضباب الساحلي المعروف نشأته وأصله قد أرجعه بيرليتز إلى مخلوقات غارقة تحت الماء ، وأنها لا تزال تمارس نشاطها ، وما ذلك «الدخان» المائي إلا دليلنا على وجودها ، وهو يشير بذلك إلى قارة «أطلانطس» التي تحكي الأساطير عن غرقها بحضاراتها المتقدمة الشيء الكثير ، رغم أن هذه القارة لم يرد ذكرها في أي مرجع علمي حديث أو قديم ، إنما يتداول ذكرها فقط بفضل هؤلاء الكتاب الخياليين .

وطبيعي أن العقل البشري سوف ينجذب إلى التعليل الخرافي ، فيفكر تلقائيا في طبيعته وكنه تلك المخلوقات ذات الحضارات التليدة القابعة في الأعماق ، لكنه قد يستنكر شرحا علميا يصدع رأسه ، أو بحثا أصيلا يصد نفسه !

ثم إليك بهذا التعليل الذي قدمه بيرليتز عن تلك السفن الكثيرة المهجورة على سواحل فلوريدا ، والتي قد يرجع السبب الحقيقي في هجرانها إلى عمليات الاختطاف وسلب محتوياتها ثم تركها (وهي حوادث تتكرر هناك كثيرا) ، أو ربما إلى تآمر واحتيال على شركات التأمين ، أو ربما

إلى عمليات تمرد ضد السلطة أو أصحاب تلك السفن ، أو ربما إلى جنوحها تحت وطأة العواصف ، أو العطل . . . الخ . . . الخ . وطبيعي أن هذه الأسباب مقنعة ، ولكنها ـ مع ذلك ـ لا تجذب العقل ولا تثيره ، إنما الذي يجذب ويثير أن بيرليتز يضرب على الوتر الحساس ، فيذكر أن مثلث برمودا قد تعتريه بين الحين والحين موجات قوى غير معروفة المصدر ، وأن هذه الموجات تترك أثرها في نفوس الناس وعقولهم ، وأحيانا ما تدفعهم عنوة إلى تعريض أنفسهم للمخاطر ، كأن يقفزوا منها هاربين بجلدهم . . . أي أن بيرليتز يريد أن يرجع وجود هذه السفن المهجورة إلى التغير الذي طرأ على نفوس من كانوا فيها أثناء مرورهم في مثلث برمودا ، فتسلطت عليهم قوى غير منظورة ، أجبرتهم على تركها هناك ، لتصبح مكانا تمرح فيه هذه القوى الخفية وتعربد وتلهو .

ولا شك في أن هذا التعليل الذي ليس له من أساس قد يصطاد العقل في متاهات من أشباح وأرواح وعفاريت سيطرت على العقل البشري من قديم الزمن ، أو إلى مخلوقات قادمة من الفضاء في أطباق طائرة ، فسيطرت أيضا على الفكر في زمننا هذا ، وكلها أمور يقف أمامها العلم ـ كما يدعون ويتهمون ـ عاجزا !

لكن قافلة العلم تسير

ورغم كل ما يثار حول العلم والعلماء من شكوك ، فإن العلماء يودون من صميم قلوبهم أن يوضحوا للناس ـ وعلى أساس من علم ودراسة ـ أن ما يجيء من ادعاءات خاطئة ـ في معظم الكتب التي يؤلفها كتاب غير متخصصين ، أو ينقلها عنهم قراء غير مؤهلين ـ يمكن بحثها بهدوء وتأن وعقل مفتوح ، لإظهار الخدعة من الحقيقة . لكن الاتهام الذي يلقاه العلماء أنهم دائما لا يفتحون عقولهم (هكذا !) إلا على كل ما هو طبيعي ومنطقي وخاضع لحدود العقل ، ومع ذلك ، فإن العكس هو الذي يحدث دائما ،

على حد قول جراهام ماسي الذي كتب تعليقا مطولا عن هذه الخرافات في إحدى المجلات العلمية البريطانية ، وفيها يقول إن مؤلفي هذه الكتب الخرافية هم الذين يغلقون عقولهم عن مجابهة أي نقد أو اعتراض علمي ، بحجة أن ما جاء في كتبهم الرخيصة قد أمكن تحقيقه علميا ، وثبت أنه الصحيح ، ويبقى العيب في العلماء الذين يغلقون عقولهم عن هذه الحقائق لأنهم يجهلونها (هكذا !!) .

ويسوق جراهام ماسي أمثلة على التضليل العلمي الذي ورد في بعض هذه الكتب المحشوة بعلوم كاذبة فيقول : إن ما أشار إليه بيرليتز في كتابه «من دون أثر» من أن مؤتمرا علميا قد عقد في «جرين بانك» لبحث الحياة في الكواكب لم يتوصل ولم يذكر ـ كما جاء خطأ في كتابه ـ أن هناك ما يقرب من ٤٠ أو ٥٠ مليونا من العوالم التي تحاول الاتصال بنا ، أو تتنصت علينا . . . أو أنه لم يثبت أن أحدا استطاع أن يبرهن على أن قارة أطلانطس . . . الغارقة قد أمكن العثور عليها في «بيميني» ، أو أن البحرية الأمريكية تتعاون مع البحرية السوفييتية في بحث الظواهر الغريبة التي تتجلى في مثلث برمودا ، أو أن أحدا لم يرصد طبقا طائرا حط في «هدسون سيتي بارك» بنيوجيرسي ، وأن مخلوقات هذا الطبق لها علاقة ببعض ما يحدث في مثل برمودا . . . أو . . . أو . . . إلى آخر هذه المعلومات غير الصادقة والمضللة التي طافت بخيال الكاتب ، ولم يثبت أنها صحيحة على الإطلاق .

ثم يتساءل ماسي بتهكم قائلا : «إذا كان اختفاء الناس من دون أثر» يرجع عادة إلى هذه القوى الغامضة التي تتسلط على كوكب الأرض ليل نهار ، فلا شك في أن تشارلز بيرليتز مؤلف كتاب «من دون أثر» سوف يتحفنا بفيض لا ينقطع من الكتب التي تتحدث عن اختفاء أكثر من ١٢٠٠ شخص في بريطانيا وحدها وفي عام واحد فقط ـ على حسب ما جاء في سجلات سكوتلانديارد» (والمعنى هنا واضح ، إذ يخشى ماسي أن يأتي اليوم الذي يرجع فيه هؤلاء الكتاب

اختفاء الناس في الدول المختلفة إلى عمليات خطف تتم على أيدي مخلوقات جاءت من الفضاء)(*) .

والسؤال الآن : هل جاءت هذه المخلوقات الفائقة الذكاء والعلم والحضارة ، من مسافات يضن على العقل البشري تصورها ، لتكون رسالتها خطف الناس ، وإغراق السفن ، وتحطيم الطائرات ، وسرقة البهائم ، وإقامة الولائم ، ونشر الرعب في أرجاء هذا الكوكب ، دون أن يكلفوا أنفسهم ولو مرة واحدة بالاتصال بالعلماء في مراصدهم أو معاهدهم أو مراكز بحوثهم ، ليتبادلوا معهم الرأي والعلم في حقيقة هذه الأكوان التي تمتد حولنا وحولهم بغير حدود ؟

والجواب يأتي من هذه الكتب الرخيصة التي تصف هذه المخلوقات بأنها جاهلة وهمجية ومتوحشة ، ولا يمكن ـ بطبيعة الحال ـ أن يسيطر الجاهل أو الهمجي أو المتوحش على هذا الكون العظيم أو يغزوه ، إذ لابد أن يكون متسلحا بعلم وتكنولوجيا أعظم وأرقى وأدق من علم وتكنولوجيا أهل الأرض أجمعين . وهذا ، بلا شك ، تناقض بغيض يقع فيه مؤلفو هذه الكتب الدارجة .

* * *

(*) بعد أن انتهينا من هذا الكتاب ، ظهرت حادثة جديدة لسقوط طائرة بقائدها في أستراليا ، ويقال إنه شاهد جسما طائرا يتبع طائرته ، وأغلب الظن طبعا أن ما رآه وأفزعه إنما هو ظاهرة من الظواهر الجوية الكثيرة التي تقابل الطيارين ، ويرجعها البعض إلى الأطباق الطائرة المزعومة . وربما أدى فزع الطيار إلى حالة هلوسة فقد معها التحكم في طائرته ، فسقطت في البحر (كما جاء في التقارير الرسمية) ، أو في مكان مجهول على الأرض ، لا أن يكون ضحية لهذه المخلوقات المزعومة . . . ولسوف تتكرر هذه المزاعم الباطلة ، كما تكررت قبل ذلك ، وأشرنا إلى بعضها .

الفصل التاسع

هل للأهرام «معجزات» تعطل الشرائع الطبيعية؟!

«أعلن أحد العلماء الفرنسيين أنه عندما زار هرم خوفو، ودخل السرداب وتسلق السلالم . . . وذهب إلى غرفة الملك . . . وجد شيئا غريبا . . . وجد الجو مليئا بالرطوبة . . . ووجد في غرفة الدفن جثثا لقطة وكلبين . . . وعلى الرغم من وجود الرطوبة، فإن العفن لم ينبعث من أجسام هذه الحيوانات الميتة . . . شيء غريب ! حيوانات ماتت في جو به رطوبة ومع ذلك لا تتعفن ؟!

«كأن هذه الحيوانات قد جفت سوائلها وتجمدت تماما . . . ثم حنطت . . . ولذلك لا عفونة . . . ومعنى ذلك أن الشكل الهرمي لابد أن يكون هو السبب . . . ولابد أن الفراعنة ـ وكذلك السحرة ـ قد استعملوا الشكل الهرمي والفراغ الهرمي أيضا لحفظ جثث الموتى . . . أو تحنيطها بسرعة» !

«هذا العالم الفرنسي اسمه بوفيس، وقد صدرت له دراسات عن شكل هرم خوفو . . . أو الشكل الهرمي وعلاقته بحفظ اللحوم . . . وله تجارب على البيض والمخ واللبن . . . وقد لاحظ من كل هذه التجارب أن هذه المواد السريعة الفساد إذا وضعت تحت شكل هرمي بضع ساعات أو أيام فإنه يستحيل أن تتعفن !» .

هذه الفقرات نقلناها بنصها من أحد مؤلفات أنيس منصور - وهي في مجملها تبدو أمام الرجل العادي أو المتعلم أو حتى المثقف كأنما هي ظاهرة علمية تستحق التأمل ، وتستحوذ على الدهشة ، وحتى أنيس منصور نفسه يتعجب ويقول شيء غريب !

لكن أنيس منصور لا شك معذور ، فهو لم يأت بهذا الكلام من عنده ، بل جاء به من ذلك النوع من الكتب التي ألفها مؤلفون غارقون في الخرافات حتى قمة رؤوسهم . . . لكن قبل أن نناقش الجانب العلمي من هذه المزاعم ، دعنا نتعرض أولا لبضع نقاط لا نظن أن مغزاها قد خفي على لبيب .

* ما الذي دفع بالقطة والكلبين لتسلق سلالم الهرم والذهاب إلى غرفة الملك ، لتموت كلها هناك ، خاصة أن على باب الهرم حرسا لا نظن أنه يسمح للكلاب والقطط بالدخول هكذا دفعة واحدة ؟

* ومع ذلك دعنا نفترض أن الحرس قد يسر دخول الحيوان مع الإنسان إلى الهرم ، وأن تلك الحيوانات قد ماتت هناك بالجملة ، ولنتساءل مرة أخرى : ألا يوجد من رآها غير السيد بوفيس خاصة أن الهرم يزوره يوميا المئات (أو حتى لنقل العشرات) ، وأن هؤلاء الزوار قد يصحبهم في بعض الأحيان بعض المرشدين السياحيين ؟ . . . ثم كيف رأوها ملقاة هناك ميتة دون أن يكلفوا أنفسهم بحملها بعيدا عن حجرة الملك النظيفة تماما من القمامة والجثث ، وكما رأيناها نحن مرات عديدة ؟

* لماذا قام الفراعنة إذن بتحنيط الجثث وحفظها بالتجفيف والكيماويات ، قبل أن توضع في قبورها أو أهرامها ما دام الشكل الهرمي قادرا على أن يحفظ الجثث من التعفن ، خاصة لو عرفنا أنه لا فرق هنا بين جثث الملوك والصعاليك والقطط والكلاب بعد الموت ؟ . . . بمعنى أنه يسري عليها بالضرورة ما يسري على أي كائن

ميت من تحلل . . . والتحلل سنة من سنين الطبيعة التي لا مفر منها ولا مهرب !

* ثم إذا كانت هذه النظرية صحيحة ، فلماذا لا نطبقها في حياتنا ؟ . . . بمعنى «أن هذه المواد سريعة الفساد إذا وضعت تحت شكل هرمي بضع ساعات أو أيام فإنه يستحيل أن تتعفن» ـ كما ورد ، وهذا يعني أيضا أن هذا الكشف العظيم للسيد بوفيس سوف يفيد البشرية فائدة عظيمة ، فما عليهم إلا أن يشيدوا في دورهم أشكالا هرمية صغيرة ورخيصة ، ويحفظون فيها الطبيخ واللبن واللحم والشوربة وسائر المواد سريعة الفساد ، فهذا أوفر من الثلاجات التي تستهلك طاقة كهربية نحن أحوج إليها في شؤون أخرى . . . ثم إن أغلب الظن أن هذا الكشف الكبير سوف يوفر على مؤسسات اللحوم والدواجن المحفوظة بالتبريد الشيء الكثير . . . فليكن هناك شكل هرمي كبير بدلا من هذه الثلاجات الضخمة التي تحتاج إلى صيانة دائمة ، وقد تستهلك يوما ، في حين أن الشكل الهرمي يبقى صامدا عشرات أو مئات السنوات !

هذه إذن بضع نقاط تدعو إلى التأمل والدراسة ، لكن علينا أن نعود سريعا للاحتكام إلى أبسط مبادئ المنطق والعقل ، فإذا كانت تلك المبادئ غير مقنعة للذين يعتقدون في الأوهام والخرافات ، فعلينا أن نحتكم إلى التجربة ، فهي الحد الفاصل بين الأنماط الفكرية القويمة ، والأنماط المعوجة أو المضللة .

الذين يسيئون إلى العلم !

على أن السيد بوفيس الذي أضفوا عليه لقب عالم فرنسي ، ليس عالما بمعنى الكلمة ، ولهذا لا تثريب عليه فيما يزعم ، إنما التثريب

يقع على قلة من العلماء الذين يعملون في حقل العلم ، ثم يسيئون إليه بخرافات وقرت في عقولهم ، فلوثت أفكارهم . . . إنهم هنا بالنسبة للعلم ، كالميكروب بالنسبة للجسد . . . لكن «جسد» العلم قوي قويم صامد ، وهو في نمو وازدهار دائم ، ولهذا لا تنال منه تلك «الميكروبات» التي تندس فيه بين الحين والحين ، فسرعان ما يلفظها ويقضي عليها ، لينطلق في آفاق واسعة ، ويعطينا إنجازات نافعة لا نحصيها عدا .

والأمر الخطير هنا أن رجل العلم ـ خاصة التجريبي ـ يحظى دائما من الناس بالثقة والوقار والنضج الفكري ، فإذا تحدث عن أمر من الأمور تجد عند الناس ميلا غريزيا لتصديقه أو الاستشهاد بما يقول ، لأن علمه قد علّمه ألا يذكر فيه إلا الحق ، ولهذا عندما يتعرض لظواهر خرافية ، تجد الناس أيضا مصدقين لما يقول ، ولهذا فقد أساء علماء مرموقون من أمثال «سير» أوليفر لودج وكروكس وبريجز . . . الخ ، إلى العلم إساءات لا تكاد تمحى ، إذ إن هؤلاء وغيرهم قد خدعوا في بعض الجلسات الروحية ، وصدقوا ما رأوا ، وما رأوا إلا بهتانا ، ثم تحدثوا إلى الناس بما خدعوا فيه ، ولهذا نجد كل الكتب التي تحدثت عن الأرواح والأشباح تستشهد بما قالوا كدليل أكيد على أن تلك الظواهر المزعومة حقيقة لا ريب فيها . . . ومما يذكره لنا كل من هـ . ج . ويلز ، وجوليان هكسلي ، و ج . ب . ويلز في كتابهم «علم الحياة» أن سير أوليفر لودج قال لثالثهم : «أرجوك . . . أنقذني من أصدقائي» . . . وكان وقتذاك قد تعرض لحملة قاسية من العلماء التجريبيين ، واعتبروه منتكسا ومرتدا عن جادة العلم ، وطريق الحقيقة ، ولا يصح لعالم مثله أن ينحدر إلى ما انحدر إليه العوام !

ولقد رأينا مما تقدم كيف أن واحدا من رواد الفضاء ورجل علم في المقام الأول هو د . إدجار ميتشيل قد انغمس في هذه البحوث الكاذبة ، ويشاركه أيضا د . بوهاريش ، ودكتور جون تايلور ، إلا أن هذا

الأخير قد بدأ يعود إلى صراط العلم المستقيم ، ثم يجيء واحد من علماء البيولوجيا هو دكتور ليال واطسون ليؤلف كتابا عنوانه «فيما وراء الطبيعة» Supernature ، ويحشوه بخزعبلات كثيرة ، ويذكر فيه ضمن ما يذكر أشياء غريبة عن معجزات الهرم الأكبر ، ويذهب إلى أبعد من ذلك ويذكر أنه قد حققها ، وثبتت لديه صحتها ، وما نظنه عالما على الإطلاق ، بل هو أقرب إلى هؤلاء الناس الذين يضفون على أنفسهم ألقابا علمية دون وجه حق ! (الواقع أن أسماء العلماء التي يدونونها في كتبهم ومجلداتهم تقرن دائما بمؤهلاتهم ومراكزهم العلمية ، وهذا ما لم نستدل عليه في كتاب واطسون) .

يقول واطسون في كتابه «إن بوفيس أراد أن يستريح في حجرة الملك من حرارة الظهيرة ، ولفت نظره أن حجرة الملك كانت تحتوي على قمامة (هكذا !!) ومن ضمنها علب المأكولات الفارغة التي يلقيها السواح هناك ، (وهذه فرية واضحة) ومعها جثة قط وبعض الحيوانات الصحراوية الصغيرة التي كانت تجول داخل الهرم وماتت ، وأن هذه الحيوانات قد جفت كالمومياء رغم الرطوبة ، ولم تتحلل أجسامها . . .» . . . الخ (لاحظ أن هذا الوصف يختلف في أمور عن الوصف الذي جاء في كتاب أنيس منصور) .

ولما عاد بوفيس إلى فرنسا صنع نموذجا مصغرا للهرم الأكبر ، ووضعه مقابلا للجهات الأربع الأصلية . . . تماما كالتي يوجد عليها الهرم ، وفي داخل هذا النموذج وضع قطة ميتة فتحولت إلى مومياء دون أن تتحلل ، وجذب هذا الاكتشاف كاريل داربل (وهو مهندس في أجهزة الإرسال والاستقبال من براغ) ، وأعاد التجربة مع عدد من الحيوانات الميتة ، واستنتج الآتي : «توجد علاقة بين الشكل والفراغ الهرمي وبين العمليات الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية التي تتم داخل هذا الفراغ ، وأنه بالإمكان استنباط أشكال أخرى مختلفة لنسرع ببعض هذه العمليات أو نبطئها» . . .

(والواقـع أن هـذه الادعـاءات المضللة لا توجـد في كتب الكيميـاء والفيـزياء والبيولوجيا) .

ولا تثريب أيضا على بوفيس أو درابل ، لكن التثريب واقع على دكتور واطسون الذي يذكر أنه صنع بدوره نموذجا مصغرا للهرم الأكبر من الورق المقوى ليجري فيه هذه التجارب ، وأنه قدم لنا الطريقة ، ولا مانع من ذكرها هنا ، فربما يعن لبعضنا التحقق من ذلك . . . يقول واطسون «جربها بنفسك . . . وعليك أن تقطع أربع مثلثات متساوية الساقين من الورق المقوى وبحيث تكون النسب بين طول القاعدة وساق كل مثلث هي ١٥٫٧ : ١٤٫٩٤ (بمعنى إذا كان طول ضلع القاعدة ٣١٫٤ سم مثلا ، فإن طول ساق المثلث يكون ٢٩٫٩٨ سم ، وهي النسب المصغرة للهرم الأكبر) . . . ثم ألصق المثلثات الأربعة بشريط لاصق ، وبحيث يرتفع الهرم إلى عشر وحدات تماما (أي إذا كان طول ضلع القاعدة ١٥٫٧ سم مثلا ، وطول ساق المثلث ١٤٫٩٤ سم ، يكون ارتفاع المثلث ١٠ سم) . . . وعليك أن توجه المثلث بحيث تكون أضلاع القاعدة مواجهة للشمال والجنوب المغناطيسي ، ثم الشرق والغرب . جهز بعد ذلك حاملا يرتفع عن مستوى القاعدة بمقدار ٣٫٣٣ وحدة (أي ثلث ارتفاع نموذج الهرم من الأرض) ، وضع هذا الحامل تحت قمة الهرم مباشرة ، وعليه الأشياء التي تريد اختبارها» .

ويذكر واطسون أنه وضع تحت هذا النموذج بيضا وقطعا من اللحم وفئرانا ميتة . . . الخ ، ووضع نفس الشيء تحت صندوق عادي من نفس الورق (للمقارنة بين نتائج هذا الشكل وذاك) ، واكتشف أن الأشياء الموجودة في الشكل الهرمي قد حفظت بطريقة جيدة ، في حين أن التي كانت داخل الصندوق قد فاحت رائحتها ، وكان لابد من التخلص منها .

إن هذا الهراء ما زالت تفوح رائحته بين العامة والخاصة ، ولقد تحدث به المفكرون والكتاب في إذاعاتنا وتليفزيوناتنا ، وسمعته بأذني ممن يشغلون مناصب كبيرة ، وكان من الواجب عليهم أن يرشدوا الناس لصنع هذه النماذج في بيوتهم ، ليحفظوا في داخلها بصلهم وثومهم ولحومهم وأسماكهم . . . الخ ، إذ مما لا شك فيه أن هذا «العلم النافع» ، لابد أن يجد التطبيق النافع . . . فالفرق بين الخطأ والصواب هو التجربة . . . وهي لن تكلفنا شيئا ، فخاماتها رخيصة ، لكننا لا شك خاسرون طعامنا !

تجارب في المعمل وفي داخل الهرم !

الواقع أن تحقيق هذا الأمر ، وأخذه على محمل الجد ، قد يدعو إلى الضحك والسخرية حقا ، وقد يعود بنا ذلك إلى تلك البدايات الغريبة التي بدأها العلم التجريبي في مهده للقضاء على كثير من الخزعبلات والخرافات التي كانت تسيطر على العقول منذ مئات السنين ، وفيها يذكر لنا بول دي كرويف في كتابه «صيادو الميكروبات» كيف بدأ العلم بداية غريبة ، فلقد كانت هناك جمعيات سرية تنتشر في معظم دول أوروبا في القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر ، فكانت هناك جمعية أسرار الطبيعة ، والجمعية السرية للعلوم ، والكلية غير المنظورة ، وكان أعضاؤها يقومون بالتجارب سرا خوفا من بطش رجال الدين والكهنة . ولنذكر واحدة من تلك التجارب المثيرة والمضحكة التي قام بها أعضاء الجمعية السرية ، للعلوم ، وهي التي كانت نواة لأكبر جمعية علمية ، والتي نعرفها اليوم باسم الجمعية الملكية للعلوم بلندن . . . صحيح أن التجربة التي سنذكرها لن تؤخر العلم ولن تقدمه ، لكنها كانت ضربة فعالة لواحدة من الخرافات التي سيطرت على العقول ردحا طويلا من الزمان .

لقد كان الظن الشائع بين الناس أن العنكبوت إذا وضع داخل دائرة مرسومة بمسحوق قرن وحيد القرن ، فإن العنكبوت لا يستطيع أن يتخطى حدود الدائرة ، ولهذا يبقى حبيسا في داخلها طيلة حياته حتى يموت . . . وقال أعضاء الجمعية السرية : لماذا لا نقوم بهذه التجربة لنرى ، وبالفعل أحضر أحدهم مسحوقا من المفروض أنه كان من قرن حيوان خرافي له جسم فرس وذيل أسد وقرن وحيد في وسط جبهته Unicorn ، وجاء آخر بزجاجة فيها عنكبوت ، والتف رجال الجمعية والموقرون ليروا نتيجة التجربة «التاريخية» على ضوء الشموع ، وحبس القوم أنفاسهم ، وخيم صمت رهيب ، وتمت التجربة ، وكتب أعضاء الجمعية تقريرهم ، ووقعوا عليه ، وقالوا فيه : «لقد رسمنا الدائرة بمسحوق من قرن وحيد القرن ووضعنا عنكبوتا عند مركزها ، ولكن سرعان ما انفلت وفر هاربا» !

وطبيعي أن مثل هذه التجربة قد تثير الشفقة أو السخرية من هذه العقول المفكرة ، لأنها تدل على بدائية في التفكير ، لكنها ـ مع ذلك ـ كانت بمنزلة الشرارة التي انطلقت لتحرق خرافات العصور الوسطى أو ما قبلها ، وبدأ العصر التجريبي للعلوم يؤتي ثمارا يانعة ، ويصيب الاعتقادات الخاطئة بالتدهور والذبول .

ونحن لا نجد غضاضة في العودة إلى مثل هذه التجارب في عصرنا الحاضر ، فمع تسليمنا بأن الهرم ـ حقيقة كان أو نموذجا ـ لن يحقق «المعجزة» التي عششت في العقول ، إلا أن ذلك الاستنتاج العفوي لا تقره «بروتوكولات» العلم التجريبي ، إذ لابد من التجربة أولا ، حتى نعرف القول الفصل في المسائل التي تغم علينا ، حتى لو كانت تافهة !

ولقد قمنا بدورنا بعمل نموذج للهرم من الورق المقوى ، ونموذج لصندوق من نفس الورق ، ووضعنا في هذا وذاك عينات من أسماك

ولحوم ومكعبات من البطاطس . . . الخ ، فلم يكن الشكل الهرمي بأحسن حال من الصندوق ، إذ دبت العفونة في محتويات هذا وذاك بنفس الدرجة ، كما أن فقد الماء من مكعبات البطاطس (عملية التجفيف التي وردت) لم تختلف في هذا النموذج عن ذاك .

وطرأت لنا فكرة أخرى : أن الهرم الأكبر في بلادنا ، ولن يكلفنا ذلك إلا السفر إلى الجيزة ، وإجراء التجربة ذاتها داخل الهرم ، فكان أن كتبنا إلى مصلحة الآثار نستأذن منها في إجراء عدد من التجارب تحت إشرافها ، فوافقت مشكورة على ذلك .

وفي داخل سرداب أرضي يمتد حوالي ٧٠ مترا أسفل الهرم ، وفي حجرة الملك التي تعلو سردابا يتجه إلى أعلى وضعنا عينات من لحوم داخل أطباق زجاجية معقمة ، وعينات أخرى من مرق (شوربة) في أنابيب الاختبار ، كما وضعنا في خارج الهرم عينات مشابهة للمقارنة ، ومر يومان ، كنا قد سجلنا فيهما درجات الحرارة في الداخل والخارج ، وكانت الحرارة في الخارج أعلى منها في الداخل بحوالي ٨ ـ ١٠ درجات في المتوسط ، وأخرجنا العينات ، فوجدناها جميعا قد فاحت رائحتها بشكل منفر ، ولم نجد اختلافا واضحا بين ما كان داخل الهرم ، وما كان خارجه (فالأنف لا يستطيع أن يقرر ذلك على وجه التحديد) .

ثم قمنا بخطوة أخرى تدخل في صميم تخصصنا ، وفيها أجرينا العد البكتيري لعينات اللحوم بطريقة من طرق التحليل البكتيري ، وكان عدد البكتيريا في الجرام الواحد منها كالآتي :ـ

عينات خارج الهرم ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ (١٤ بليونا/ ١ جم) .

عينات في حجرة الملك ٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ (٢٨ بليونا/ ١ جم) .

عينات في سرداب تحت الهرم ٥٨٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ (٥٨ بليونا/ ١ جم) .

وتشير هذه الأرقام إلى حقيقة واضحة ، فلقد كان نمو البكتيريا على اللحوم داخل الهرم أكبر من نموها خارجه بمقادير تتراوح ما بين ٢ ـ ٤ مرات ، وهذا يعني أن التعفن أو التحلل كان أسرع داخل الهرم من خارجه ، رغم أن الحرارة في الداخل كانت أقل ، والحرارة الأقل تؤدي دائما إلى سرعة في النمو والتكاثر أبطأ ، لكن يبدو أن الظروف في داخل الهرم كانت مهيأة لتكاثر أعظم ، رغم الاختلاف في الحرارة .

والنتيجة الحتمية : أننا قد حطمنا خرافة من الخرافات السائدة ، وطبيعي أن بحثا مثل هذا لا يقبل للنشر في مجلة علمية مهما كانت متواضعة ، كما أننا لا نستطيع أن نجازف بإرساله لهيئة علمية ، فأغلب الظن أنهم قد يظنون بنا الظنون ، لأن النتيجة معروفة مقدما ، وأن ما قمنا به قد يكون من قبيل العبث ، لكننا أرضينا ضميرنا في مسألة غمت على العامة والخاصة .

إن التعفن وظهور الروائح الكريهة يعنيان أن كائنات البكتيريا قد بدأت تهاجم المادة العضوية وتتغذى عليها (اللحوم والمرق والأسماك والجثث . . . الخ) . . . ولا شيء داخل الهرم يمنعها من ذلك ، اللهم إلا إذا كانت الأهرام مصدرا لأشعة قاتلة ، وهذا ما لم يهتد إليه أحد ، ولا هو وارد على أي تفكير علمي مهما كان متواضعا ، ثم إن الشيء الذي يقتل البكتيريا قد يقتل الإنسان .

ولو توقفت اللحوم أو الجثث عن التعفن والتحلل ، فإن ذلك يعتبر خرقا للنواميس الطبيعية ، فمصير كل مادة عضوية تترك لقدرها ، لا بد أن تعود إلى أصلها . . . إلى غازات وعناصر بسيطة وتراب ، حتى لو كانت في بروج مشيدة ، أو صروح ضخمة . . . وهذه عملية مستمرة بدأت يوم أن بدأت الحياة على الأرض ، ولن تنتهي إلا بانتهاء الحياة كلية من الأرض(*) ، ولن

(*) لمزيد من التفاصيل انظر كتابنا : دورات الحياة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة المكتبة الثقافية ـ ١٩٧٨ ، القاهرة .

توقفها أهرام ولا صلوات ولا نوايا طيبة . إذ لو توقفت البكتيريا عن رسالتها العظيمة ، لعمت الجثث هذا الكوكب ، ولتوقفت الحياة تبعا لذلك : لكنها لم تتوقف حقا ، لأن كل شيء يسير بحساب ومقدار ، وحسب شرائع لا خلل فيها ولا فوضى .

ومن ضمن الخرافات الغريبة أن الفراغ الهرمي يستطيع أن يعيد الأمواس الكليلة أو الثلمة (غير الحادة) إلى حدتها ، وصاحب هذا الاكتشاف «العبقري» أحد العلماء (هكذا !! . . . وهو ليس بعالم ، إنما هو درابل الذي سبق ذكره ، لكنهم يزجون دائما بأسماء العلماء في هذه الخرافات) ، وقد ذهب وسجله تحت رقم ٣٦٧ ، وفي رواية أخرى تحت رقم ٩١٣٠٤ من قائمة براءات الاختراعات التشيكوسلوفاكية (حتى الأرقام يختلفون فيها) ، وكان عنوان هذا الكشف «من هرم خوفو إلى أمواس الحلاقة» . . . ويقال إن الموسى الواحدة إذا وضعت تحت الشكل الهرمي بحيث تكون حافتاها الحادتان مواجهتين للشرق والغرب ، فإنها لا «تبرد» ، بل قد تبقى حادة لشهور طويلة . . . على أي حال جرب لتعرف !

ويقولون أيضا إن الشكل الهرمي يؤدي إلى شفاء المصابين بأمراض انفصام الشخصية ، وأن بعض سحرة القبائل يضعون على رؤوسهم أوعية على شكل هرم ، «وإذا مرض أحد من رجاله وضع الوعاء الهرمي على رأسه ، وراح يدق الطبول حوله بشكل خاص ، وأن الموجات الصوتية التي ترتد على الشكل الهرمي ويمتصها تنفذ إلى المراكز العصبية للمريض ، ويتم الشفاء» ! وطوبى للعقلاء !

* * *

خاتمـــة

نحن لا ندعي أننا قد أوفينا هذا الموضوع حقه ، فهو أكبر من أن يستوعبه كتاب أو عدة كتب من هذا الحجم ، لكننا ـ مع ذلك ـ نشعر بأننا قدمنا ما يكفي ليطلع القارئ بنفسه على أنماط من التفكير الأسطوري أو الخرافي ، وما يقابلها من أنماط في التفكير العلمي ، فحيث يعتمد العلم أساسا على منهج محدد وواضح للبحث عن الحقيقة في أي صورة من صورها ، وبحيث يؤدي المنهج إلى الحقائق ذاتها مهما تكررت التجارب ، نرى العكس من ذلك في ميدان تلك البحوث الزائفة التي يصدعون بها أدمغتنا ليل نهار ، دون أن يؤدي ذلك إلى تقدم ، ولو طفيفا ، في تطبيق واحد قد ينفع البشرية ، في معاناتها من أمراضها ومحاصيلها وزرعها وضرعها وسبل مواصلاتها . . . الخ . . . الخ .

والواقع ـ وكما رأينا دائما ـ أن العلم إذا دخل من الباب ، قفزت الخرافات هاربة من النوافذ ، لأن العلم يجيء ـ في أغلب الأحيان ـ متسلحا بمنهجه القويم الذي لا خداع فيه ولا تدليس ، ولو كانت لتلك البحوث الخرافية مقومات جادة ، ودعامات قوية ، بحيث تعطي النتائج ذاتها ، مع تكرار التجارب نفسها ، لاستطعنا أن نقول إنها تقوم على أساس يتبع نظم هذا الكون وشرائعه ، وعندئذ قد يعود القصور إلى عقولنا ، ولابد ـ والحال كذلك ـ أن نطور مداركنا ، ونحور تجاربنا ، لنصبح من تلك الحقيقة قاب قوسين أو أدنى . . . فكم من نتائج برزت أمام العلماء ـ سواء في معاملهم أو معادلاتهم ـ وران عليها بعض الشذوذ أو الحيود عن المنهج الذي يراود عقولهم ، وقد يكون هذا الشذوذ ناتجا من خطأ في التجربة العلميـة ، فإذا أعيدت مرة ومرة ومرات ، يظهر «الشذوذ» نفسه ، وعندئذ نعترف بأننا

أمام ظاهرة جديـدة ومـتكـررة ، ولابد والحال كذلك أن نطور مفاهيـمنا وتجاربنا ، ونصقـل معـارفنا ، حتى نصـل إلـى سـرها وتفاصيلها ، فيتبين لنا أنها ليسـت شـاذة ، بل هـي شيء جديد لم يفصـح عن حقيقتـه لكـل الأجيـال السـابقة .

وما أكثر هذه الظواهر الغريبة التي تقابل علماء الفيزياء والبيولوجيا والكيمياء والفلك . . . الخ . . . الخ . ولكن بالبحث والتمحيص تمخضت عن كشوفات ضخمة أفادت البشرية فوائد جمة . . . لكن هذا موضوع طويل ومتشعب ، وليس مجاله هنا ، لكننا ذكرناه هنا ذكرا عابرا ، لأن العلماء كانوا يتوقون فعلا إلى اعتبار بعض تلك الخرافات التي تتردد على ألسنة العامة ، وتعشش في عقولهم ، ظاهرة تستحق الدراسة والتمحيص ، وعندما جاءوها ليدرسوها ، بدت أمامهم كسراب خادع ، وليس للإنسان في السراب من فائدة ولا مأرب ، بل إن السراب نفسه قد يجره إلى المهالك !

وكما يغار رجل الدين الأصيل على دينه من الدنس والشبهات ، وما قد يتعرض له هذا الدين من هزات وتأويلات قد تأتيه ممن ليسوا في أحكامه وشرائعه راسخين ، كذلك يغار رجل العلم على علمه مما حل به من ادعاءات ظالمة ، وأوهام باطلة ، ولهذا نشعر بأننا قد قدمنا في هذا الجهد المتواضع ما قد يزيل الأدران التي ألصقوها بالعلم لصقا . وفوق كل هذا نضع أمام القارئ المستنير الفرق بين فكرين : فكر أسطوري مربح (للكتابه طبعا) ومريح ، وفكر علمي هدفه دائما أن يشـقى ويكد ويبحـث ويدقق ، لا أن يطلق لخياله العنان ، فيؤلف مجلدات من الأوهام !

ومما نعيبه على أجهزة الإعلام أنها تتعرض فقط للفكر الأسطوري ، ثم لا تكلف خاطرها بذكر شيء عن الفكـر العلمـي ، فإذا غم عليـها الأمـر فلا أقل من أن ترجع في هذا إلى العلماء المتخصصين في فروع العلم المختلفة . . . صحيح أن عملية البحث عن الحقيقة عملية شاقة ـ كما

أوضحنا ـ لكنها تستحق ذلك وزيادة . أضف إلى ذلك أن مقدمي البرامج الثقافية يقعون كثيرا في أخطاء كبيرة ، إذ يأتون بمن كتب عن هذه الأمور المضللة ليناقشوه فيما كتب ، ثم تراه يصول ويجول ، ومقدم البرنامج يجلس أمامه كالتلميذ الذي يؤمن على كلامه ، ويعني هذا مزيدا من الخرافات أمام سمع الناس وبصرهم .

لكن المأساة قد تصل إلى ذروتها عندما نعرف أن نسبة لا بأس بها من العلماء المتخصصين ـ في معاهد البحوث والجامعات ـ يعتقدون فيما يعتقد فيه عامة الناس ، وكأنما هم نبذوا معادلاتهم ونظرياتهم وقوانينهم ، وتركوها وراءهم في معاملهم ، وعن هذه الفئة يذكر لنا دكتور زكي نجيب محمود في كتابه «تجديد الفكر العربي» فقرة يقول فيها بحسرة «إنك في يومنا هذا ليأخذك العجب أشد العجب ، إذا ما أتيح لك أن تجالس طائفة من رجال العلوم الطبيعية ، لتستمع إلى ما يديرونه بينهم من أحاديث عن تصديق وإيمان إذا ما فتح لهم موضوع الخوارق والكرامات ، أنهم عندئذ يقبلون وهم في نشوة السعادة والرضى أن يحكى عن أصحاب الصلاح والطيبة والتقوى ، كل الخوارق التي تبطل أي قانون شئت من قوانين الطبيعة ، كأن الله تعالى يرضيه أن تكون سنته في كونه لهوا وعبثا ، إن هؤلاء العلماء وهم في معاملهم لا يقبلون إلا أن تكون قوانين العلم حاسمة صارمة ، فما الذي يصيبهم إذا ما تركوا معاملهم وعادوا إلى منازلهم يسمرون ؟ . . . أيتركون عقولهم في معاطفهم البيضاء في حجرات المعامل ، ليعودوا إلى منازلهم وقد فرغت رؤوسهم إلا من الخرافة وانعدام النقد وسرعة التصديق ؟ . . . أيثقل عليهم عبء العقل ، فيلقون به آنا بعد آن ليستريحوا في ظل الخرافة الندي الطري الممتع اللذيذ ؟!» .

إنها في الواقع ظاهرة غريبة متوارثة في العقول من قديم الزمن ، لا على مستوى العامة ، بل أيضا على مستوى الخاصة ، وأحيانا خاصة الخاصة ، وقد يكون للعامة عذرهم ، لكن ما عذر العلماء التجريبيين الذين يدركون تماما أن العلم يعمل في النور ، ولابد لإنجازاته أن ترى النور ، في حين أن

العلوم الكاذبة أو أشباه العلوم تعمل في الظلام ، وتعيش في الأوهام ، ولم تتمخض عن فائدة لها في حياتنا مستقر ومقام ؟!

ونود أن يؤتي هذا الكتاب المتواضع ثمرته المرجوة ، إذ لاحظنا أنه في الكثير من الظواهر الخرافية التي بزغ عليها العلم بنوره ، ولت الأوهام إلى الشقوق المظلمة كالفئران المذعورة .

بقي أن نقول : إن العلم النافع ، يجد دائما التطبيق الصحيح ، ويعطي دائما الثمرة المرجوة ، فالذين بحثوا عن طبيعة الموجات الكهرومغناطيسية التي لا تراها عيوننا ، وعرفوا بأجهزتهم ومعداتهم الحساسة من أسرارها الشيء الكثير ، قد استفادوا من تطبيقها في مجالات لا تعد ولا تحصى . . . فالكشف بالأشعة السينية على مواطن المرض ، كان إحدى حسناتها ، وكذلك العلاج بها أو بغيرها واحدا من منجزاتها ، والإذاعة بالصوت (الراديو) والصورة (التليفزيون) إحدى ثمراتها ، والاتصالات بين الأقمار الصناعية والمحطات الأرضية تعد دليلا على صحتها ، وكذلك شبكات الرادار والبحث عن الثروات في باطن الأرض بواسطة الاستشعار من بعد باستخدام الأشعة تحت الحمراء . . . الخ . . . الخ ، كل هذا وغيره يشهد بحسنات العلم النافع ، لكن ماذا أفادنا به هؤلاء إلا أن يتخذوا بحوثهم المزعومة وسيلة لخداع السذج والبسطاء ؟!

إن محصلة هذا الانحراف الفكري عن شرائع الله في كونه العظيم ، يعني انحرافا في توجيه عقول الناس عامة ، والشباب خاصة ، وجهة لا عقلانية ، فبدلا من أن يسلكوا طريق العقل والصواب ، نراهم يعيشون في عالم التصورات الرديئة ، والأوهام المريضة ، وبدلا من ترشيدهم وإرشادهم للبحث عن الحقيقة ، تكفيهم هذه الخزعبلات السقيمة .

«جفت الأقلام ، وطويت الصحف» !

***

مصادر الكتاب

الواقع أن المصادر التي استقينا منها مادة هذا الكتاب كثيرة جدا ، ولا شك في أن القارئ قد وقع على العديد من المقالات المتنوعة في كل الجرائد والصحف العربية ، التي تناولت المواضيع المختلفة التي ضمّناها هذا المؤلف ، وهي لم تتعرض ـ بطبيعة الحال ـ لأي تفسيرات علمية ، لأن ذلك قد يكون فوق طاقة من كتب أو نقل أو ألّف . . . يضاف إلى ذلك الكثير جدا مما نشر في المجلات والصحف الأجنبية بشيء من الإثارة ، وهي على أي حال غير علمية . . . ولهذا سنذكر فقط أهم المراجع العلمية التي لها وزن خاص في تفسير الظواهر على أساس من دراسة وبحث وتقنين .

أ ـ أهم المراجع العربية :

١ ـ د . أحمد أبو زيد : ماذا يحدث في علوم الإنسان والمجتمع؟ ، عالم الفكر المجلد ٨ ـ العدد ١ ـ ١٩٧٧ .

٢ ـ د . التجاني الماحي : تاريخ الطب عند العرب ، الخرطوم .

٣ ـ الألوسي : بلوغ الأدب في أحوال العرب .

٤ ـ أنيس منصور : القوى الخفية ، المكتب المصري الحديث ـ القاهرة .

٥ ـ أنيس منصور : أرواح وأشباح ، دار الشروق ـ القاهرة .

٦ ـ أنيس منصور : الذين عادوا إلى السماء ، دار الشروق ـ القاهرة .

٧ ـ أنيس منصور : الذين هبطوا من السماء ، دار الشروق ـ القاهرة .

٨ ـ د . بول غليونجي : طب وسحر ، الهيئة العامة للكتاب .

٩ ـ جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، الهيئة العامة للكتاب .

١٠ـ جيمس فريزر «سير» : الغصن الذهبي ، ترجمة وتعليق دكتور أحمد أبو زيد .

١١ـ راجي عنايت : الأطباق الطائرة ومخلوقات الكواكب ، سلسلة مقالات نشرت بمجلة « المصور القاهرية» .

١٢ ـ د . رؤوف عبيد : الإنسان روح لا جسد .

١٣ - شفيق مهدي الحداد : الطب الشعبي في واسط ، مجلة التراث الشعبي - العدد ٨ عام ١٩٧٤ .
١٤ - عبد الرزاق نوفل : من أسرار الروح ، كتاب اليوم - العدد ١٢١ - ١٩٧٧ .
١٥ - عبد الرزاق نوفل : صنع الله ، كتاب اليوم - العدد ١٣٧ - ١٩٧٨ .
١٦- د . عبد المحسن صالح : الضوء والخدعة ، دار الفتى العربي - بيروت .
١٧ - د . عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة ، الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
١٨ - د . عبد المحسن صالح : معارك وخطوط دفاعية في جسمك ، الهيئة العامة للكتاب - القاهرة .
١٩ - د . عبد المحسن صالح : البحوث الروحية بين الخدعة والحقيقة ، مجلة العربي - العدد ٢٢٤ - ١٩٧٧ .
٢٠- د . عبد المحسن صالح : سر هالات النور التي تظهر فوق الرؤوس ، مجلة العربي - العدد ٢٣٠ - ١٩٧٨ .
٢١- عبد المنعم حسن : الجراحات الروحية والمعجزات الطبية ، سلسلة مقالات عام ١٩٧٧ في مجلة الإذاعة والتليفزيون .
٢٢ - كمال الدين الدميري : حياة الحيوان الكبرى .
٢٣ - نخبة من العلماء : دائرة المعارف الإسلامية ، دار الشعب - القاهرة .

ب - المراجع الأجنبية :

24 - Annon Uri Geller Powers come from other world Intelligence; Says a Famous Scientist. Psychic News. No. 2181. 1974.
25 - Backster, Cleve The Mysterious Life of Plants. Cassell 1972.
26 - Blanc, M. Fading Spoon Bender New Sci. b Vol. 77, No. 1090. 1978.
27 - Book of Popular Science. The Reign of the Ghost : Primitive Man's Belief in Spirits. Vol. 5 p. 305-311. 1958.
28 - Chesterman, J. & Others. An Index of Possibilities. Clanose Publ. 1974.
29 - Clark, D., Parkinson, J. and Stephenson, R. Nova in 5 B.C.

explains Star of Bethlehm. Quarterly J. of the Roy.
Aster. Soc., vol. 18 p. 443, 1977.

30 - Droscher, V. The Magic of the Senses. Allen 1969.

31 - Gould, D. Spirits, Doctors and Disease. New Sci. vol. 70 No. 1002. 1976.

32 - Hanlon, J. Uri Geller and Science. New Sci. vol. 64 No. 919. 1974.

33 - Hanlon, J. Spoon Bending Science New Sci. vol. 75 No. 1060-1977.

34 - Kettelkamp, L. Investigating UFO's Ronald Stachy, 1972.

35 - Kiev, A. ed. Magic, Faith and Healing. The Free Press.

36 - Kolobkov, N. Our Atmospheric Ocean. Moscow.

37 - Krippner, S. & Rubin D. ed. The Kirlian Aura.
Anchor Book. 1974.

38 - Kruif de, P; Microbe Hunters. Pocket Books 1945.

39 - Lane, E. Electrophotography. (Kirlian Photo.) And/or Press.. 1975.

40 - Loebsak, T. Earth's Envelope. Collins. 1959.

41 - Massey, G. The Meretricious Triangle, New Sci. vol. 75.
No. 1060, 1977.

42 - McGraw-Hill, Encyclopedia of Science and Technology.
Plant Movements. vol. 10 p. 366 - 367. 1960.

43 - Morris, R. & D. Men and Snakes. McGraw-Hill 1965.

44 - Nolen, W. A. Healing : A Doctor in Search of a Miracle.
Fawcett. 1974.

45 - Orr, C. Between Earth and Space. MacMillan 1960.

46 - Ridpath, I. Flying Saucers - Thirty Years on. New Sci. vol. 77.
No. 1060. 1977.

47 - Sagan, C. & Page, T. UFO's - A Scientific Debate. Cornell Univ.
Press. London 1972.

48 - Steiger, B. & Whritenour, J. Flying Saucers are Hostile. Tandem. 1972.

49 - Tiller, W. Are Psychoenergetic pictures possible? New Sci. Vol. 62, No. 895. 1974.

50 - Watson, Lyall Supernature. Coronet Books. 1973.

51 - Wells, H. G., Huxley. J. & Wells, G.P. The Science of Life Cassell. 1938.

52 - Whitman, J. The Psychic Power of Plants. A Star Book. Allen. W. H. 1975.

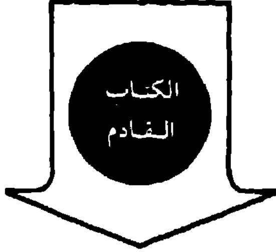
53 - Wilson, M. & The Editors of Life Energy. The Life Inter Nederland 1965.



المؤلف في سطور :

د . عبد المحسن صالح

* ولد في بني سويف - جمهورية مصر العربية .
* تخرج في كلية العلوم - جامعة القاهرة عام ١٩٥٠ ، وحصل على درجتي الماجستير (١٩٥٣) والدكتوراه (١٩٥٧) من كلية العلوم جامعة القاهرة في علم الكائنات الدقيقة .
* عمل أستاذا لعلم الكائنات الدقيقة بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية .
* كان عضوا في عدة جمعيات علمية ، كجمعية الميكروبيولوجيا التطبيقية (مصر - بريطانيا) .
* نشر له أكثر من ١٥ كتابا في تبسيط العلوم ، منها : «الميكروبات والحياة» ، «دورات الحياة» ، «الفيروس والحياة» ، «معارك وخطوط دفاعية في جسمك» . كما نشر له ٢٨ بحثا علميا متخصصا في الكائنات الدقيقة ، معظمها خاص بالتلوث البيئي ، وهي منشورة في كبريات الدوريات العلمية المتخصصة في مصر والعراق وألمانيا وبريطانيا والسويد وأمريكا .



الطب الإمبريالي و المجتمعات المحلية

تأليف : دافيد أرنولد

ترجمة : د . مصطفى إبراهيم فهمي

سلسلة عالَم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير عام ١٩٧٨ .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

١ - الدراسات الإنسانية : تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار .

٢ - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات .

٣ - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة .

٤ - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقا - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

٥ - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) - الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) ، والدراسات التكنولوجية .

أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية ، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على ان تكــون الأعمـال المترجــمة حديثة النشر .

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين ، على ألا يزيد حجمها على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط ، و أن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته . وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية ، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب ، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة ، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط . **والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها** . وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق .

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي ، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر (وبحد أقصى مقداره ألف ومائتا دينار كويتي) ، بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة و المترجمة ـ من نسختين مطبوعتين على الآلة الكاتبة .



صدر من السلسلة هذا العام ١٩٩٨

٢٢٩ ـ لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟	تأليف : د / مايكل كاريذرس ترجمة : شوقي جلال	يناير ١٩٩٨
٢٣٠ ـ الأمن الغذائي للوطن العربي	تأليف : د / محمد السيد عبد السلام	فبراير ١٩٩٨
٢٣١ ـ المعلوماتية بعد الإنترنت	تأليف : بيل جيتس ترجمة : عبد السلام رضوان	مارس ١٩٩٨
٢٣٢ ـ المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)	تأليف : د/ عبد العزيز حموده	أبريل ١٩٩٨
٢٣٣ ـ تـراث الإسـلام (الجزء الأول)	تأليف : جوزيف شاخت كليفورد بوزورث ترجمة : د . محمد زهير السمهوري د . حسين مؤنس د . إحسان صدقي العمد مراجعة : د . شاكر مصطفى د . فؤاد زكريا	مايو ١٩٩٨
٢٣٣ ـ تـراث الإسـلام (الجزء الثاني)	تأليف : جوزيف شاخت كليفورد بوزورث ترجمة : د . حسين مؤنس د . إحسان صدقي العمد مراجعة : د . فؤاد زكريا	يونيو ١٩٩٨

تنويه

للاطلاع على قائمة الكتب انظر عدد ديسمبر (كانون الأول) من كل سنة ، حيث توجد قائمة كاملة بأسماء الكتب التي نشرتها السلسلة منذ يناير ١٩٧٨

على القراء الذين يرغبون في استدراك ما فاتهم من إصدارات المجلس التي نشرت بدءا من سبتمبر ١٩٩١ ، أن يطلبوها من الموزعين المعتمدين في البلدان العربية :

● دولة الكويت

ـ المركز الثقافي بمشرف
بجانب جمعية مشرف التعاونية
ت : ٥٣٩٨٠٦٥
ـ مركز السرة
بجانب جمعية السرة
ت : ٥٣٢٠٨٢٤/٥٣٢٠٨٢٥

● المملكة العربية السعودية

الشركة السعودية للتوزيع
ص . ب : ١٣١٩٥ جدة ٢١٤٩٣
تلفون : ٦٦٩٤٧٠٠ ـ ٦٥٣٠٩٠٩

● دولة الإمارات العربية المتحدة

مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر
دبي ـ ص . ب : ٢٧١٠
تلفون : ٤٤٤٤٠٠

● دولة البحرين

الشركة العربية للوكالات والتوزيع
المنامة ـ ص . ب : ١٥٦
تلفون : ٢٥٥٧٠٦ ـ ٢٥١٥٣١

● سلطنة عمان

محلات الثلاث نجوم
ص . ب : ١٨٤٣ روي 112
تلفون : ٧٩٣٤٢٣ ـ ٧٩٣٤٢٤

● دولة قطر

دار العروبة للصحافة والطباعة والنشر
الدوحة ـ ص . ب : ٦٣٣
تلفون : ٤٢٥٧٢٣

● جمهورية مصر العربية

مؤسسة الأهرام
القاهرة ـ شارع الجلاء
تلفون : ٥٧٨٦١٠٠ ـ ٥٧٨٦٣٠٠

● الجمهورية العربية السورية

المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
دمشق ـ ص . ب : ١٢٠٣٥
تلفون : ٢١٢٥٨٧٤ ـ ٢١٢٧٧٩٧

● الجمهورية اللبنانية

الشركة العربية للتوزيع
بيروت ـ ص . ب : ٤٢٢٨ ـ ١١
تلفون : ٣٤٣١٤٥ ـ ٣٤٢٨٧٠

● المملكة الأردنية الهاشمية

وكالة التوزيع الأردنية
عمان ـ ص . ب : ٣٧٥
تلفون : ٦٣٠١٩١ ـ ٦٢٧٦٤٤

● الجمهورية التونسية

الشركة التونسية للصحافة
تونس ـ ص . ب : ٤٤/٢٢
تلفون : ٢٤٢٤٩٩

● المملكة المغربية

الشركة الشريفية لتوزيع الصحف
ص . ب : ١٣/٦٨٣ الدار البيضاء 20300
تلفون : ٤٠٠٢٢٣

● الجزائر

مؤسسة الضحى : E.D.E.D
شارع ١١ ديسمبر رقم 5
برج كيفان
ف : 203550

● الجمهورية اليمنية

محلات القائد التجارية
الحديدة ـ ص . ب : ٣٠٨٤
تلفون : ٢١٧٤٤٤ ـ ٢١٧٧٤٥



سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات :	أفراد	مؤسسات
دولة الكويت	١٥د . ك	٢٥د . ك
دول الخليج	١٧د . ك	٣٠د . ك
الدول العربية الأخرى	٢٥دولارا أمريكيا	٥٠دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	٥٠دولارا أمريكيا	١٠٠دولار أمريكي

المراسلات والاشتراكات / ترسل باسم :

الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : ٢٣٩٩٦ الصفاة/الكويت ـ 13100

برقيا : ثقف ـ فاكسميلي : ٢٤٣١٢٢٩

طبع من هذا الكتاب ستون ألف نسخة

مطابع الرسالة ـ الكويت



قسيمة اشتراك

البيـــان	سلسلة عالم المعرفة		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة المسرح	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٥	-	١٢	-	١٢	-	٢٠	-
الأفراد داخل الكويت	١٥	-	٦	-	٦	-	١٠	-
المؤسسات في دول الخليج	٣٠	-	١٦	-	١٦	-	٢٤	-
الأفراد في دول الخليج	١٧	-	٨	-	٨	-	١٢	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الخليج العربي	-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في : تسجيل اشتراك ☐ تجديد ☐

الاســم :	
العنــوان :	
اسم المطبوعة :	مدة الاشتراك :
المبلغ المرسل	نقدا / شيك رقم :
التــوقيــع :	التاريخ : / / ١٩م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت .

وترسل على العنوان التالي :

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب : ٢٣٩٩٦ ـ الصفاة ـ الرمز البريدي 13100

دولة الكويت

هـذا الكـتاب

لا شك في أن الرحلة العقلية التي قطعتها البشرية عبر تاريخها ، إنما هي رحلة انتقال من الجهل والخرافة باتجاه العلم والبحث الموضوعي المرتكز على أدلة مقنعة .

ولقد ظلت البشرية تستند إلى رؤية خرافية في تفسير أحداث الكون ، إلى أن بدأ الإنسان رحلته الشاقة والطويلة لاستكشاف «العلل» الحقيقية التي تكمن وراء الأحداث .

لكن الغريب أن الإنسان المعاصر الذي قطع أشواطًا بعيدة من هذه الرحلة نحو حضارة وتفكير يقومان على منطق «السببية» الذي يفسر الظواهر الطبيعية والبشرية منطلقا من أرضية البحث التجريبي ، هذا الإنسان لا يزال يحمل فوق كاهله طبقات متراكمة من آثار تفكيره الخرافي في الحقب السابقة ، فغدا يقف في مفترق طريقين للتفكير ، أحدهما يجذبه إلى إعمال العقل ، والآخر يغريه بالنكوص إلى مراحل الطفولة الإنسانية بما تلازم معها من تفسير عشوائي للظواهر .

هذا الكتاب هو محاولة لاستبطان حيرة الإنسان المعاصر وهو يقف في هذا المفترق الحرج بين طريقين متناقضين في التفكير . كما يكشف تورط بعض العقول في تبني الكثير من الأفكار الخرافية لتفسير بعض الظواهر المعقدة وإسهام وسائل الإعلام في ترويجها . كما يؤكد الكتاب أن العجز المرحلي للعلم عن تفسير بعض ظواهر الكون لا يعني أن نندفع إلى الخرافة قفزا على قواعد التفكير السليم التي أثبتت قدرتها على تحقيق إنجازات هائلة انتقلت بالبشرية نقلة نوعية حاسمة ، وبدلا من ذلك فإن علينا مواصلة البحث العلمي وتشجيعه لنستكمل رحلة الإنسان إلى عالم المستقبل وليس إلى غياهب الماضي .

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات :	أفراد	مؤسسات
دولة الكويت	١٥د . ك	٢٥د . ك
دول الخليج	١٧د . ك	٣٠د . ك
الدول العربية الأخرى	٢٥دولارا أمريكيا	٥٠دولارا أمريكيـ
خارج الوطن العربي	٥٠دولاراً أمريكيا	١٠٠دولار أمريكي

ردمـك ٢ - ٨ ٠٠ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906 - 0 - 008 - 2

